الجزء الثالث المجلد التسعون

مجلّة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلّة المجمع العلميّ العربيّ سابقًا »

مجلّة محكّمة فصليّة

رمضان ١٤٣٨هـ

تمّوز ٢٠١٧م

مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلَّة المجمع العِلميِّ العَربيِّ سابقًا »

أُنشئَت سنة ١٣٣٩هـ الموافقة لسنة ١٩٢١م

المدير المسؤول: الدكتور مروان المحاسني، رئيس المجمع

لجنة المجلة

الدكتور محمود السيِّد «رئيس التحرير»

الدكتور مكّي الحسني الجزائري — الدكتور مازن المبارك

الدكتور ممدوح خسارة «المقرر» — الدكتور محمَّد محفِّل

الدكتورة لبانة مشوِّح — الدكتور وهب روميَّة

الدكتور عبد النَّاصر عسَّاف

أمينة المجلة: ريم الملَّاح

أغراض المجلة:

إن أغراض المجلة مستمدة من أغراض المجمع الواردة في قانونه ولائحته الداخلية وأبرزها:

المحافظة على سلامة اللغة العربية، وجعلها وافية بمطالب الآداب والعلوم والفنون، وملائمة لحاجات الحياة المتطورة، ووضع المصطلحات العلمية والأدبية والحضارية، ودراستها وفق منهج محدد، والسعي لتوحيدها في الأقطار العربية كافة.

شروط النشر:

١- أن يتسم البحث بالجدَّة والأصالة والموضوعية.

٢- أن يُرفق البحث بالسيرة الذاتية والعنوان البريدي والإلكتروني.

٣- ألَّا يقلَّ البحث عن عشر صفحات وألَّا يزيد على ثلاثين صفحة من صفحات المجلة (٧٠٠٠ كلمة)، أما المقالات والتعريف بالكتب فيُقبَل منها مايقلُّ عن عشر صفحات.

٤- أن يرفق البحث بملخص بالعربية يُطبع في بدايته، يشير بوضوح إلى الجديد في البحث، وإلى أبرزِ نتائجه.

٥- أن يخلو البحثُ من أي إساءة إلى الكُتّاب والباحثين أو غيرهم، وأن يحترم المعتقدات الدينية والفكرية للشعوب.

٦- أن يُعدَّ الباحث - إذا رغب في ذلك - ملخصاً لبحثه بالإنكليزية أو الفرنسية.

٧- أن يلتزم الباحث المنهجَ العلميَّ في التوثيق، فتُعطى الحواشي أرقاماً متسلسلة من بداية البحث حتى نهايته، وتذكر حواشي كل صفحة في أسفلها كما يلي: «اسم المؤلف أو الكاتب- اسم الكتاب أو المجلة- رقم الصفحة»،

وفي المصادر والمراجع يكتب: «اسم الكتاب - اسم المؤلف - اسم دار النشر ومكانها - رقم الطبعة وتاريخها».

٨- أن تكون البحوث والمقالات المرسلة إلى المجلة منضدة بالحرف (Mylotus) أو (Traditional Arabic) قياس (١٦) وأن تشفع بقرص مدمج مسجلٍ عليه العنوان، أو مرسلة بالبريد الإلكتروني.

٩- تُوضع الكلمات العربية أو المُعرَّبة قبل مقابلها الأجنبي عند ورودها أول مرة، نحو:

تِقانة (Technology)، حاسوب (Computer)، نفسية (Psychologic).

١٠- أن يُعنى الكاتب بعلامات الترقيم: النقطة، الفاصلة، الفاصلة المنقوطة، ...إلخ.

١١- تَنشُر المجلة البحوثَ والمقالاتِ التي ترد عليها بعد أن تخضع للتقويم السِّرّي.

١٢- ألَّا يكون البحث منشورًا أو مرسلاً للنشر في مجلة أخرى أو مستلًّا من رسالة ويتعهد الباحث خطيًّا بذلك.

١٣- تُرتَّب البحوث والمقالات وفق اعتبارات فنية.

١٤- البحوث والمقالات التي لا تُنشر لا تردُّ إلى أصحابها.

١٥- تُرسَل البحوث والمقالات إلى المجلة على العنوان الآتي:

دمشق ص. ب ٣٢٧ البريد الإلكتروني: E-mail: mla@net.sy

تُنشَر المجلة في موقع المجمع على الشابكة (الإنترنت):

www.arbacademy.gov.sy

* * *

فهرس الجزء الثالث

من المجلد التسعين

البحوث والدراسات

- إكمال مادة لغوية (٣) عَلِم — د. ممدوح خسارة — ٥٨٣
- العربية الشمالية (القسم الأول) — د. رفعت هزيم — ٥٩٥

المقالات والآراء

- في العلم والمعرفة والفرق بينهما — د. مكي الحسني — ٦٢٣
- فيلسوف الجمال وأديب الفلاسفة
  الدكتور عبد الكريم اليافي — د. غسان شحرور — ٦٣٣
- جهاد المجمعيين السوريين في إقرار
  الألفاظ والأساليب — د. عيسى العاكوب — ٦٣٧

المحاضرات والمدارسات والندوات

- عبقري القص العربي: عبد السلام العجيلي
  في مرآة النقد المقارن — د. عبد النبي اصطيف — ٦٤٥

ندوة حول التراث في زمن المخاطر

١- كلمة رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني — ٦٧٩
٢- آلية الحفاظ على المخطوطات في أيام الخطر — د. مصطفى موالدي — ٦٨٥
٣- رقمنة المخطوطات في المكتبات — د. عبير العساف — ٦٨٩

٤- مشروع صون التراث السوري العاجل أ. أمينة الحسن ٧٠٥
٥- رؤية في آلية الحفاظ على المخطوطات وصيانتها أ. مأمون الصاغرجي ٧١١

أنباء مجمعية وثقافية

- حفل استقبال الدكتور عبد الناصر عساف:
١- كلمة رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني ٧٢٢
٢- كلمة الأستاذ مروان البواب في استقبال العضو الجديد ٧٢٨
٣- كلمة الدكتور عبد الناصر عساف يتحدث فيها عن سلفه الشيخ سليم البخاري ٧٣٨
- حفل استقبال الدكتور عبود السراج:
١- كلمة رئيس المجمع الدكتور مروان المحاسني ٧٦٠
٢- كلمة الدكتور موفق دعبول في استقبال العضو الجديد ٧٦٣
٣- كلمة الدكتور عبود السراج يتحدث فيها عن سلفه د. عزيز شكري ٧٧٣
- من قرارات مجلس المجمع في الألفاظ والأساليب ٧٨٣
- الكتب والمجلات المهداة إلى مكتبة المجمع ٨٠٥

❊ ❊ ❊

البحوث والدراسات

إكمال مادة لغوية

(٣)

أ. د. ممدوح خسارة(*)

مدخل: ثمة كلمات جديدة من أفعال وأسماء دخلت اللغة العربية المعاصرة وَفْق أبنية عربية، ولكنْ بدلالات محدَثة لم تكن لها عند القدماء، مثل فعل (اعْتَقل، انْعَدَم، أزَّم، حاسوب). وبالنظر لشيوعها، فإن الحاجة تدعو إلى دراسة كل منها على حدة، ولا سيما الأفعال، لمعرفة مدى صلوحها لدخول المعجم العربي، بعد أن دخلَت ميدان الاستعمال اللغوي. وإذا كان بحثنا سينصَبُّ على الأفعال، فذلك لأن إقرارها يَسْتتبع مشتقاتها من أسماء فاعلين ومفعولين وسائر الصفات.

علم

يحفل المعجم العربي قديمه وحديثه[١] بنحو ستة وخمسين مدخلاً مأخوذاً من الجذر (علم). وزاد عليها الاستعمال اللغوي المعاصر سبعةً وعشرين مدخلاً تتضمَّن نحو ستين دلالة جديدة، منها ما هو جديد تماماً بناء ودلالة، مثل (عَوْلَم والعَلْمنة)، ومنها ما اكتسب دلالات إضافية على ما كانت له، مثل (الإعلام والمَعلَم).

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) المعجم العربي القديم ممثلاً بمعجم تاج العروس من جواهر القاموس للزبيدي والمعجم العربي الحديث ممثلاً بالمعجم الوسيط لمجمع اللغة العربية بالقاهرة.

والمداخل الجديدة بناء ودلالة، أو الجديدة دلالة المقترحة لإكمال هذه المادة، هي:

١- **الإعلام**: هو في المعاجم: الإخبار. والدلالة المعاصرة له:

- النَّشْر بواسطة الإذاعة والتلفزيون والصحافة، ويمكن أن يفرَّع عليه: الإعلام المرئي، والإعلام المسموع، والإعلام المقروء..
- إشعار خطّي بما يتعيَّن على شخص أو هيئة، مثل: إعلام بالحُكْم، إعلام بالضريبة..

٢- **الإعلاميّ**: من يعمل في مهنة الإعلام، كاتباً أو محرِّراً أو مراسلاً أو مذيعاً.

٣-**التَّعْليم**: ورد في المعاجم مصدراً لفعل (علَّم)، بمعنى جَعَله يعرف الأمر ويتقنه. ولم يُفْرَد له مدخل خاص به. ويقترح إكماله بما يلي:

- التَّعْليم: تدريس الطلاب أنواع المعارف والعلوم والفنون.

ويَتفرَّع عليه: التعليم الإلزاميّ، التعليم الحكومي، التعليم الخاصّ، التعليم المستمرّ...

ويلحظ أن المعاجم القديمة جعلت الإعلام والتعليم شيئاً واحداً، إلا أنَّ الإعلام اختصّ بما هو سريع، والتعليم اختصّ بما هو بتكرير وتكثير[٢].

٤-**المَعْلومة**: هي في المعاجم القديمة مؤنث اسم المفعول (معلوم) وهي صفة، ويُقْتَرَح إضافة ما يلي:

- المعلومة: فكرة أو خبر مُتَناقَل، وكل ما يؤدي إلى كشف الحقائق وإيضاح الأمور، والجمع معلومات. يقال:(وردَتْنا معلومة جديدة).

٥-**المَعْلُومات**: مجموعة الأخبار والأفكار والبيانات المخَزَّنة أو المنسقة بواسطة الحاسوب، أو في وثائق خطيَّة. يقال: (لدينا قاعدة معلومات واسعة)، أو (المعلومات المتوفرة لدينا قليلة).

---

(٢) ابن منظور - لسان العرب - علم.

٦- **المَعْلوماتيّة**: كلمة جديدة بناء ودلالة، وهي مجموع التقانات المتعلقة بعلوم الحاسوب والاتصالات. وتُستعمل صفةً باللفظ نفسه فيقال: (كلية الهندسة المعلوماتية).

٧- **المَعْلَم**: هو في المعاجم القديمة والحديثة: الأثر يُستدلُّ به على الطريق وجَمعُه (مَعَالِم). ويقترح إضافة ما يلي إلى معناه:

- أبرز الآثار أو الأبنية أو المرافق التي تشتهر بها مدينة أو دولة دون غيرها. يقال: (الأهرامات أهم المعالم الأثرية في مصر) أو: (الجامع الأموي أهمُّ مَعْلَم في دمشق).
- حَدَثٌ تاريخي هام، كان له آثار كبيرة على دولة أو هيئة. يقال: (استقلال الجزائر مَعْلَم بارز في تاريخ الأمة).

٨-**المَعْلَمة**:لم ترد في المعاجم، ويمكن أن يُقترح لها المعنى المعاصر الآتي:

- المَوْسوعة: وهي معجم واسع للأفكار والمفاهيم والأحداث والأعلام. ويمكن أن تخصَّص للأعلام، ولما يطلق عليه (كتب التراجم)، وأسماءُ مُصَنَّفات الكتب من مثل (كشف الظنون)[٣].

٩- **المَعْلوم**: لم ترد إلا اسم المفعول من الفعل (علم)، ويمكن أن يقترح لها:

- ما هو معروف من عناصر المعادلة في الجبر. ويقابلها المجهول.
- كناية عن الرَّشوة، يقال: (أعطاه المعلوم).

١٠- **المَعْلوميَّة**: مصدر صناعي من (المعلوم)، وردت في المعاجم بمعنى فرقة صوفيَّة معينة. ويقترح لها:

---

(٣) هو كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمؤلِّفه مصطفى بن عبد الله الشهير: بحاجي خليفة (ت ١٠٦٧هـ).

• كَوْن الشي معلوماً[٤] على غِرار (مَظْلوميّة).

١١ - **المُعَلِّم**: ويقترح إضافة ما يلي من المعاني إليها:

• المُعَلِّم: رَبُّ العمل يقال: لم نجد المعلم، ولكن وجدنا أجيره.

• المدير: أو الرئيس في إدارة أو مؤسّسة، يُقال فيما بين الموظفين: (لم يحضر المُعَلِّم بعد).

١٢ - **العَلامة**: هي في المعاجم: ما يستدلُّ به على الطريق. ويقترح لها المعاني التالية:

• الدَّرجة الرقميَّة في التقويم أو الامتحان، يقال: (نال ثمانين عَلامة، وأحرز علامات عالية في الشهادة الثانوية).

• حركة الإعراب على الكلمة، يقال: وعلامة جزمه السكون، وعلامة جرِّه الكسرة....

• رَمْز يدل على نوع الصوت ومستواه الموسيقي، يقال: تُكتب الألحان بعلامات موسيقية.

• رَمْز حسابي يدل على إحدى العمليات الحسابية الأربع؛ وهي: الجمع والطرح والضرب والتقسيم (+، -، ×، ÷).

١٣ - **الاسْتِعلامات**: لم ترد في المعاجم، ويقترح لها:

• الاستفسارات والاستيضاحات.

• مكتب أو مركز مهمته إعطاء المعلومات حول خدمةٍ أو مسألة.

يقال: (راجع الاستعلامات) أي المكتب المكلَّف بتقديم المعلومات لطالبها.

١٤ - **العِلميَّة**: هي مصدر صناعي من (العِلْم) ويقترح لها:

• كون الشيء متَّصفاً بخصائص العلم، وهو الإدراك على وجه اليقين، ومجرَّداً من الخيال والعاطفة، يقال: (العِلْميّة أهمّ شروط البحث).

---

(٤) الجرجاني، التعريفات ١:٢٨٤- مفتاح العلوم للسكاكي ١: ٦٠.

- صفة الشيء المتَّصِف بالعلم، وشروطِه، كالبحث والاستقصاء والتحليل والبعد عن الهوى. يقال:(النظريات العلمية هي الآراء والأفكار المدعومة بالحُجج والأدلَّة والبراهين).

١٥ - **العَلَميَّة**: مصدر صناعي من (العَلَم)، وهو الدالّ على مُسَمَّاه دون قرينه. ولم يُذكر مدخلاً ويقترح له:

- كَوْن الشَّخص معروفاً معدوداً في الأعلام أو هو اسم عَلَم. يقال: (مُنِع من الصرف للعَلَمية والعُجْمة).

١٦ -**عَلَّم**: يفهم مما ورد في المعاجم أن معناه: نبَّه النَّفس لتصوُّر المعاني، وجَعَلَه يتعلَّم، ويقترح إضافة الدلالات الآتية:

- علَّم: دَرَّس، ولاسيما في المدارس الابتدائية.
- عَلَّم: درَّب على حرفة أو صنعة، يقال:(عَلَّمه النجارة).
- عَلَّم له: أرسل إليه علامة على الهاتف الجوَّال، يقال: (عَلِّم لي عند وصولك).
- عَلَّم على: وضع علامة أو رمزاً على ورقة وغيرها للَفْت النظر إليها.
- عَلَّم عليه: غَمَز منه لغفلة فيه، يقال: (لا تَدَعوا غيرنا يعلِّم علينا)، وهو تعبير مهذَّب بمعنى (لا يُظهر غَفْلَتنا: كَأَنْ يسرق منَّا شيئاً قليلاً. أو ينبِّه على هفوة لنا).

١٧ - **التَّعْلِيمة**: ليس في المعاجم كلمة (التعليمة) نصًّا. ولكنها - قياساً - مصدر مرَّة من (عَلَّم) أي التعليم مرة واحدة. ويقترح إضافة الدلالتين الآتيتين:

- التَّعليمة: هي مفرد (تعليمات)، وستأتي.
- التَّعْليمة: العَلامة: وهي وضع إشارة أو علامة على ورقة أو عبارة للفت النظر إليها يقال: (يُمنع وضع علامة أو تعليمة على ورقة الامتحان).

• التَّعليمة: إرسال إشارة إلى هاتف جوَّال، أو طلب رقم هاتف دون فتح الخطّ، لئلا تُحْسَب مكالمة مأجورة، يقال: (تلقيت منه تَعْليمة).

١٨ - **التَّعْليمات**: لم ترد في المعاجم. وهي جمع (تَعْليمة). ويقترح إضافتها بمعنى إرشادات وتوجيهات واجبة التنفيذ سواء أكانت شفهية أم كتابية يقال: (هذه تعليمات عسكرية)، ويقال أيضاً: (تعليمات الاستعمال).

وجاء في بعض المعاجم الحديثة أنها جمع (تَعْليم)، ونرى أن الأفضل أن تكون جمعاً لتعليمة، وأن يجمع (تَعْليم) على تَعَالِيم. والكلمتان - وإن كانتا بمعنى واحد - فإن الاستعمال المعاصر فرّق بينهما كما سنرى.

١٩ - **التَّعاليم**: لم ترد الكلمة في المعاجم القديمة، ولم ترد مدخلاً في المعاجم الحديثة[٥] التي ذكَرتُها. ولكنها وردت في سياق عبارات شارحة مثل (التعاليم القرآنية، التعاليم المسيحية..).

وقد يقال: إن المعاجم لا تذكر القياسيّ من المشتقات بل ما هو ليس بقياسيّ، فنقول: إن كلمة (تعليم) وجمعها (تعاليم)، لم يعد لها معنى المصدر القياسيّ من (علَّم) بمعنى جعل لنفسه أمارة يُعرف بها، أو جعله يتعلَّم، بل صارت بمعنى التوجيهات والإرشادات، مختصَّة بما هو عقائديّ أو أخلاقيّ، أي صارت اسماً مجرَّداً من معنى الحدث في المصدر.

٢٠ - **العَوْلمة**: لم ترد في المعاجم المرجعية عندنا، ويقترح إضافتها، وهي:

• حُرِّيَّة انتقال المعلومات ورؤوس الأموال والسِّلَع والأفكار والمنتجات بين مختلف المجتمعات البشريّة.

٢١ - **عَوْلم يُعَوْلم عَوْلَمة**: فِعْلٌ مولَّد حديثاً على بناء (فوعل) الملحق بالرباعي المجرد. ويُقْتَرَح له:

---

(٥) نعني بعبارة المعاجم الحديثة معجم اللغة العربية المعاصرة للدكتور أحمد مختار عمر وفريقه. وقد أخذنا منه كثيراً من تعريفات المداخل الجديدة.

• أخَذَ بنظام العَوْلمة في الاقتصاد والثقافة ونحوها، يقال: (عَوْلَمت الدولة اقتصادها).

٢٢- تَعَولم يَتَعَوْلم تَعَوْلُماً: فعل مولَّد حديثاً وهو مطاوع الفعل (عَوْلَم) ويعني:

صار ذا صبغة عالميّة واتَّصف بالعَوْلمة، يقال: تَعَوْلم الاقتصادُ، إذا صار ذا صبغة عالمية، وظهر عليه طابَع العَوْلَمة.

٢٣- التعليميّة: هي نسبة مؤنثة إلى (التعليم)، بمعنى إكساب العلم والمعرفة أو التدريب. ولكن نقلها بعض التربويين في المغرب، من الوصفية إلى الاسمية وصارت بمعنى:

• مناهج التعليم وأساليبه، فيقولون مثلاً: (تعليميَّة اللغات الأجنبية)..

٢٤- العالَم: وردت في المعاجم أنها الخَلق كُلُّه، أو كلُّ ما حواه بطن الفلَك، أو كلُّ صنف من أصناف الخلق كعالم الحيوان وعالم النبات. ويقترح أن يضاف إليها الدلالات المستحدثة وهي:

• العالَم: مجموعة من الدول أو الكيانات السياسية ذات طابع يميزها من سواها يقال: (العَالَم الأوربي، العالم الإسلامي).

• العالَم: مجموعة القارات والأقاليم والدول على الكرة الأرضية. يقال: (خريطة العالَم).

• العالَم الثالث: الدول المتخلِّفة عن غيرها علميًّا واقتصاديًّا..

• العالَم: مجال عَملٍ بشريّ أو نشاط إنساني، يقال: (عالم الاقتصاد، وعالم المال، وعالم الرِّياضة..)

وتَحْتمل النسبة إليها مختلف معانيها بحسب السياق. فقولنا: (مسابقات عالَمية) يعني أنه يشترك فيها كلُّ دول العالم أو معظمها. و(المُناخ العالمي) يعني مناخ الكرة الأرضية من حرارة وبرودة وأمطار.

٢٥- **العَلْمانية**: لم ترد في المعاجم، ويقترح إضافتها، ومعناها:

• مَذْهَب سياسيّ يُخْرِج الاعتبارات الدينيَّة والكَهَنوتية من العلاقات المدنيَّة والتعليم والإدارة، يقال: (دَوْلة عَلْمانيَّة).

٢٦- **عَلْمَن يُعَلْمن عَلْمنة**: وهو فعل مولَّد حديثاً على بناء (فَعْلَن) الملحق بالرباعي المجَّرد[٦]. ويعني:

جَعَل نظام الحكم غير دينيّ لا يهتم إلا بشؤون الدنيا، يقال: عَلْمَن الدَّوْلة أو عَلْمن التعليم إذا جعلهما غير دينيَّيْن.

٢٧- **تَعَلْمَن**: مطاوع (عَلْمَن) ويعني أنه صار غير ديني ولا كهنوتي. يقال: (عَلْمَنت الدولة التعليمَ فَتَعَلْمَن التعليمُ).

* * *

إكمال مادَّة لغوية

(٤)

جمهر

ما ورد في المعاجم العربية[٧] من هذه المادة نحو عَشَرة معانٍ هي:

- جَمْهَر الشيء: جَمَعهُ.
- جَمْهَر المتاع: أَخَذَ مُعْظَمه.
- جمهر الكلامَ: أَجْملَه، أخبره بجمهوره ومُعْظَمه أو ببعضه، على غير وجهه، وأَخْفى عنه المراد.

---

(٦) يجعله بعضهم مع أمثاله - على بناء (فَعْلَل) والصواب ماذكرناه، لأن النون من حروف الزيادة وحقها أن تزاد في الميزان بحسب قواعد الصرف.

(٧) نعني بالمعاجم العربية تاج العروس ممثِّلاً للمعجم القديم والمعجم الكبير ممثِّلاً للمعجم الحديث.

- الجُمْهور: الرملة المشرفة على ما حولها.
: ما تعقَّد من الرمل.
: جُلَّ الناس وأشرافهم.
- الجُمهورة: ما تعقَّد من الرَّمل.
: المرأة الكريمة.
- الجُمهوريّ: اسم شراب مُسْكر، وهو نبيذ العنب أتى عليه ثلاث سنين.
- المُجَمْهَرة: ناقة متداخلة الخَلق كأنها جُمهور رمل.
- تَجَمْهر علينا: تَطَاول، حقَّر.
- الجُماهِر: الضَّخْم.
- الجَمْهرة: المجموع والجمع ومعظم الشيء.

ويُقْتَرح إكمال هذه المادّة بالمعاني العصرية المتداولة الآتية:

١- **تَجَمْهَر الناس**: اجْتَمَعُوا للمطالبة بشَيْء، أو للاطِّلاع على أمر.

٢- **تَجَمْهَر مع غيره**: شارك في اجتماع مطلبي، يقال: (تَجَمْهرنا مع الصحافيّين)، واسم الفاعل منه مُتَجَمْهِر، وجمعه مُتَجَمْهِرون.

٣- **التَّجَمْهُر**: التجمُّع للمطالبة بشيء أو الاطلاع عليه، وهو شكل من التظاهر، يقال: (حَقَّق تجمهرُنا بعضَ المكاسب).

٤- **الجُمْهور**: أنصار مؤسَّسة أو نادٍ، يقال: (جمهور المنتخب الوطنيّ، وجمهور منتخب الجيش).

٥- **الجَماهير**: ج جُمهور، وهي الحشود الكثيرة من الناس، يقال (شاركَتْ جماهير الشعب في الاحتفاء بالنَّصْر)، ويقال: (جَماهير الحُجَّاج) و(جَماهير الطَّلبة).

٦- **الجماهيريّ**: نسبة إلى الجماهير، وتعني الأمر الشعبيّ العام وما

يُهمُّ معظمَ الناس. يقال: (العدالة مطلب جماهيري)، والنسبة إلى الجمع جائزة عند الحاجة.

٧- **الجُمْهوريّ**: نسبة إلى الجمهورية، أو رئيس الجمهورية، يقال: (مرسوم جُمهوريّ) لنوع من القرارات الإدارية العليا التي يصدرها رئيس الجمهورية.

٨- **الجَمْهرة**: الجماعة المحدودة، يقال (جَمْهَرة من الباحثين).

٩-**الجُمْهورة**: الجماعة القليلة، على جهة الاستهانة أو التحقير، لأن من معاني تَجَمْهر عليه: حقَّره. وتزاد التاء كثيراً للدلالة على القطعة من الشيء، يقال: (لم يشارك في الاعتصام إلا جمهورة من الناس).

* * *

إكمال مادَّة لغوية

(٥)

دول

ورد في المعاجم من هذا الجذر سبعة عشر مدخلاً تضمنت نحو عشرين معنى؛ وهي:

- دال دَوْلاً: انتقل من حال إلى حال.
- أَدَال الشيءَ: جعله متداوَلاً [منتقلاً].
- دالَ الشيءُ: ذَهَب مَرَّةً لهذا ومرَّةً لغيره.
- تَداوَلُوا الشَّيءَ: أخذه هذا مَرةً وآخرُ مرَّةً.
- انْدال القومُ: تحوَّلوا من مكان إلى آخر.

انْدالت أحشاؤه: خَرَجَتْ.

استَدال الأيامَ: استعطفها وطلب دَوْلَتَها [إليه].

الدَّال: حرف من حروف التهجِّي.

: المرأة السمينة.

-الدَّوالي: العِنَب.

: أوْردة غليظة، [من عروق الإنسان].

- الدَّوْلة: الاستيلاء والغلبة.

: حوصلة الطائر.

: شِقْشقة البعير.

: السُّرَّة .

: المَزَادة.

: مجموع كبير من الأفراد يقطن إقليماً معيناً بصفة دائمة ويتمتع بالشخصِيَّة المعنويَّة وبنظام حكم واستقلال سياسي.

-الدَّويل: النَّبت اليابس.

ـ المُدَاوَلة: إجالة الرأي في قضية.

: المُدَاورة.

- دوَّل حرفَ الدال: كَتَبه.

الدَّوْل: الدَّلْو.

-دَوَالَيْك: مُداوَلةً.

-الدَّوَل: النَّبل المُتَداول.

-الدَّالة: الشُّهْرة [بالسوء].

ويقترح أن يُضاف إليها ما شاع من كلمات مولَّدة سَبْع، وهي:

١ - **دَوَّل**: أَشْرَك في القضية أو المسألة عدَّة دُوَل، يقال: (دوَّلوا القضية الفلسطينية). واسم الفاعل (مدوِّل)، واسم المفعول (مُدَوَّل).

٢- **التَّدوْيل**: جعل القضية أو المسألة مشتركة بين عدة دُوَل يقال: (يُحاوِل أحد طَرَفي النزاع تدويل الأزمة).

٣- **تَدَوَّلت القضية**: مطاوع (دَوَّلَ) أي صارت متعلِّقة بدول عديدة، يقال: (تَدَوَّلت المسألة الفلسطينية).

٤- **التَّداوُل**: تبادل الآراء حول مسألة أو موضوع.

: انتقال حَقٍّ من مالك إلى آخر يقال: (تَدَاولُ العُمُلات).

٥- **الدَّوْليّ** ومؤنثه **الدَّوْلية**: نسبة إلى (دَوْلة)، وتُخَصَّص للعلاقة بين دَوْلَتين، يقال: (اتفاقية دَوْليَّة) إذا كانت بين دولتين، وإذا كانت بين أكثر من دولتين يقال: (دُوَليَّة)، ذلك أن النسبة إلى الجمع جائزة عند الحاجة.

٦- **الدُّوَلي** ومؤنثه **الدُّوَليَّة**: العالميّ، نسبة إلى (دُوَل) جمع دَوْلة. يقال: (عُقِدَ مؤُتمر دُوَلي حول القدس).

لحق: اقترح بعضهم الفعل (دَوْلَن) على بناء (فَعْلَن) بمعنى جعل الشيء دولياً. ولا نرى ذلك لأن الفعل (دوَّل) على بناء (فَعَّل) يُغني عنه، ومادام عندنا بناء أصليّ، فإن ذلك يجزئ عن بناءٍ مُلْحَق، ولم تستجد ضرورة لذلك كما في قولنا: (عَلْمنَ وعَوْلَم) إذ الدلالة هنا مختلفة.

* * *

العـربيـة الشـمالية

(القسم الأول)

أ.د. رفعت هزيم(*)

تبيّن لنا في بحث «العربية في جنوب الجزيرة العربية»(١) أنّ لغة الكتابة لعرب الجنوب القدماء ظلّتْ محفوظةً حتى اليوم في ضربين من النقوش: «نقوش المُسند» المكتوبة على الحجر والمعدن؛ و«كتابات الزَّبور» المكتوبة على عُسب النَّخل وأعواد الخشب، فضلاً على نصوصٍ أحدث زمناً سمّوا لغتها «الحِميريّة»، ولغة هذه الأضرب الثلاثة مطابقة للفصحى في النظام الصوتيّ، مماثلة أو مشابهة لها في كثيرٍ من الظواهر الصرفيّة والنحويّة والأسلوبيّة، فضلًا على اشتراك الفصحى والعربية الجنوبية في قدرٍ كبير من المعجم اللغويّ.

أمّا إخوانهم العرب الذين جاوروهم وعاصروهم في بقاعٍ شتى من المشرق العربيّ فقد تركوا لنا نقوشاً مكتوبة على الصخور، بدأ المستشرقون اكتشافها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وسمّوا لغتها «العربيّة الشماليّة المبكّرة»؛ أي ما يُسمّى بالإنكليزية Old/Early North Arabic ؛ وهو ترجمة لما سمّاه (كاسكل) W.Caskel بالألمانية Frühnordarabisch لأنّها تمثّل مرحلةً مبكرة من الفصحى، في حين يسمّيها الباحثون العرب «العربيّة البائدة»

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

(١) انظر الأجزاء ٢ و٣ و٤ من المجلد ٨٨.

– ترجمةً فيما يبدو للمصطلح Protoarabic – لأنّ أصحابها بادوا وانقضوا؛ أو «البدائيّة» لأنها لا تبلغ مستوى الفصحى، ولأنها تسبقها – كما يدّعون – بزمنٍ طويل، وهي أربع لهجات: اللحيانية والثمودية والصفوية والأحسائية. ويضاف إليها نقوش قليلة متفرّقة أحدث زمناً يُسمّيها المستشرقون Early Arabic = «العربيّة (أي الفصحى) المبكّرة»، ويسمّيها الباحثون العرب «العربية الباقية أو القديمة» خلافاً لـ «العربية البائدة أو البدائيّة».

وقد سُمّيت اللحيانيّة كذلك لورود الاسم «lḥyn = لحيان» في بعض نقوشها، وهي قبيلة ذكر الطبريّ والهمدانيّ أنها من جُرْهم على حين جعلها ابن حزم من هُذيل. وورد ذكرها بثلاث صيغ: Lechieni وLeanitae وLaianitai لدى (بلينيوس) Plinius (٢٣–٧٩م) و(بطليموس) C.Ptolemaeus (٩٠–١٦٨م) و(اسطفان البيزنطي) Stephanus of Byzantium.

أمّا الثمودية فالباحثون – ومنهم (أويتنغ) J.Euting و(مولر) D.H.Müller و(ليدزبارسكي) M.Lidzbarski – متفقون على هذه التسميّة لورود tmd اسماً لقبيلةٍ في بعض النقوش الثموديّة المكتشفة في مواقع على مقربةٍ من تبوك وحائل وتيماء، دون أن يعني ذلك – كما يقولون – أن يكون كاتبو هذه النقوش من ثمود وحدها. وقد ذُكرتْ «ثمود» مراراً في القرآن الكريم في سياق الحديث عن الأقوام التي أُهلكتْ ومنها لوط وعاد ومدين كقوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ [ص: ١٢–١٣]. كما ذُكرت بالصيغة نفسها – أي tmd – في النقوش السبئية والنقوش الصفوية، وكانت tamudi إحدى القبائل التي روى الملك الآشوري (سرجون) [شروكين] الثاني (٧٢١–٧٠٥ ق.م) أنها خضعت له عام ٧١٥ ق.م، ثم ذكر (بلينيوس) أنّ الجيش الرومانيّ كان يضمّ فرساناً ثموديين

مواطنهم في Domatha «دومة الجندل» (أي الجوف حاليًا) وHegra «الحِجْر» (أي مدائن صالح حاليًا) حيث تنتشر هذه النقوش.

ووصف (هاليفي) J.Halévy و(دو فوجيه) M.de Vogüé نقوش الضرب الثالث بأنها «صفويّة = Safaitique» وسمّياها «نقوش الصفا = Les Inscriptions du ṣafa» عام ١٨٧٧ نسبةً إلى تلول الصفا في الشمال الشرقيّ من جبل حوران جنوبي سورية، مع أنّ النقوش لم يُعثر عليها في هذا الموقع بل في «الرحبة» إلى الجنوب منه. و«الصّفا» جمع «الصفاة» وهي «الحجر الصّلد الضّخم لا يُنبتُ شيئاً»، وقد ورد اسما هاتين المنطقتين في قول جرير:

هبّتْ شَمالاً فَذِكرى ما ذَكرتُكُمُ عندَ الصّفاةِ التي شرقيّ حورانا

ثم شاعت تسمية (الصفويين) Les Safaites التي صاغها (دوسو) و(ماكلير) R. Dussaud & F.Macler عام ١٩٠٣ لكاتبي النقوش قياساً – فيما يبدو – على تسمية كاتبي الضربين السابقين «اللحيانيين» و«الثموديين»، وهو قياسٌ خاطئ؛ لأنّ كتب التراث العربي والمصادر القديمة جميعها لا تعرف – فيما أعلم – قوماً يحملون هذا الاسم، ولا يمكن الاعتراض على ذلك بأن (دوسو) و(ماكلير) ذكرا أنّ سكانها كانوا يُسمّون أنفسهم «عرب الصفا» لأنها تسميةٌ حديثة لا تجد لها سنداً في العصور الغابرة.

ونسب واضع مصطلح Ḥasaitic / Ḥasaean «الأحسائيّة/ الحسويّة» – وهو «جام» A.Jamme – ذلك الضرب من النقوش إلى إقليم الأحساء في المنطقة الشرقيّة من السعوديّة لأنها اكتشفت في مواقع مختلفة منه.

فإذا كان المنتسبون إلى قبيلة لحيان ومَن جاورها؛ وإلى قبيلة ثمود ومَن ساكنها هم الذين كتبوا النقوش اللحيانية والثمودية فمن هم كاتبو النقوش الصفوية والأحسائية؟ لا بدّ للإجابة عن هذا السؤال من تتبع تاريخ العرب

في المشرق العربيّ في الألف الأوّل قبل الميلاد لأنّ الباحثين يتفقون على أنه الزمن الذي نشأت في أحيانٍ متقاربة منه الأضرب الأربعة من نقوش العربية الشمالية. ويرجع أقدم ذكرٍ للعرب إلى عهد الملك الآشوري (شلمانصر) الثالث الذي يتحدث في أحد النصوص عن معركة خاضها في السنة السادسة من حكمه - أي سنة ٨٥٣ ق.م - في «قرقر» على نهر العاصي انتهت بهزيمة خصومه وكان أحدهم «جُندب Gindibu» العربي، ويبدو أن المنطقة الخاضعة لسلطة ذلك الشيخ كانت في البادية السورية على أطراف وادي السرحان. ثم تروي حوليات (تيجلات بيلاصر) الثالث أخبار انتصاراته في حملاته المتتالية على الأعداء، فتذكر اسم «زبيبي Zabibe -أي زبيبة- ملكة العرب» ضمن أسماء الحكام الذين دفعوا له الإتاوة سنة ٧٣٨ ق.م، ثم يرد في حولياته لسنة ٧٣٣ ق.م اسم ملكةٍ أخرى تُدعى (سمسي) Samsi - أي شمس - ملكة العرب هاجمها عند أحد الجبال وقتل تسعة آلاف من جنودها، ففرّت الملكة إلى البادية ولكنها عادت إلى العاصمة الآشورية وأعلنت خضوعها، ويورد الملك في روايته أسماء جماعات عربية أخرى خضعت له ودفعت إتاوةً من الذهب والفضة والإبل والطيوب. ثم يحدثنا (سرجون/ شروكين) الثاني عن إخضاعه أربع جماعات - إحداها tamudi = ثمود- واصفاً أفرادها بأنهم عربٌ يقيمون في البادية البعيدة لم يخضعوا لأحدٍ ولم يدفعوا إتاوةً لملكٍ من قبل. ثم تروي حوليات (سنحاريب) أنه هاجم بين عامي ٦٩١ و٦٨٩ ق.م العرب الذين كانت تقودهم امرأة تُدعى (تئلخونو) Te'elhunu وكانت حليفةً لـ«حزائيل» الذي وُصف في نقوشٍ أخرى بأنه ملك قيدار العربية، وأراد الحليفان بعد هزيمتهما النجاة بالفرار إلى «Adummatu أي دومة الجندل» غير أنّ

الآشوريين تعقبوهما وقبضوا عليهما. ثم يخبرنا (أسرحدون) بأنه جعل الأميرة (تبوه) Tabua التي كانت رهينة لدى (سنحاريب) ملكةً للعرب، وبأن جميع ملوك العرب قدّموا له الإبل التي احتاج إليها لعبور صحراء سيناء في حملته على مصر سنة ٦٧٣ ق.م. وكان العرب في عهد (آشور بانيبال) (٦٦٨-٦٢٦ ق.م) ينتقلون من حال الموالاة والخضوع له إلى حال التمرّد والثورة عليه تبعاً للظروف السائدة، وانتهى الأمر بهجوم الآشوريين على معسكراتهم وإحراق خيامهم وأسر اثنين من ملوكهم - أحدهما ملك قيدار- وُصف كل منهما بأنه «ملك العرب». فإذا انتقلنا إلى وثائق الدولة البابلية الحديثة فإنّ أوّل ذكرٍ للعرب هو ما ورد في حوليات (نبوخذ نصر) (٦٠٥-٥٦٢ ق.م) عن حملته إلى بلاد الحثيين - والمُراد هنا سورية - في السنة السادسة من حكمه، حين أرسل الملك كتائبه إلى الصحراء فكانت غنائمها من مقتنيات العرب المتمردين وأصنامهم وحيواناتهم كثيرة، ويبدو أن ذلك التمرّد وقع في مناطق في جنوبي سورية وشارك فيه ملك قيدار. ثم تذكر النصوص من عهد آخر ملوك هذه الدولة (نابونيد) (٥٥٥-٥٣٩ ق.م) أنه غادر بابل إلى تيماء فخاض هناك حرباً انتهت بمقتل ملكها، وأقام فيها عشر سنوات. فلمّا استولى الملك الأخميني (كورش) الثاني على بابل سنة ٥٣٩ ق.م بدأ الأخمينيون بإخضاع الكيانات الإثنيّة المستقلة، ولكنهم اتخذوا العرب - فيما يبدو - حلفاء لهم، فقد ذكر (هيرودوت) أنّ (قمبيز) الثاني عقد معاهدةً مع «ملك العرب» قبيل حملته على مصر سنة ٥٢٥ ق.م لتزويده بالإبل المحمّلة بِقِرَب الماء أثناء عبوره صحراء سيناء، كما ذكر أنّ وحدات عربية مقاتلة من الهجّانة شاركت في حملة «Xerxes أي أحشويرش الأوّل» على اليونان سنة ٤٨٠ ق.م. ثم أشار (ديودور) الصقلّي إلى مشاركة

العرب في حملات أخرى على الساحل وفي أعالي البحار في عامي ٤١٠ و٣٨٦ ق.م. وروى (بوليبيوس) Polybius (١٩٨-١١٧ ق.م) أنّ شيخاً عربيًّا يُدعى «زبدي بل» ومعه عشرة آلاف رجل ساندوا الملك السلوقي (أنطيوخوس) الثالث في المعركة التي خاضها ضد البطالمة في رفح عام ٢١٧ ق.م. ونضيف إلى ذلك أنّ «العهد القديم» يشير إلى «العرب» مراراً للدلالة على القبائل العربية في شمالي الجزيرة العربية، كما يذكر أسماء أولئك الذين ظهروا بعدهم كالقيداريين واليطوريين.

ويُستنتج من هذا العرض المقتضب أنّ المصادر الآشورية والبابلية والأخمينية والتوراتية تثبت أن العرب كانوا طوال خمسة قرون من الألف الأول قبل الميلاد مجموعةً إثنيّةً كبرى تنتشر قبائلها في شمالي الجزيرة العربية وأطراف بلاد الرافدين وسورية، وقد انضوى بعضها في اتحادات قبليّة أو إماراتٍ لم تذكر المصادر التي بين أيدينا سوى أسماء بعض شيوخها أو أُمرائها الذين لقَّبتهم بالملوك، لأنّ نمط حياتها البدويّ محا آثارها على مرّ القرون خلافاً للديدانيين واللحيانيين الذين كانوا من أهل الحضر فظلّت آثارهم في ديدان والحجر وسواهما حيّةً حتى اليوم، ولكن كلا الفريقين من عرب الشمال أسهما إسهاماً واضحاً في التاريخ السياسي والثقافي والعسكري والاقتصادي للمشرق العربي، فبأيّ لغةٍ كتب أولئك العرب؟ إذا كان إخوانهم الذين خلفوهم كالأنباط والتدمريين في سورية الطبيعية وعرب «الحضر» في بلاد الرافدين قد خضعوا لتأثير اللغة الآرامية التي كانت حينذاك واسعة الانتشار فكتبوا نقوشهم بخطوطٍ ولهجاتٍ آراميّة، فإنّ الديدانيين واللحيانيين والثموديين وكاتبي الأحسائيّة والصفويّة وسواهم اختاروا لغتهم العربية ليكتبوا بها ما خلفوا من تلك النقوش، وقد عرفنا

أصحاب النقوش الديدانيّة واللحيانيّة والثموديّة في حين ظلّت هويّة كاتبي النقوش الأحسائيّة والصفويّة مجهولةً حتى اليوم، ولا شك أنهم ينتمون إلى تلك القبائل العربية.

فإذا انتقلنا إلى التعريف بالخطوط التي استعملها كاتبو تلك النقوش فإنّ الأحسائية تُكتب بالخط العربي الجنوبيّ؛ أي «المُسْنَد» الذي يتألّف من حروف صامتة consonants فحسب لا يتصل بعضها ببعض البتة، ولا يرد فيه حروف صوائت vowels، ولولا التلف والطمس اللذان أصابا أجزاء كثيرة من نقوشها لكانت قراءتها يسيرة لوضوح الحروف ووجود الفواصل بين الكلمات. أمّا أخواتها الثلاث: اللحيانية والصفوية والثمودية فهي مكتوبة بحروفٍ متشابهة من خطٍ متفرّع من «المُسند»، وقيل إنّ هذين الضربين يعودان كلاهما إلى أصلٍ مشترك تطوّر لدى عرب الجنوب إلى المُسند ولدى عرب الشمال إلى خطٍّ مستقل دون اتصالٍ بينهما. ولكن قراءة النصوص اللحيانية والصفوية والثمودية تتطلّب جهداً أكبر، فلمعظم الحروف أشكال متعددة تختلف من موقعٍ إلى آخر بل من نقشٍ إلى نقشٍ مجاور على الصخرة نفسها، واتجاه الكتابة من اليمين إلى اليسار أو بالعكس، وقد يكون أفقيًّا أو عموديًّا، والأغلب أن يكون دائريًّا أو حلزونيًّا، ولا فواصل بين الكلمات، وفي كثيرٍ من النقوش نقص ناتج عن التلف أو الطمس، فيؤدّي هذا كله إلى صعوبة القراءة واختلاف الباحثين في نقحرة الحروف، و في تحديد بداية الكلمة ونهايتها، وفي معرفة التالف أو المطموس أو الناقص منها، وفي تحديد نهاية النقش. زد على ذلك أنّ الجمهرة الكبرى من نقوش اللهجات الأربع هي من النقوش القصار أو المخربشات Graffiti التي لا تتضمّن غالباً سوى أسماء الأعلام وبعض الألفاظ المكرَّرة، فنشأ عن هذا صعابٌ قلّما تواجه الباحث في العربية الجنوبية، لأنّ النقش

الواحد من النقوش اللحيانية أوالثمودية أو الصفوية يُقرأُ قراءات مختلفة ينشأ عنها تفسيرات متعدّدة، أضف إلى ذلك اختلاف الباحثين أحياناً في تصنيف النقوش لغويًّا، لأنّ الموقع الواحد يحوي نقوشاً لحيانيةً وثمودية، أو صفويةً وثمودية، فيؤدّي تشابه الخطوط والألفاظ المشتركة إلى الاختلاف في تحديد لغة النقش - إلا إذا وردت فيه أسماء آلهةٍ أو ملوكٍ تزيل اللبس - فهو عند أحدهم ثموديٌ وعند آخر لحيانيّ أو صفويّ، بل إنّ الباحث نفسه يغيّر في نشرةٍ جديدة تصنيفه اللغويّ في نشرته الأولى، وإليك البيان:

أولاً- النقوشُ اللحيانية والديدانيّة:

ديدان ولحيان:

اكتشفت معظم النقوش اللحيانية في منطقتين بين المدينة المنوّرة جنوباً وتبوك شمالاً، إحداهما: دَيْدان (العُلا حاليًّا) التي ورد ذكرها بهذه الصيغة في معجم البلدان لياقوت الحموي، وبصيغة «ddn» في النقوش اللحيانية والمعينيّة والثموديّة، وبصيغ مشابهة في مصادر أُخرى، نحو: Dedân في «العهد القديم» و Daidân في ترجمته السبعينية التي تُسمّى Septuagint، وأهم مواقعها «الخريبة» – وهي ديدان/ ددان القديمة - و «بئر العُذيب» و«وادي المعتدل» المجاوران لها، والمنطقة الأخرى: الحِجْر (مدائن صالح حاليًّا) التي تبعد عن ديدان زهاء ٢٢ كم شمالاً، وقد ذكرها الطبري والإصطخري وياقوت الحموي وسواهم، كما ذكرها (سترابو) Strabo (٦٤ ق.م- ٢٣م) و(بطليموس) و(اسطفان) البيزنطي بصيغة Egra، و(بلينيوس) بصيغة Hegra، ووردت بصيغة «ḥgr'» في النقوش النبطية؛ وأهم مواقعها: «جبل إثلب» و«قصر البنت» و«قصر الصانع». وكانت كلتا المنطقتين في النصف الثاني من الألف الأوّل قبل الميلاد محطَّة تجارية هامة على طريق البخور الذي كان طريق التجارة من جنوبي

الجزيرة العربية إلى موانئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً وإلى موانئ البحر الأحمر غرباً. وإذا كان الباحثون يتفقون على سكنى أربع مجموعات قبليّة عربيّة: الديدانيّون والمعينيّون واللحيانيّون والأنباط في ديدان والحجر في الألف الأوّل قبل الميلاد مخلّفةً آثاراً ونقوشاً ديدانيّة ومعينيّة ولحيانية ونبطيّة فإنهم يختلفون في الدور السياسيّ لكلٍّ منها وفي تعاقب الدّول في هذه المنطقة التي كانت ديدان حاضرتها وفي تحديد الحقبة الزمنية لتلك الدول، فاستعان الباحثون بما خلفوه من آثارٍ ونقوش وبما ورد في المصادر الكلاسيكيّة وبالدراسة الباليوغرافية للنقوش ليصلوا إلى التسلسل الزمنيّ لتلك الدول الحاكمة، فأخذ معظمهم بالمذهب الذي يمثله (وينت) F.V.Winnett – ويؤيده (البرايت) W.F.Albright و(فان دن براندن) A.van den Branden و(ريكمانز) G.Ryckmans وإنْ كانوا يخالفونه في بعض التفاصيل – وهو يرى أن أولى الدول هناك كانت المملكة الديدانيّة في القرن السادس ق.م أثناء حكم آخر ملوك الدولة البابليّة الحديثة (نابونيد) (٥٥٥–٥٣٩ق.م) الذي قضى عشر سنوات من عهده في تيماء وهيمن على المناطق المجاورة ومنها ديدان إذ ورد في كتاباته أنه هزم ملك da-da-nu «ديدان» دون أن يذكر اسمه، وثمة إشارة إلى حربٍ بين سكان الواحات في شمالي الحجاز ومنها ddn في نقوشٍ ثموديّة من «جبل غنيم» في الجنوب الغربيّ من تيماء تعود إلى القرن السادس ق.م. ويكتنف تاريخ هذه المملكة الغموض لأنه لا يُعرف منه سوى أسماء ثلاثة من ملوكها في النقوش الديدانيّة، ونقوشها قصيرة فقيرة المحتوى غير مؤرّخة، ولم يُعثر على شيء من آثار المملكة التي لا يُعرف متى كانت نهايتها.

وقد خَلَفَتْها المملكة اللحيانيّة من القرن الخامس حتى سقوطها في أواخر القرن الأوّل ق.م، فكانت أكثر اتساعاً وأطول منها عمراً، وذكر (بلينيوس) – الذي

عاش في زمن الأنباط أي بعد زوال الدولة اللحيانيّة - أن الحجر تقع في أرض اللحيانيين، مما يعني أنّ مساكنهم كانت في شمالي الحجاز. أما المعينيون فالراجح أنهم جاؤوا من اليمن القديم جماعاتٍ متتالية في أوقات مختلفة، وما لبثوا أن أصبحوا جاليةً ذات نفوذ في ديدان أدّت دوراً مهمًّا في تجارة القوافل بين القرنين الرابع والثاني ق.م دون أن تقوم لهم دولة، حالهم في ذلك كحال الجماعات المعينيّة التي استقرّت في مناطق أخرى - ومنها الحِجْر - كانت محطات على الطريق التجاريّ. ولكنّ المكتشفات الأثريّة في الحجر وكثرة الفخّار النبطيّ فيها تدلّ على أنها ازدهرت في عهد الأنباط في القرن الأوّل الميلاديّ، بعد أن حوّلوا الطريق التجاري من ديدان إليها مما أضعف الدولة اللحيانيّة وعجّلَ بزوالها. وانفرد (كاسكل) بمذهبٍ يقترح زمناً أحدث لقيام الدولة اللحيانية، إذ يرى أن المعينيين أقاموا دولةً بين عامي ٤٠٠ و١٦٠ ق.م لتكون بذلك سابقة للمملكة الديدانية التي انتهى عهدها - عنده - عام ١١٥ ق.م، حيث ظهرت الدولة اللحيانية، ثم جاء الأنباط في عهد حارثة الرابع (٩ ق.م -٤٠م) فظلت المنطقة خاضعة لهم حتى عام ٨٠ م لتبدأ المرحلة الثانية من عمر الدولة اللحيانية التي استمرت حتى منتصف القرن الثاني الميلادي.

اكتشاف النقوش:

كان (داوتي) Ch.Doughty - وهو جيولوجيّ - أول من نسخ نقوشاً لحيانية ظانًّا أنها عربية جنوبيّة في أثناء رحلته التي شملت تيماء وجبل حسمى ومدائن صالح والعلا في شمالي الجزيرة العربية عامي ١٨٧٦/ ١٨٧٧، وقد نشر (رينان) E.Renan تلك النقوش - وهي ثلاثون - مع نقوش أخرى آراميّة ونبطيّة بتكليفٍ من الأكاديمية الفرنسية للنقوش والآداب عام ١٨٨٤. وتلاه (هوبر) Ch.Huber الذي زار حائل وجبل حسمى وخيبر عامي ١٨٨١/ ١٨٨٢، ونشر النقوش اللحيانية التي جمعها - وعددها ١٦ - عام

١٨٨٤. وكان الثالثَ (أويتنغ) J.Euting الذي جمع في رحلته إلى مدائن صالح والعلا – التي صحبه في بعض مراحلها (هوبر) – عامي ١٨٨٣/ ١٨٨٤ زهاء ٩٠٠ نقش بلغاتٍ ولهجات مختلفة، منها ٧٤ نقشاً لحيانيًّا نشرها (مولر) D.H.Müller بعد أن أكمل قراءة حروفها نشراً علميًّا صحيحاً عام ١٨٨٩، ففُتحتْ بذلك مغاليق اللحيانية وصارت أسهل بحثاً. ثم نسخ (جاسان) و(سافيناك) – وهما من الآباء الدومينيكان – (١٧٧٥) نقشاً بلغاتٍ شتى، ومنها ٣٧٩ باللحيانية، في ثلاث رحلات إلى شمالي الجزيرة في الأعوام ١٩٠٧ و١٩٠٩ و١٩١٠، ونشرا تلك النقوش في كتاب من مجلّدين، تضمّن أولهما ٢٩ نقشاً لحيانيًّا من «جبل إثلب»، وثانيهما ما جمعاه من «الخريبة» وهو ٣٥٠ نقشاً[٢]. ثم جالَ (فيلبي) في طول الجزيرة وعرضها في أربع رحلات – إحداها مع (ريكمانز) – بين عامي ١٩٥٠و١٩٥٣ وتمكّن من تصوير آلاف النقوش بلغاتٍ مختلفة، وقد نُشر اللحياني منها – وهو ٣٠ نقشاً – عام ١٩٥٧[٣]. ثم صوّر (وينت) و(ريد) نقوشاً في أثناء جولةٍ في شمالي الجزيرة العربية عام ١٩٦٢، ومنها ١٨ نقشاً لحيانيًّا من «العلا» نشراها في كتابهما المطبوع عام ١٩٧٠[٤]. واستطاع (هاردنغ) – وهو يصحب (بار) في جولة في المنطقة عام ١٩٦٨ – تصوير ١٥ نقشاً لحيانيًّا من «وادي المعتدل» نشرها عام ١٩٧٢[٥]. وتبعته في العام نفسه أي ١٩٦٨ شتيل R.Stiehl فصوّرت أربعين نقشاً من «بئر العُذيب»

(٢) J. A. Jaussen et R. Savignac: Mission archéologique en Arabie, I-II, Paris 1909, 1914.

(٣) St.J.B.Philby: The Land of Midian, Londen 1957.

(٤) F.Winnett & W.Reed: Ancient Records from North Arabia, Toronto 1970.

(٥) P.J.Parr, G.L. Harding & J.E.Dayton: Preliminary Survey in North West Arabia, London 1972.

نشرها (ريكمانز) في كتابه الذي صدر عام ١٩٧١[٦]. ثم نشر (جام) مجموعةً من النقوش عام ١٩٧٤ جمعها W.Perry Hill قبل ذلك بعامٍ من «وادي المعتدل»[٧]. وشرع ذوو الاختصاص في السعودية عام ١٩٨٤ بإجراء مسح أثريٍّ وإبيغرافي شامل لجميع المناطق في المملكة، ويظهر أنّ ما جمعوه من النقوش اللحيانية نُشر منذ بضع سنوات[٨]. وقد نظر بعض الباحثين إلى الفروق الطفيفة في أشكال مجموعة من الحروف وإلى الإشارة في بعض النقوش إلى «ملك ديدان» فصنّفوها بأنها ديدانية، غير أنّ المذهب الشائع هو أن أوجه الاختلاف في المجالين الباليوغرافي واللغوي لا تكفي للفصل بين النقوش الديدانية - التي لا يتجاوز عددها سبعين نقشاً - واللحيانية، ولذا جعلهما معظم الباحثين ضرباً واحداً.

- لغة النقوش:

لا شكّ أنّ أسلوب النقوش - التي لا يتجاوز مجموع ما نُشر منها حتى اليوم ألفاً وأربعمئة- يُتَحكّم في لغتها في المجالين الصرفيّ والنحويّ، فصوغها بضمير الغائب جعلها نمطاً واحداً يكاد يخلو من الصيغ الصرفيّة والأساليب النحويّة الخاصّة بالمتكلّم أو المخاطب، ولذا لا يرد من صيغ الضمير المنفصل سوى hm للغائبين، أما الشواهد الثلاثة لضمير المتكلم «أنا» فهي ليست مؤكّدة. وتوافق صيغ الضمير المتصل بالاسم مثيلاتها في

(٦) G.Ryckmans: Neue lihyanische Inschriften aus al-cUdaib, 1971.

(٧) A.Jamme: Lihyanite Rock Inscriptions from Wadi Muctadil, 1974.

(٨) قرأتُ أنّ حسين أبو الحسن نشر زهاء ٣٥٠ من النقوش من «جبل إثلب» في «مدائن صالح» و من «جبل عكمة» ومواقع أخرى في «العلا» في دراستين نال بهما درجتي الماجستير والدكتوراه، ولا أستطيع تحديد حجم المكرّر من النقوش فيهما لأنني لم أتمكّن من الاطلاع على هاتين الدراستين.

الفصحى، فهي h- للغائب والغائبة (والسياق يفرّق بينهما) وhm- للغائبين، ماعدا صيغة المثنى فهي hmy–، وأما الضمائر المتصلة بالفعل فهي واو الجماعة، نحو: hwdqw «قدّموا» وهاء الغائب tbh' «أثابهُ». ولا نجد من أوزان الأفعال إلا الماضي المسند إلى ضمائر الغيبة، والغلبة فيها لوزن فَعلَ (الثلاثي) fcl، ويدلّ السياق على استعمال فاعلَ fcl، نحو ḥrb «حاربَ»، وافتعلَ ftcl، نحو: tqṭ (من الثلاثي المضعّف qṭ « قطَّ، نقشَ، كتبَ»)، وانفعلَ nfcl، نحو: nktb «انكتبَ، كُتبَ»، وهفعلَ hfcl – الذي تعرفه الفصحى والسبئيّة – نحو: hncm «أنعمَ» وhwdq «قدّمَ، قرّبَ» وhẓll «أظلَّ»، ومرادفه أفعلَ، نحو: «tb' أثابَ» و: ẓll/'ẓl' «أظلَّ»، أمّا المضارع فليس له – فيما يبدو – سوى ثلاثة شواهد: ysmc «يسمع» وṭṣbḥ «تُصبح (هي)» وystfy «يستوفي». ومن أهم السمات الخاصة بالأفعال كتابة الفعل الناقص اليائيّ بالياء مما يعني أنه يعامل معاملة الفعل الصحيح، نحو: bny «بنى» وdmy «رسمَ» وwdy «دفعَ الدية» وdly «توسّلَ»، ويظهر أنها تنطق banaya وdamaya وwadaya وdalaya، وحلول واو الجماعة محلّ ضمير المثنّى إذا كان فاعلاً، فيُقال: فلان وفلان bnyw «بنَوا» و: wdyw «ودَوا=دفعوا الدية»، ويُكتب الفعل الأجوف اليائيّ أو الواويّ بحذف الياء والواو غالباً، نحو: bt باتَ وṣd صاد وdm دامَ وkn كانَ (وتخالفها byd – بإثبات الياء – «بادَ»). وصيغ أسماء الإشارة هي: d أو dh للمذكر (والهاء تناظر الألف في الفصحى) «ذا، هذا»، وdt للمؤنث «هذه»، أما الاسم الموصول فصيغه كنظائرها في الفصحى: mn «مَن» وmh «ما وl' «الذي» وd المماثلة لـ «ذو» في نقش النمارة، ويسمّيها النّحاة «ذو الطائيّة» لأنّها كانت تستخدم اسماً موصولاً في لهجة قبيلة طيئ، كقول شاعرهم:

فـإنّ المـاءَ مـاءُ أبـي وجـدّي وبئـري ذو حفـرتُ وذو طـويـتُ

وصيغة أداة التعريف هي h وحدها، نحـو: hdr «الـدّارُ»، أو hn إذا تلاهـا صوتٌ حلقيّ، نحو: hn'ṣl «الأصلُ». ولجمـع التكسـير بضـعة شـواهد علـى وزن «أفعال»، نحو: ym' «أيّام» وbcl' أبعال» وrbb' «أرباب»، في حين أنـه لـم يرد للجمع السالم سوى شاهد واحـد فـي حالـة الإضـافة، وهـو: bnw «بنـو فلان». وللاسم المثنّى شواهد قليلة أيضاً في حالة الإضافة وهو ينتهي باليـاء وتُحذف نونه، نحو: mlky lḥyn «ملكَي لحيان». أمّـا اسـتعمال الأعـداد فهـو مماثل لما تعرفه الفصحى، نحـو: m't w'rbcn «مئـة وأربعـون» و: snt cŠrn wtsc «سنة عشرين وتسعٍ» و: snt ḥms lhn's «سنة خمسٍ لـ [الملك] فلان».

وأهـمّ السّـمات فـي المجـال الصـوتيّ اسـتعمال الصـوامت consonants للدلالـة علـى الصـوائت أي الحركـات vowels، فالفتحـة الطويلـة â فـي نهايـة الكلمـة تُكتـب هـاءً، نحـو: mh «ما/ مـاذا» و: dh' «إذا» و: ḏh «ذا، هـذا»، وفـي وسطها كذلك، نحو: hḏhn «هذان». وتُكتبُ الضمّة الطويلة الخالصـة û واواً إذا كانت في نهاية الكلمة، نحو: ḥdw' «أخـذوا» وbnyw «بَنَـوا» وbnw «بَنُـو، أبنـاء»، فإذا كانت في وسط الكلمة جاز إثبات الواو أو حذفها، نحـو: ḥwhm' «أخـوهم» واسم المفعول hmqtl «المقتول». أما الكسـرة الطويلـة الخالصـة (î) فلـيس فـي الكتابة ما يدلّ عليهـا، فـإذا انتهـى اللفـظ باليـاء فالظـاهر أن اليـاء تمثّـل الكسـرة الطويلة الممالة التي تعرفها بعـض اللهجـات العاميّـة، كفعـل «بنى» bny واسـم الإلهة «العزّى» hnczy والضمير المتصل للمثنى «هما-hmy»؛ فالنطق فيهـا: banë وhancuzzë وhumë، ولكـن الحركـة الطويلـة تُحـذف غالبـاً إذا كانـت ضـمّةً أو كسـرةً، نحـو: ḏ «ذو» و: bhm' «أبـيهم»، ويظهـر أن الصـوت المركـب (diphthong): ay أوau يبقى إذا كـان فـي نهايـة الكلمـة، نحـو: cly «علـى» أو إذا

تلاه ضمير متصل، نحو: bnyw «بَنَوْا» فنطقها banayû، ويتحول في وسطها إلى كسرةٍ طويلة ممالة دون أن يمثلها حرف صامت، نحو: «bt بَيْتٌ» و: zd «زَيْدٌ» التي تُنطق فيما يبدو بكسرةٍ طويلة ممالة – كما في العاميّة – bët وZëd. وتدغم النون في الصامت التالي لها، نحو: ('tt) بدلاً من ('ntt) «أنثى» و: ttn بدلاً من: tntn «ثنتان» و: bt بدلاً من bnt «بنتٌ»(٩).

– بناء النقوش ومضمونها:

يتوقع المرء أن تقدّم النقوش اللحيانية – كالنقوش السبئيّة مثلاً – صورة واضحة عن الجوانب المختلفة من تاريخ الدولة اللحيانية، ولكنه لا يجد فيها سوى أسماء ملوكها وآلهتها، والجمهرة الكبرى منها هي من المخربشات Graffiti المؤلّفة من أسماء الأعلام وحدها، نحو: 'bgr bn hn' (أبجر بن هانئ)، وقد تكون مصحوبة بصيغةٍ فعلية، نحو: tmlh rcy (تيم الله رعى)، أو وصفيّة، نحو: 'hld cbd 'brd (أخلد خادمُ أبرد). أما بقية النقوش– وهي مئتان ونيّف – فلا يتجاوز طول معظمها ستة من الأسطر القصار، ويمكن تصنيفها في ثلاثة أنواع، أحدها: نقوش الملكية التي تثبت حقوق الملكية، ويمثلها زهاء أربعين نقشاً من بئر العذيب توثّق نظام الريّ، وهذا أحدها: 1) ḥẓl bn 'fṣh sb 'ẓ 2) ll hẓll bkhl bcd n 3) hlh bbn 'l frḍh ws 4) cdh w'hrth وهو في الفصحى: «١–فلان بن فلان غطّى ٢– قناة الماء [التي أقامها] في [الموضع المسمّى] khl ٣–لنخيله في [الموقع المسمّى] bn'l، فلْيُرضه الإلهُ ٤–ويسعده هو وذريته». ومنها هذا النقش من «العُلا» في ملكية مدفنٍ: 1)cbd hrg bn flh zd dġbt bny h 2) kfr lh wlwrth hkfr dh kllh3) w'hd .hmtbrn snt ttn ltlmy bn 4) hn's

(٩) انظر ما كُتب عن لغة النقوش اللحيانية في: W.Caskel: Lihyan und Lihyanisch و: W.W. Müller: Das Frühnordarabische, pp.20-22.

١- [كاتب النقش] فلان بن فلان [بن] فلان ذو غابة بنى ٢- القبر له ولوريثه، القبر هذا كله ٣- وأخذَ القبرين في السنة الثانية لـ[عهد الملك] فلان بن ٤- فلان. وثانيها: النقوش النذريّة، وهذا أحدها وهو من العلا أيضاً: 1) smlh b 2) nt qsm 3) hdqt h 4) ṣlmn 5) lhn'kt 6) b frḍh w 7) 'ḫrth « فلانة بنت فلان قدّمتْ التمثالين لـ[الإله] hn'ktb فأرضاها هي وذريتها». وثالثها: نقوش البناء، ومنها هذا النقش وهو من الخريبة: 1) cqrb bn mr'lh hṣ 2) nc dġlh 'tc 3)'b'lf bḥqwy k 4) fr frḍh wscdh w 5) 'ḫrth snt ḫms 6) lhn's bn tlmy 7) mlk lḥyn وفحواه في الفصحى: ١- عقرب بن فلان الصانع ٢- من آل فلان نحتَ ٣- لفلان على جانبي القبر ٤- فأرضاه وأسعده ٥-وذريته سنة خمسٍ ٦- لفلان بن فلان ٧- ملك لحيان.

ثانياً- النقوش الصفويّة:

- الاكتشاف:

وترجع بداية اكتشاف النقوش الصفوية إلى منتصف القرن التاسع عشر، إذ نسخ بعضها البريطاني (غراهام) Cyril Graham عام ١٨٥٧ أثناء رحلة إلى «الحَرّة» بين تلول الصفا وجبل حوران. واستطاع قنصل بروسيا في دمشق (فيتسشتاين) J. Wetzstein في رحلته إلى ذلك الإقليم في العام التالي أي ١٨٥٨ نسخ ٣٧٩ نقشاً. أما الرحلة الثالثة فكانت للفرنسيَّيْن (دو فوغيه) M.de Vogüé و(ودنغتون) W. Waddington عام ١٨٦٢. ثم كانت رحلة الفرنسي (دوسو) R. Dussaud وزميله (ماكلير) Fr. Macler عام ١٨٩٩، وكانت حصيلتها (٤١٢) اثنا عشر وأربعمئة نقش، وقد عادا إلى المنطقة عام ١٩٠١ ليجمعا ٩٠٤ من النقوش. وانضم الأمريكيون إلى زملائهم الأوربيين فأرسلوا بعثةً أثرية عام ١٨٩٩ ثم بعثتين أُخريين موفدتين من

جامعة (برنستون) عام ١٩٠٤ ثم عام ١٩٠٩، فطافت البعثات الثلاث أرجاء سورية من الشمال إلى الجنوب. واستطاع الألماني (ليتمان) E. Littmann – الذي شارك فيها كلها – نَسْخ أكثر من ١٤٠٠ نقش[١٠]. ونشر (دونان) M.Dunand عام ١٩٣٤ تقريراً عن ٢٦٠٠ نقش نسخها هو وزوجته من جبل حوران، غير أن تلك النقوش تأخّر نشرها حتى عام ١٩٥٠ فكانت ضمن ٥٣٨٠ نقشاً ضمّها المجلّد الخامس من مدوّنة النقوش الساميّة: CIS,V(1950) الذي خصصّه محرِّره (رايكمانز) G.Ryckmans للنقوش الصفويّة. واستؤنف البحث عن النقوش في جنوبي سورية عام ١٩٩٥، حيث أجرت بعثة بريطانية سورية مسحاً إبيغرافيًّا واسعاً بإدارة (ماكدونالد) M.C.Macdonald ومشاركة مُنىٰ المؤذّن – الباحثة في المديرية العامة للآثار – وغازي علولو الذي نشر أربعمئة نقش من المجموعة التي نُسخت من «وادي السوع» شرقي «الزلف»[١١].

وبدأ المسح الإيبغرافي في البادية الأردنية عام ١٩٥٠، وكانت أهم نتائجه نسخ زهاء ١٠٠٠ نقش من منطقة «الاجفايف= H 5» أي «الصفاوي» نشرها (وينيت) عام ١٩٥٧[١٢]، و٤٨٠ نقش من «وادي مقاط» إلى الجنوب الغربي من «الإجفور= H4 أي «الرّويشد» نشرها (أوكستبي) عام ١٩٦٨[١٣]، وزهاء ٤٠٠٠ نقش من «الرّويشد» و«البرقع» و«تل قُرْمة»، نشرها (وينيت) و(هاردنغ)

(١٠) نشرها كلها في كتابه: Safaitic Inscriptions, Leiden 1943.

(١١) نال غازي علولو بنشرها درجة الماجستير من جامعة اليرموك في الأردن عام ١٩٩٦، ثم أعاد نشرها بدمشق عام ٢٠١١ بعنوان: نقوش صفائيّة جديدة من جنوب سورية.

(١٢) F.Winnett: Safaitic inscriptions from Jordan, Toronto 1957.

(١٣) W.Oxtoby: Some inscriptions from the safaitic Bedouin, New Haven 1968.

F. Winnett & G.L. Harding عـام ١٩٧٨[١٤]، وزهـاء ١٢٠٠ نقـش مـن حـرّة الرّاجل ومواقع أخرى نشرها (كلارك) عـام ١٩٧٩[١٥]. ويُضـاف إليهـا ٣٢٠٠ نقش نسختها (كنغ) G. King وألف أخرى نسخها (ماكدونالد) Macdonald عـام ١٩٨٢. ثم شرع قسـم النقـوش (أي قسـم اللغـات القديمـة) بجامعـة اليرمـوك بالتعاون مع دائرة الآثار العامة بتنفيذ مشـروع «مدوّنـة النقـوش الأردنيّـة» الـذي يهدف إلى إجراء مسحٍ إيبغرافيٍ شامل لنسـخ جميـع النقـوش المكتوبـة بلغـاتٍ ساميّة أو غير ساميّة في الأردن، وكانت البداية المسح الذي أجـراه (ماكدونالـد) في موقع «جاوة» شمالي «الصـفاوي» عـامي ١٩٨١/ ١٩٨٢، ثـم تـابع أعضـاء هيئة التدريس بقسم النقوش بالتعاون مع طلبة القسـم هـذا المسـح فـي مواسـم سنويّة بدءاً من عام ١٩٨٩ في المنطقـة بـين «الصـفاوي» و«الرويشـد»، وكانـت أهم مواقعه «غدير الملاّح» و«وادي سلمى» و«الشبيكة» و«بيار الغصـين» نُسِـخَ منها زهاء خمسة آلاف من النقوش[١٦].

أمّا في السعودية فإنّ نسخ النقـوش الصـفويّة يجـري فـي إطـار المسـح الإيبغرافي الشامل الذي شـرعت بـه دائـرة الآثـار والمتـاحف بالتعـاون مـع المختصين في الجامعات السعودية عام ١٩٨٤، وقد نُشر بعضها[١٧].

---

(١٤) F. Winnett & G. L. Harding: Inscriptions from fifty safaitic cairns, Toronto 1978.

(١٥) V.Clark, A Study of new safaitic inscriptions from Jordan, Melbourn 1979.

(١٦) نُشر بعضها في رسالتين نال بهما صاحباهما عبد الرحمن بني عواد ومحمـد الصـويركي درجة الماجستير من جامعة اليرموك، ثم نشـر فـواز الخريشـة خمسـمئة منهـا مـن «بيـار الغصين» عام ٢٠٠٢. وانظر مواقع النقوش في سورية والأردن في الخريطة.

(١٧) نُشرت تقارير عنها في مجلة «الأطلال»، وانظـر: سـليمان الـذييب: نقـوش صـفوية مـن شمالي السعودية، الرياض ٢٠٠٣.

- مواقع النقوش:

والخلاصة أنّ النقوش الصفوية - التي يمتدّ زمن كتابتها من القرن الأول ق.م إلى القرن الثالث الميلادي - تتوزع في رقعة واسعة تمتد من (دورا اوربوس) Dura Europos (الصالحيّة) على الفرات الأوسط شمالاً إلى وادي السرحان والجوف في السعودية جنوباً ومن الرطبة في الجنوب الغربي من العراق شرقاً إلى النقب في فلسطين غرباً. ولكن معظمها عُثر عليه مكتوباً على الأحجار البركانيّة في المنطقة التي صارت تربتها مؤلّفةً من اللابات البركانية المتراكمة بعد تبرّدها وتعرّضها لعوامل الحتّ والتعرية زمناً طويلاً، وما تزال تحتفظ باسمها القديم «الحَرَّة» وهي عند الجغرافيين العرب «أرضٌ ذات حجارةٍ سودٍ نخرات كأنها أُحرقت بالنار»، وقد وصفها أحمد وصفي زكريا بقوله إنها « تُسمّى حرّة الرّاجل نسبةً إلى وادٍ فيها اسمه وادي الرّاجل المنحدر من صَبَب جبل حوران الشرقي الجنوبي، فهي وعرةٌ عظيمة تمتدّ داخل الأردن بين محطتي [H4 «الرويشد»] وH5 [«الصفاوي»]، وهي مؤلفة من صخورٍ بركانية صغيرة لمّاعة سوداء كالفحم الحجريّ قذفتها حممُ جبل حوران كما قذفت حرّتي اللجا والصفا،... وكانت في عصور التاريخ الأولى شبه مأهولة، يدلّ على ذلك أطلال المباني الحجريّة والأدوات الظرّانيّة والكتابات الصفويّة الكثيرة فيها»[١٨]، فهي تشمل جنوبي سورية والبادية المجاورة في شمال شرقي الأردن وتنتهي في وادي السرحان شمالي السعودية، و تحتوي منطقة الحرار على هضابٍ وتلالٍ ومنخفضاتٍ تقطعها وديانٌ تملؤها مياه الأمطار، وأهمها وادي الشام ووادي

(١٨) زكريا: عشائر الشام، ص٢٨-٢٩.

الغَرْز اللذان يصبّان في واحة الرحبة قرب تلول الصّفا، ووادي مقاط الذي يمتد من جنوبي تلك التلول إلى البادية الأردنية، ووادي راجل الذي يصبّ في واحة الأزرق في الأردن.

- قراءة الخطّ الصفوي:

أخفق O. Blau ثم D. H. Müller في فكّ رموز هذا الخط لأنه - من ناحية - لم يكن بين أيديهما إلّا عدد قليل من النقوش يشمل ما نسخه (فيتسشتاين)، ولأنهما كانا - من ناحية أخرى - يقارنان مقارنةً دقيقة بين تلك الكتابة و«الكتابة الحميرية». ولكن (هاليفي) تمكّن في بحثٍ مطوَّل نشره في ثلاثة أجزاء بين عامي ١٨٧٧ و١٨٨٢ من قراءة ستة عشر حرفاً وهي: الألف والباء والتاء والحاء والخاء والدال والراء والسين والطاء والعين والقاف والكاف واللام والميم والنون والياء. وأضاف Fr. Praetorios إليها وهو يراجع هذا البحث عام ١٨٨٣ خمسة حروف أخرى هي: الثاء والذال المعجمة والغين والهاء والواو، ثم استكمل (ليتمان) عملهما بقراءة الأحرف السبعة الباقية - وهي الجيم والزاي والشين والصاد والضاد والظاء والفاء - في كتاب نشره عام ١٩٠١[١٩].

- لغة النقوش:

وأهم خصائصها في المجالين الصوتي والصرفي إغفالها - في الأعمّ الأغلب - كتابة أصوات اللين المركّبة (= diphthong)، وهي: ay وau، فالأسماء: صيْف و: بيْت و: موْت و: خَيْلٌ و: عَيْرٌ (= حمارٌ) ترد هكذا: ṣf، bt، mt، hl، cr، فتُنطق فيما يبدو بكسرةٍ طويلة ممالة - كما في العاميّة - ṣëf

(١٩) Zur Entzifferung der ṣafâ-Inschriften, Leipzig 1901.

وbët وmÔt (وثمة شواهد مخالفة، نحو: ṣyf =صيفٌ و: byt = بيت و: hyl = خَيْلٌ، و: cyr = عَيْرٌ و: qyẓ = قيظٌ) وإغفالها كتابة أصوات الحركات الطوال (أي حروف المدّ) أيضاً، فالأسماء: خالٌ، و: دارٌ، و: عامٌ ترد هكذا: hl، dr، cm، وصيغة المتكلم من الضّمير المنفصل «أنا» وكذلك حروف الجر الثلاثة «إلى وعلى وفي» مختصرة بحذف الحرف الأخير، فصيغها هي «'n + 'l +cl + f» على الترتيب، ووزن «فاعلَ» هكذا: sfr «سافرَ». ويرد الفعل الثلاثي الأجوف بحذف الواو أو الياء تارةً، نحو: qm «قامَ» و: rḥ «راحَ» و: ḥr «حارَ» و: ḥb «حابَ، تحسّرَ» و: bt «باتَ» و: ṣr «صار»، وبإثباتهما تارةً أخرى، نحو: ḥwr و: ḥwb و: byt و: ṣyr. أمّا الفعل الناقص اليائيّ فيُعامل معاملة الفعل الصحيح بثبوت الياء، نحو: bny «بنى» و: bky «بكى» و: rcy «رعى»، ولكن الواو والياء تتعاقبان في الأجوف والناقص، نحو: cwq +cyq «عاقَ» و: ḥwb + ḥyb (في الأجوف)، و: 'tw+ 'ty «أتى» و: bny + bnw «بنى» و: Šty + Štw «شتا» (في الناقص). وتحذف الواو من صيغة الأمر من الفعل المثال، نحو: hb «هَبْ»، ويرد الثلاثي المضعّف بالإدغام وبغيره، نحو: ḥll +ḥl «حلَّ»، و: qrr + qr «قرَّ»، و: ẓll + ẓl «ظلَّ، أي استظلَّ». وتُدغم النون بالتاء التي تليها، نحو: wtẓr «وانتظرَ» و: bt «بنتٌ» (إلى جانب bnt بدون إدغام)، وكثيراً ما تُحذف النون من «مِن» الجارّة، نحو: 'mŠn «من شانئٍ» و: mb's «من بأسٍ» و: mḥwrn «من حوران» و: mcbdh «من عبْدِهِ». أما اسم الإشارة – وهو يلي المشار إليه غالباً – فصيغته وهي حرف الذال المعجمة واحدة لكلا الجنسين؛ ولكن النطق يُفرّق – على الأرجح – بينهما كما هي الحال في الفصحى، فهو «ذا» للمذكّر و «ذي» للمؤنّث، نحو: gw d «الوادي هذا»، و: 'tr d «المكان هذا»، و: hbkrt d «هذه الناقة». والذال

المعجمة هي صيغة الاسم الموصول أيضاً، فتماثل بذلك «ذو الطائيّة» وتتبعها عادةً كلمة «l'» للدلالة على النّسب، نحو: d 'l zhr «فلان من آل زهر»، وقد وردت بصيغة d't للمؤنث، نحو: d't tm « فلانة من آل تيم»، كما ورد الاسم الموصول mn «مَنْ» في بعض النقوش. وأما أداة التعريف فهي – كما في اللحيانية – الهاء، ودلالتها كدلالة اسم الإشارة، نحو: hgml «الجمل/ هذا الجمل» و: hdr «الدار/ هذه الدار»، ويغلب أن تسبقها الباء الجارّة، نحو: bhdr «بهذه الدّار» و: bh'rḍ «بهذه الأرض»، والهاء صيغة النداء، ولا شواهد لها إلا مع أسماء الآلهة، نحو: hbclsmyn slm! «يا بعل السماء!» و: hrḍw scdh! «يا رضا! »، ويكون اللفظ بعد المنادى هنا فعل أمرٍ (سلِّمْ، و: ساعدْهُ)[٢٠]، ويجوز أن يكون في المثال الأول اسماً منصوباً بفعلٍ مقدّر (امنح سلاماً) كما هي الحال في التعبير الشائع «أهلاً وسهلاً». والاسم ثنائيّ، نحو: b' «أبٌ» و: bn «ابنٌ»؛ أو ثلاثيّ، نحو: d'b «ذئبٌ» و: mṭr «مطرٌ» و: frs «فرسٌ»، وتأنيثه بالتاء، نحو: h' «أخٌ» + ht' «أختٌ» و: mr' «امرؤ» + mr't «امرأةٌ» و: ġlm «غلامٌ» + ġlmt «غلامةٌ، فتاةٌ»، ويُجمع غالباً جمع تكسير، نحو: nq «نُوقٌ» (ومفرده nqt «ناقةٌ») و: lsnt' «ألسِنةٌ» و: ġnm' «أغنامٌ» و: hnh' «إخوانه» و: hẓbyn «الظِبيان؟»، وندر ورود الجمع المذكّر السالم، نحو: rbc snn' «أربع سنين»، وقد تتطابق صيغتا المفرد والجمع أحياناً، نحو: gml «جَملٌ، جِمالٌ» و: byt «بيتٌ، بيوتٌ»، وثمة شواهد لاسم الجمع، نحو: bl' «إبِلٌ» و: ḍ'n «ضأنٌ» و: hyl «خَيْلٌ» أما المثنى فمن شواهده: hgmln «الجملان» و: hbkrtn «البِكرتان» و: hẓbytn «الظبيتان». ومع أنّ صيغة الكتابة لا تدلّ – في الأعمّ الأغلب – على أوزان الأفعال فإنّ

(٢٠)ومما يؤيّد ذلك ورود اسم الإله مؤخّراً أحياناً، نحو:f slm hlt.

السياق والمقارنة بالفصحى يُمكّنان من معرفة أكثرها، فمنها: «فَعَلَ» ؛ نحو: wgd «وجدَ» و: wgm «وجمَ» و: dbḥ «ذبحَ»، و «فعّلَ» ؛ نحو: slm «سلَّمَ»، و «فاعَلَ»؛ نحو: sfr «سافَرَ»، و: «أفعَلَ»؛ نحو: 'Šrq «أشرقَ، أي اتجه شرقاً» و: 'hf «أخافَ»، و: «تفعّلَ» ؛ نحو: tŠwq «تشوّقَ» و: thwf «تخوّفَ» و: tcff «تعفّفَ»، و: انفعلَ؛ نحو: wtẓr «وانتظرَ»(٢١).

وتؤكّد تلك القراءات صيغُ المضارع والأمر واسم الفاعل، نحو: yŠrq «يُشْرِقُ» و: yhbl «يُخبّلُ» و: scd «ساعِدْ» و: 'Šn «شانئٌ» و: wlh «والِهٌ». ويشير استهلال الاسم بحرف الميم إلى أنه اسم فاعل أو اسم مفعول اشتقّ من فعلٍ مزيد، نحو: mḥb «مُحِبٌ»، و: mncm «مُنعِمٌ»، و: mqm «مُقيمٌ»، و: mhbl «مخبِّلٌ»، و: mqdm «مُقدَّمٌ». كما تدل الميم على أن اللفظ اسم مكان، نحو: mŠty «مَشْتى»، و: mqẓ «مَقِيظ» و: mdt' «مَدثأ» (حيث يقضي كاتب النقش الشتاء أو الصيف أو الربيع)(٢٢).

- بناء النقوش ومضمونها:

وأصحاب النقوش المنشورة - التي تجاوز عددها عشرين ألفاً - بدوٌ كانوا يتنقلون في فصول السنة كما يفعلون اليوم طلباً للماء والمرعى، وقد كتبوها على الأحجار البركانيّة لتسلية أنفسهم أثناء الرّعي أو الصيد أو الغزو في الأماكن التي مرّوا بها أو في مواضع التخييم أو في الرجوم أي أكوام الحجارة التي تغطي القبور. وإذا استثنينا مئاتٍ من الضرب المسمّى

(٢١) انظر: Littmann, Thamud und Safa, P.109.

(٢٢) انظر ما كُتب عن لغة النقوش الصفوية في كتابي ليتمان: E.Littmann, Safaitic Inscriptions , pp.VII-XXVII. و: Thamud und Safa, pp.92-143.، و: W.W.Müller: Das Frühnordarabische pp.22 -25، و: الروسان، القبائل الثموديّة والصفويّة ، ص٢٣٧-٢٥٠، و: حراحشة: الفعل في النقوش الصفوية.

«المخربشات = Graffiti» الذي لا يتضمّن سوى اسم الكاتب واسم أبيه متبوعاً بأسماء بعض أسلافه أحياناً فإنّ الضرب الآخر المسمّى «النقوش= Inscriptions» لأنه أطول وأغنى - شكلاً ومضموناً - مصوغٌ بضمير الغائب على نمطٍ واحد، فهي تُستهلُّ باسم الكاتب مقترناً بلام المِلكيّة أو الاختصاص ومتبوعاً بسلسلة نسبه التي تتجاوز أحياناً عشرةً من أجداده لِتنتهي باسم قبيلته، ويلي ذلك فعلٌ يُعبّر عن عاطفة (نحو: ndm «نـدِمَ» و: tšwq «تشوّقَ» و: ngc «تاقَ») تدلّ على شوق مَن كتبها إلى أحبّةٍ مرّوا بديارٍ كانت لهم من قبل، مما يُذكرنا بالوقوف على الأطلال في الشعر الجاهلي، أو فعلٌ يُعبّر عن حدثٍ (نحو: bny «بَنى» و: rcy «رَعى» و: wrd «وردَ الماءَ» و: hrṣ «راقبَ، استطلعَ» و: ṣyd «صادَ» و: ġzz «غزا» و: dṯ' «قضى الربيع» و: qyẓ «قيّظَ» و: šty «شتا») للتعبير عن شؤون تتصل بحياة كاتبيها كرعي الأغنام والإبل، وصيد ما يجدونه من حيوانات في البادية كالظباء والنعام، وصراعهم مع الحيوانات المفترسة كالذئاب والأسود، وغزو القبائل بعضها بعضاً، موثّقين ذلك كله برسومٍ مصاحبة للنقوش يستعين الباحثون بها في القراءة والتفسير، وهي على الأغلب رسوم حيوانات، فمنها ما يبيّن ملكية الكاتب للحيوان المرسوم، نحو: lḫy bn 'czm hgml «الجملُ لفلان بن فلان»، ومنها ما يُشير إلى أنه صاحبُ الرسم إذا كان لحيوانٍ مفترس، نحو: ld'y bn bġḍ hlṯ «لفلان بن فلان [رسمُ] الليث». أما النقوش التي تصاحب الرجوم فهي تظهر حزن كاتبيها على الأموات وتطلب من الآلهة العون على الثأر والانتقام لهم إذا كانوا قتلى. كما يُختتم كثيرٌ من النقوش بالتضرّع إلى واحد أو أكثر من الآلهة، والغالب أن يبتهل الكاتب إلى الآلهة طالباً منها السلامة (slm)، أو الخلاص والنجاة (hlṣ)، أو العون والمساعدة (scd) أو

الخلاص من الحرمان (rwḥ) أو التحرّر من الفقر والعوز (ġnyt)، أو الحصول على الغنيمة (ġnmt)، أو طالباً منها لعن مَن يعبث (cwr، ḫbl) بالنقش وبالرسوم المصاحبة له. وقد تتضمّن أحياناً إشاراتٍ غامضة إلى أحداث تاريخية. وهذه بضعة نقوش توضح الأسلوب والمضمون لمئاتٍ من نظائرها، أحدها: lḫr bn chd bn… fhlt slm msn' wqyẓ hḥwy fhlt cwr ḏ ycwr hsfr wcyd 'hlh bḥbs w'srq bḏ'n= «لفلان بن فلان...، فيا أيتها اللات السلامة من الشانئ، وقيّظَ في الوادي، فيا أيتها اللات عوّري الذي يتلف النقش، ثم عيّد أهله في حابس، ثمّ أشرقَ بالضأن»، وقد ذكر كاتب النقش أسماء عشرةٍ من أسلافه، وأشار إلى ثلاثة أحداث: قضاء الصيف في الوادي، وتهنئة أهله بالعيد، وتوجهه مع قطيع الأغنام إلى الشرق أي إلى المنطقة التي تُسمّى اليوم «الحَماد»، وابتهل إلى اللات مرتين سائلاً الحماية من الخصوم ومعاقبة مَن يُتلف النقش. و يخبرنا كاتب ثاني النقوش أنه اصطاد حماراً وحشياً في منطقة «نجد»: l's bn ysḥḥ wṣyd cr mn ngd «لفلان بن فلان، واصطاد عيراً من نجد»، و يعبّر صاحب النقش الثالث عن حزنه على قتيلٍ ويطلب الثأر له: lnqm bn rsn ḏ'l 'ty wwgm cl syd mqtl ty' fhlt wdsr ṯ'r «لفلان بن فلان من آل فلان، ووجمَ على فلان المقتول من فلان، فأيتها اللات ويا ذا الشرى الثأر له».

للبحث صلة

(جـدول النقحـرة)(*)= Transliteration

’	أ	ṣ	ص
ṯ	ث	ḍ	ض
ḥ	ح	ṭ	ط
ḫ	خ	ẓ	ظ
ḏ	ذ	c	ع
Š	ش	ġ	غ
â	فتحة طويلة	î	كسرة طويلة خالصة
û	ضمة طويلة خالصة	Ô	ضمة طويلة ممالة
Ë	كسرة طويلة ممالة		

١- بُصرى
٢- أم الجمال
٣- الزُّلف وادي الغرز
٤- النَّمارة وادي الشام
٥- الشبيكة
٦- جاوة
٧- بيار الغصين
٨- قصر برقع
٩- الرويشد = H4
١٠- غدير الملّاح
١١- الصفاوي = H5
١٢- تل قرمة
١٣- الأزرق

(*) النقحرة يستعملها بعضهم بمعنى نقل أصوات لغة وحروفها إلى لغـة أخـرى، نحتًـا مـن تركيب (نقل الحروف) = المجلة.

المقالاتُ والآراء

في العِلم والمعرفة والفرق بينهما

أ. د. مكي الحسني(*)

العِلم: إدراك الشيء بحقيقته، أو إدراك صفاته. فيكون بالمعنى الأول **مرادفاً للمعرفة**، فيتعدّى [فِعلُه (عَلِم يَعلَم)] بنفسه إلى مفعول به واحد، نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. ونحو: علمتُ أمسِ عمقَ ذلك الوادي.

ويقال: علم الشيءَ حاصلاً: أيقن به وصدَّقه، نحو: علمتُ العِلم نافعاً. و**يتعدى بالباء** فيكون فيه معنى الإحاطة، التي هي إدراك الشيء بكماله ظاهراً وباطناً، نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ﴾ [العلق: ١٤].

ويكون بالمعنى الثاني **متعديًّا إلى مفعولين** نحو قوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠]. ويُضادُّ العِلمَ الجهلُ.

قال عنترة:

هلّا سألتِ الخيلَ يا ابنة مالكٍ ... - إن كنتِ **جاهلةً** - بما لم **تعلمي**

يُخْبِرْكِ من شهد الوقيعة أنني ... أغشى الوغى وأعِفُّ عند المَغْنم

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

وقال زهير بن أبي سُلمى:

وأعلَمُ عِلم اليوم والأمس قبله ولكنني عن عِلم ما في غَدٍ عَمِ

• أما **المعرفة** فيقول أبو هلال العسكري (ت ~٤٠٠هـ)[١]:

«المعرفة **أخصّ من العلم** لأنها **علمٌ بِعَيْن الشيء مفصّلاً عما سواه. والعلم يكون مجملاً ومفصلاً**. فكل معرفة علم، وليس كل علم معرفة[*]. وذلك أن **لفظ المعرفة يفيد تمييز المعلوم من غيره**، ولفظ العلم لا يفيد إلا بضربٍ آخر من التخصيص في ذكر المعلوم. والشاهد قول أهل اللغة إن العلم **يتعدى إلى مفعولين** ليس لك الاقتصار على أحدهما **إلا أن يكون بمعنى المعرفة** كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠] أي لا تعرفونهم. وإنما كان ذلك كذلك لأن **لفظ العلم مبهم**: فإذا قلت: **علِمتُ زيداً** فذكرتَه باسمه الذي **يعرفه** به المخاطَب لم يُفِدْ؛ فإذا قلتَ (قائماً) أَفَدْتَ، لأنك دللتَ بذلك على أنك علمتَ زيداً على صفةٍ جاز ألّا **تَعلَمَه** عليها مع علمك به في الجملة. وإذا قلت: **عرفتُ زيداً** أفدتَ، لأنه بمنزلة قولك عِلمته **متميزاً من غيره**، فاستغنى عن قولك متميزاً من غيره **لما في لفظ المعرفة من الدلالة على ذلك**. والفرق بين العلم والمعرفة إنما يتبيّن في الموضع الذي يكون فيه جملة مبهمة[٢]، ألا ترى أن قولك **علمتُ** أن لزيد ولداً، وقولك **عرفتُ** أن لزيد ولداً يجريان مجرى واحداً».

لذا جاء في لسان العرب:

(حطأ)، والحُطَيئة: شاعر **معروف** (أي متميِّز من غيره!).

---

(١) الفروق في اللغة / ١٣ - دار الآفاق الجديدة - بيروت - ط ٥ - ١٩٨٣ ص ٧٢.

(*) ولهذا استعمل علماء اللغة (ومنهم الزمخشري) عبارة «أهل العلم والمعرفة» وصفاً لمن جمع الحُسْنيين.

(٢) في الأصل (غير مبهمة).

(حنأ)، والحِنّاء: بالمدِّ والتشديد: **معروف**.

(رطب)، الرُّطب من التمر **معروف**.

(دوم)، الدَّوْمُ شجر **معروف**.

(نسأ)، إنما الرِّبا في النَّسيئة هي البيع إلى أجلٍ **معلوم**.

(سلف)، رُوي عن النبيّ عليه الصلاة والسلام أنه قال: من سلَّفَ فَلْيُسْلِفْ في كَيْلٍ **معلوم** ووزنٍ **معلوم** إلى أجلٍ **معلوم**.

ويقال: متوازي الأضلاع: صنفٌ محدَّد **معروف** من المُضلَّعات.

- وجاء في (تاج العروس) للزبيدي (ت ١٢٠٥هـ) نقلاً عن الراغب الأصفهاني (ت ٥٠٢هـ): **العِلمُ** إدراك الشيء بحقيقته. وذلك ضربان: **إدراك ذات الشيء** والثاني الحكم على الشيء بوجود شيءٍ هو لَهُ، أو نفي شيءٍ هو منفيٌّ عنه. فالأول هو المتعدي إلى مفعول واحد نحو قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]. والثاني إلى مفعولين نحو قوله: ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ﴾ [الممتحنة: ١٠].

- وجاء فيه نقلاً عن «البصائر»[٣]: «**المعرفة**: إدراك الشيء بتفكّر وتدبُّر لأثره، وهي أخصّ من العلم. والمعرفة **تتعلق بذات الشيء والعلم يتعلق بأحواله. والمعرفة** تكون في الغالب لما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإن أدركه قيل عرفه».

والمعرفة علمٌ لِعَيْن الشيء مفصَّلاً عمّا سواه، بخلاف العلم فإنه قد يتعلق بالشيء مُجْمَلاً».

- وجاء فيه نقلاً عن الراغب: «... ويقال فلان **يَعْرف اللهَ ورسوله**، ولا

(٣) «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» للفيروز آبادي (ت ٨١٧هـ).
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة (طبع الجزء الأخير سنة ١٩٩٦).

يقال **يعلم الله** متعدياً إلى مفعول واحد، لِما كان[٤] معرفة البشر لله تعالى هو[٥] تدبُّر آثاره **دون إدراك ذاته**.

ويقال: **اللهُ يعلم كذا ولا يقال يعرف كذا** لِما كانت **المعرفة** تستعمل في العلم القاصر [عن الإحاطة، م ح] المتوصَّل إليه بتفكُّر».

فسبحان رَبِّ فوق كل مَظِنَّةٍ تعالى جلالاً **أن يُحاط بذاته**

إذا قال (إنّي) ذاك وحدة قُدسِه وإن قال (إنّا) ذاك حشدُ صفاته

والعارف هو المختص بمعرفة الله ومعرفة ملكوته وحُسْن معاملته تعالى.

وضدُّ المعرفةِ الإنكارُ، وضدُّ العِلمِ الجهلُ.

- **والمعروف**: اسم المفعول من: عرف الشيءَ يعرِفه معرفة وعرفاناً: أدركه بحاسة من حواسّه أو بعقله.

والمعروف: اسم لكل فعلٍ يُعرف حُسْنُه **بالعقل** أو **الشرع** وهو خلاف المنكَر. **والمعروف**: الصنيعة يُسديها المرء إلى غيره.

قال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

- **والعُرف**: ما تعارفه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم.

والعُرف: **المعروف**، هو خلاف النكْر (الأمر المنكَر).

قال الحطيئة:

من يفعلِ الخيرَ لا يَعدَم جَوازيَه لا يذهبُ **العُرْفُ** بين الله والناس

(الجوازي: جمع الجازية: الثواب).

ومن المتعارف المتداول بين الناس أن **المعروف** عُرْفاً كالمشروط شرطاً!

---

(٤) لِمَا: (ما) مصدرية غير زمانية. ومعنى (لما كان): لكون المعرفة.... (مغني اللبيب/ ٣٩٩).

(٥) يجوز (معرفة البشر لله تعالى هو/ هي تدبُّر).

• ويقال: لَأُعْرِفَنَّ لك ما صنعت: لأُجازِيَنَّك به.

قال تعالى: ﴿فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨].

وقال: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

وقال: ﴿يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧].

وقال: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد: ١٩].

وقال: ﴿قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ﴾ [البقرة: ٦٠].

وقال: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ﴾ [الحج: ٧٢]. أي تُدرِك المنكر وتُميِّزُه في وجوههم.

• **فالمعرفة** نوع مخصوص من العلم، يُتوصَّل إليها بالتدبُّر والتفكُّر، ويغلب عليها التعلّق **بالذوات، وضدّها الإنكار.**

• أما **العِلم** فهو أعمُّ من المعرفة، ويغلب عليه التعلّق **بالصفات والأحوال، وضدُّه الجهل.**

• وأما **علم الله فهو مُطلَق** ويحيط بأجزاء الأشياء، ويتعالى عن القصور أو التدبُّر والاجتهاد!

• قال الزمخشري في الكشّاف، ٣/ ٣٣١: «قولك (**فلان من العلماء**) أَبْلغُ من قولك (فلانٌ عالِم) لأنك تشهد له بكونه معدوداً في زمرتهم، **ومعروفة** مساهمته لهم في العلم».

لم يقل (معلومة) بل (معروفة) لأن أعمال العالِم هي كُتُبه، فهي ذوات. فمثلاً كُتب الزمخشري: الكشاف وأساس البلاغة والمفصَّل في النحو... ذوات!

وفيما يلي شواهد على استعمال العلم والمعرفة:

• قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا

﴿ مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٦]. الهاء في «يعرفونه» تعود على النبي ﷺ على رأي الزمخشري(٦)، **والنبي والأبناء ذوات** فإدراكهما معرفة، أما الحقُّ هنا فإدراكه عِلْم، **لأنه من المعاني ويتحصَّل بالتدبر والاجتهاد.**

• بعد الحِوار الذي جرى قُبيل حروب الرِّدَّة بين خليفة رسول الله ﷺ، وعمرَ بنِ الخطّاب رضي الله عنه قال عمر: «فوالله ما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، **فعرفتُ** أنه الحقّ».

[الضمير في (أنه) يعود على «قرار القتال» الذي **تدبَّر عُمر أثره الخطير الشأن**].

• قال تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣]، أي يعرفون نِعَم الله لأنهم منتفعون بها، ويُنكرونها بإنكار حقِّها وهو الشكر(٧). **فالنعمة ذات** وإدراكها معرفة، وضِدُّ المعرفةِ الإنكارُ كما في الآية.

• قال تعالى: ﴿ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، أي يدركون أن ذلك مما يستدل به على وجود الصانع المختار وكمال قدرته وعظمته، وبديع صنعته وعلمه وحكمته(٨). فهنا لا يُقال: لقوم يعرفون، لأنه هنا **إدراك لحقائق** لم تكن في الذهن سابقاً.

• قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ ﴾ [البقرة: ٦٥]، هنا العلم بمعنى المعرفة **لتعلقه بالذوات**، ولهذا تعدَّى إلى مفعول به واحد فقط.

• قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٢]، أي خَلْقَ آدم عليه السلام(٩). ولا يُقال هنا: عرفتم، لأنه **إدراك ذهني** لهيئة ليس لها صورة محسوسة.

---

(٦) يُنظر: الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي ٢: ١٦٩. دار القلم، دمشق.

(٧) يُنظر: التحرير والتنوير ١٤: ٢٤٢. لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤.

(٨) يُنظر: فتح البيان في مقاصد القرآن ٤: ٢٠٣.

(٩) يُنظر: تفسير «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي ١٧: ٢١٧. دار الكتب المصرية، ١٩٣٥.

- قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ (*) لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].
- قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ [المائدة: ١١٣].
- قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ﴾ [آل عمران: ١٦٧].
- **اِعْلمْ** أنّ (رُبَّ) لها أحكام تختص بها (المالقي/ ٩٠).

يقال:

- أنا **أعلم** أنك تتقن الإنكليزية، ولكن هل **تعرف** الإسبانية؟
- **من المعلوم** أن الخشب يطفو على سطح الماء (أي هذا غير مجهول).
- **من المعروف** عند العرب القدامى أن دِيَةَ القتيل قد تصل إلى / ١٠٠/ ناقة (أي كان ذلك من المتعارف بين الناس).
- أنا **لا أعلم** شيئاً عن هذا الأمر (أي أجهل كل شيء عنه) لكني **أعرف** تفاصيل المشروع الذي حدثتني عنه.

وجاء في كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري:

- ومن لا **يعرف** الخطأ كان جديراً بالوقوع فيه. ص ٧٠.
- ولم **يعرف** الأصمعي وأبو عمرو معنى هذا البيت. ص ٣٣٥. [أي لم يميِّزا المعنى من غيره].
- وقال أبو الدَّرْداء رضي الله عنه: **معروفُ** زماننا مُنْكَرُ زمانٍ قد فات، ومُنكرُهُ **معروفُ** زمانٍ لم يأت. ص ٣٠٩.

(*) **ومن المأثور**: أن عمر بن الخطّاب رضي الله عنه سأل رجلاً عن شيء، فقال: الله أعلمُ، فقال عمر: لقد شقينا إن كُنّا لا نعلم أن الله أعلم! إذا سئل أحدكم عن شيء لا يعلمه، فلْيقلْ: لا عِلمَ لي!

- **واعلم** أن قريبَك مَن قَرُب منك خيرُه. ص٣٢٤.
- والله **يعلم** أنّي أَودُّك مودّة خالصة. ص٤٤٢.
- **قال ابن عباس** رضي الله عنه: «إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم **تعرفوه** فاطلبوه في أشعار العرب، فإن الشعر ديوان العرب».
- **وقال الزمخشري في الكشّاف / ٣/ ٣٣٥**: قد يكون الرجل **عارفاً** بعدة لُغات.

شواهد من الشعر:

- قال عروة بن أذينة (ت ١٣٠هـ):

لقد **علمتُ** وما الإسراف من خُلُقي ... أن الذي هو رزقي سوف يأتيني

- قال عمر بن أبي ربيعة:

قالَتِ الكُبرى **أَتَعرِفْنَ** الفَتى ... قالَتِ الوُسطى نَعَم هَذا عُمَر
قالَتِ الصُغرى وَقَد تَيَّمتُها ... قَد **عَرَفناه** وهل يَخفى القَمَر

- قال البحتري:

ورَأَيتُ **مَعروفَ** الكَريمِ يَزيْنُهُ ... تَعجيلُهُ عَن وَقتِهِ، وَتَمامُهُ

- قال أبو تمام:

لولا اشتِعالُ النار فيما جاوَرَت ... ما كانَ **يُعرَفُ** طيبُ عَرْفِ العودِ

- وقال:

لو **يَعلَمُ** الناسُ عِلمي بِالزَّمانِ وَما ... عاثَت يَداهُ لَما رَبَّوا وَلا وَلَدُوا

- قال المتنبي:

عَرَفتُكَ وَالصُّفوفُ مُعَبَّآتٌ ... وَأَنتَ بغَيرِ سَيفِكَ لا تَعيجُ
وَوَجهُ البَحرِ **يُعرَفُ** مِن بَعيدٍ ... إِذا يَسْجو فَكَيفَ إِذا يَموجُ

يعيج بالسيف: يعتمد عليه.

- وقال:

وَمُستَكبرٍ لَم **يَعرِفِ** اللهَ ساعةً رَأى سَيفَهُ في كَفِّهِ فَتَشَهَّدا

- وقال:

ونَذيمُهم وبهم **عرفنا** فضله وبضّدها تتميز الأشياء

نذيمهم: نَعِيْبُهم ونَذُمُّهم.

- قال بشار بن برد:

ألا أيها السائلي جاهداً **لِيعرفني**، أنا أنفُ الكَرَم (أي منتهاه)

- قال الشاعر:

ألم **تعلمي** يا عمرَكِ الله أنني كريمٌ على حينِ الكرامُ قليل؟

- قال الشاعر:

لا خيرَ في حُسْن الفتاة **وعِلْمها** إذا كان في غير الصلاح رضاؤُها

- قال الشاعر:

إذا أنت لم **تعرفْ** لنفسك حقَّها هواناً بها، كانت على الناس أهونا

* * *

فيلسوف الجمال
وأديب الفلاسفة

بقلم د. غسان شحرور(*)

إنه «عبد الكريم اليافي» عاشق الكتاب بلا منازع، وأميرٌ من أمراء البلاغة والبيان، لا يذكر يوماً لم يجلس فيه إلى كتاب، حتى إن من يزور بيته يظن أنه في مكتبة تجتمع فيها الكتب من كلِّ صنفٍ ولون، وتحمل بين دفتيها معارف وذكريات عزيزة لا تنتهي، كثيراً ما حدَّث ضيفه عن بعضها إلى درجة تظن أنها جزء لا يتجزأ من حياته ووجدانه.

لقد ذكرني عشقه لها بعشق «أبو حيان التوحيدي»، أحد أعلام القرن الرابع الهجري، الذي لُقب بفيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة، يُروى أنه قام بإحراق كتبه من شدَّة تعلّقه بها، بعد أن لمس عدم اكتراث عامة الناس بما يكتب، ولما عاتبه ذووه على فعلته تلك أجاب: «لقد فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، ونابغاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشق عليَّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها».

وُلد العلامة والمفكر والأديب الموسوعي «عبد الكريم اليافي» في مدينة حمص ١٩١٩م، وكان محبًّا للتعلم، فلم يكتف بنيل الإجازة الجامعية

(*) طبيب وكاتب من سورية.

من فرنسا في العلوم الرياضية والطبيعية عام ١٩٤٠م، بل نال أيضاً إجازة في الآداب ودكتوراه في الفلسفة، كما نال شهادات عديدة في علم النفس العام، وفلسفة الجمال، وعلم الفن والمنطق، وتاريخ العلوم وفلسفتها، وعلم الاجتماع والأخلاق.

من إنتاجه الفكري «تمهيد في علم الاجتماع» (١٩٦٤م)، «دراسات اجتماعية ونفسية» (١٩٦٤م)، «دراسات فنية في الآداب العربية» (١٩٦٣م)، «جدلية أبي تمام» (١٩٨٣م)، «معالم فكرية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية» (١٩٨٢م)، «معجم مصطلحات التنمية الاجتماعية في العلوم المتصلة بها»، «العلم والنزعة الإنسانية»، «حوار البيروني وابن سينا»، و«مباهج الأدب»، وله الكثير من المقالات والعديد من الحوارات واللقاءات الأدبية الثقافية، المحلية والعربية والدولية، وقد أسهب في التعريف بعلم الجمال، أو فلسفة التّعامل مع الطبيعة والفنّ والذّوق، وهو أحد الفروع المتعددة للفلسفة، يراه البعض تفكيراً نقدياً فلسفياً في الثقافة والفن والطبيعة، برع «اليافي» في تدريسه والحديث عنه.

خلال حياته العلمية والأدبية، أستاذاً في جامعة دمشق (١٩٤٧-٢٠٠٣م)، وعضويته في «مجمع اللغة العربية» بدمشق، أسهم في تعريب العديد من المصطلحات التربوية والاجتماعية والطبية، ولا سيما في ميادين الإعاقة وعلم الاجتماع، كما قدم خلال رئاسته القسم العلمي للاتحاد العربي للهيئات العاملة مع الصم خدمات جليلة للباحثين والمختصين في تأهيل ودمج الأشخاص الصم والمعوقين، تعرّفت إليه خلال اجتماعات هذا القسم العلمي مع المكتب التنفيذي للاتحاد العربي الذي شغلت عضويته، وسرعان ما جمعتنا العديد من اللقاءات الخاصة منها ما كان مع

عائلته الكريمة المميزة في مواهبها، وقد أغنى «اليافي» هذه الجلسات بذكرياته الجميلة وأحاديثه العذبة، وقد أهدى إليّ خلالها العديد من مقالاته وكتبه، وقد شرّفني أيضاً بكتابة مقدمة كتابي «قصة مدينتين في حياة البحيري»، وضمّنها كعادته كثيراً من المودة والمجاملة.

لقد كان من أشدّ المدافعين عن اللغة العربية، والثقافة العربية وجوانبها الحضارية الإنسانية، وكثيراً ما كان يشكر كل من يتحدث عن قرية أو مدينة أو بلد عربي، أو من يتطرق إلى ظاهرة اجتماعية أو صحية فيها، أو حتى من يصف مَعْلماً تاريخيًّا أو سياحيًّا هنا وهناك، كما كان يرى أن الحديث عن الأعلام وحياتهم وإسهاماتهم، حقّ إنساني، وواجب قومي ووطني واجتماعي، وتواصل حضاري وثقافي، مستمر بين الأجيال.

نعم لقد كان «اليافي» وسيبقى هامة شامخة من هامات الثقافة والأدب والفلسفة، عبَّر بصدق وإخلاص عن هموم الإنسان وقضايا الأمة، ولا نستطيع، وقد نعته دمشق في يوم الجمعة الموافق للعاشر من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨م، إلّا أن نقرّ بفضله ونستودعه الله برحمته.

إن غاب فضلٌ يوماً لصاحبه ففضله في العقول لم يغبِ

* * *

جهاد المجمعيين السوريين
في إقرار الألفاظ والأساليب المعاصرة

أ.د. عيسى علي العاكوب(*)

- كلماتٌ مِن أجل الفَهْم:

رُبّما لا يعلَمُ كثيرٌ مبْلَغَ الجُهْدِ الذي يبذلُه أعضاءُ مَجْمَعِ اللّغة العربيّة في دِمَشْقَ، في إقرار الألفاظِ والأساليب التي يُدْخِلُها تيّارُ الحياةِ المتدفِّقُ في الاستعمالِ اللّغويّ العامِّ الحاضرِ، ولا يكونُ لَدَيْهم أيضاً تصوُّرٌ دقيقٌ لِجَلساتِ المناقَشةِ والنّظَر، والتّفحّصِ والسَّبْر، التي يَجلِسُها أعضاءُ المجْمَع لِساعاتٍ متطاولةٍ، على امتداد أسابيع العام.

ولَعلَّ هؤلاءِ الكثيرَ معذورونَ في ذلك؛ لِأسبابٍ لا مجالَ هنا لِلْإفاضةِ في الحديثِ عنها. ومِن بابِ اليقين أنّ عِلْمَ جَمْهَرةِ النّاسِ ضَروراتِ تأكيدِ الصِّحّةِ والسّلامةِ لِألفاظِ لغتهم وأساليبها أقلُّ بكثيرٍ مِن عِلْمِهم عَمَلَ أعضاءِ المجْمَعِ العِلْميّ العربيّ، كما سُمِّيَ عندَ إحْداثِه في عام ١٩١٩م، في هذا المجالِ العِلْميّ الدّقيقِ جدًّا.

وههنا مَنْدُوحةٌ لكي أشكُرَ لِلشَّهْباءِ الثّقافيّة، أو لِلْبيضاءِ الثّقافيّة كما هو أَحَدُ أسماءِ حلَبَ القديمةِ، إتاحتَها الفُرْصةَ لي لكي أُحَدّثَ جمهورَها

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وأستاذُ البلاغةِ والنقدِ في جامعة حلب.

الجميلَ، بتركيزٍ وإيجازٍ، عن فلسفةِ تحقيقِ الصّحّةِ والسّلامةِ لِألفاظِ لُغتِنا الأثيلةِ الجميلةِ وأساليبها؛ هذا التّحقيقُ الذي ينهَضُ به الجنودُ المجهولونَ مِن أعضاءِ المَجْمَع الدّمشقيّ، خلائفُ محمّد كُرْدْ عَلِيّ وعيسى إِسْكندر المعلوف وعبدِالقادر المبارك وحُسْني سَبَح وشاكرِ الفَحّام ولَيلى الصّبّاغ وعبدالله واثق شهيد. هذا المَجْمَعُ العَريقُ الذي يقتربُ الآنَ مِن بَدْءِ مِئويّتِه الثّانية في سنة ٢٠١٩م. وإنّ تَواصُلَ جُهودِ المَجْمَعيّينَ في ظِلّ الظّروفِ القاسيةِ التي تُواجِهُها سُورِيَتُنا، القَلْبُ، واحِدٌ مِن أدلّةِ الحياةِ القويّة في رُوحِ هذه الأمّة وجَسَدها.

- في أساسيّات الفِكرة:

تذهبُ الأممُ في طريقِ تحقيقِ الصّحّةِ والسّلامةِ لألفاظِ لُغاتها وأساليبها إلى أمداءٍ قَصِيّةٍ، ويستنفِدُ ذلك مِن عقولِ مُبدعيها جهوداً مُضنيةً. وأنتَ ترى ذلك أكثرَ ما تراهُ عندَ الأمم الرّاقية التي تَزِنُ كلَّ شيء تتعامَلُ معَهُ، وتُقدّرُ كلَّ نتيجةٍ وأثَر، وتحسِبُ حِساباً لكلّ ما تأخُذُ وما تَذَر. نَعَمْ، ذلكم هو صَنيعُ الأمم التي تَرى أنّ إصلاحَ المنطق سبيلٌ لإصلاح العقل، وأنّ سَدادَ القولِ صُورةٌ لِسَدادِ التفكُّرِ والنّظَر، وأنّ مُعجَماتِ الألفاظِ والأساليب هي خزائنُ فِكْرِ النّاسِ، ومُستودَعاتُ خفيّاتِ خواطِرِهم. وابتغاءَ قدرٍ أكبرَ مِن الإيضاح سنجعَلُ حديثَنا المُوجَزَ هنا موزَّعاً على جُمْلةِ فِكَرٍ، نجعلُها مُتّكآتٍ للتّناول:

- الذين يقيمونَ وَزْناً للفِكْر همُ الحريصونَ على تصحيح أداةِ التّعبير عن الفِكْر:

أصحابُ الرّسالةِ والمُهمَّةِ الذين يُهمُّهم إبلاغُ فِكَرِهم إلى الآخَرين همُ الأعنى بإخراجِ محصولِ فِكْرِهم بأدواتِ تعبيرٍ غايةٍ في السّلامة والضّبْطِ والتّدقيق، ترى ذلك دَيْدنَ الأنبياءِ والمُصْلحينَ الرّوحيّينَ والاجتماعيّين،

والأفرادِ الذين يَرَون رسالةً عظيمةً لهم في الحياة دعوةَ النّاسِ إلى ما يحسَبُون أنّ فيه خَيراً وحَقًّا وجَمالاً. ثمّ في الحضارةِ العربيّةِ الإسلاميّة خاصّةً، غدا ضَرْباً مِن المثَلِ الأعلى الجَماليّ فصاحةُ اللِّسان، ورَجاحةُ الجَنان.

- الحِرْصُ على صِحّةِ الأداءِ وحُسْنِه حِرْصٌ على صِحّة المضمونِ والظّفَر بالخُلود:

يُحْرَصُ على صِحّة الأداءِ لأسبابٍ كثيرةٍ ليسَتْ مِن الخَفيّاتِ على أصحابِ الفِطَنِ وأربابِ البصائر. ولعلَّ مِن ذلك، ومِن أهمّه، أنّ أعمارَ الأفرادِ تطولُ بجمالِ أدائهم، ونَصاعةِ بَيانهم، وإشراقِ عباراتهم. وتندَفِنُ الفِكَرُ سريعاً بخَطَلِ أدائها، وفسادِ أدواتِ إخراجِها، وسُوءِ إبلاغها، فيموتُ أصحابُ الفِكَر بموتِ فِكَرِهم التي سارعَتْ إلى أجداثِها بفَسادِ وسيلتِها اللّغَويّة.

ويطالِعُنا عندَ العربِ حِرْصٌ فائقٌ على سُهولةِ الأداءِ وجَمالِه وألْقِه وفصاحته، ولا نَحسَبُ ذلك إلّا لِحَميّةٍ طاغيةٍ لِصَوْنِ بناتِ العقولِ عمّا يَلْحقُها مِن عار فَسادِ الأداءِ وشَناره. ومِثْلَما حَرَصَ الجواهريّ الذي يَبيعُ الحُلِيّ على عَرْضِها بأغلفة وأشكال تُظهِرُ شِياتِ حُسْنِها، ومظاهِرَ فِتْنتِها، تُسمَّى «المَعارض»، التي واحِدُها «مِعْرَضٌ»، حَرَصَ المتكلِّمُ العربيُّ على جَمالِ أرديةِ فِكَرِه، وسَلامةِ أدواتِ تعبيره مِن كلّ شَيْن، حتّى صَحَّ أن يُقال في مُفرَداتِه وأساليبه:

إذا أتاهـــا طالـــبٌ يَسْـــتامُها تكـــاثرَتْ فـــي عينِـــهِ كِرامُهـــا

نَعَمْ، ذَبَّ المتحدِّثُ العربيّ على امتداد تاريخِ هذه اللّغةِ الشّريفةِ المُشرَّفةِ عن حَريم لُغته، وحَمَى حقيقتَها، حتّى أنِفَتْ كلَّ إسْفافٍ وسَقَطٍ ورُذالٍ، وانطبقَ عليها وَصْفُ عَنترَةَ ناقتَه بالقول:

شَرِبَتْ بماءِ الدُّحْرُضَيْنِ فأصبحَتْ زَوْراءَ تَنْفِرُ عن حِياضِ الدَّيْلَمِ

ومِثْلَما سَمَّى العرَبُ نَفَراً مِن الشّعراءِ «عَبيدَ الشِّعْر»، لِأنّ الشّعْرَ استَعْبدَهم واستَفْرغَ مجهودَهم وكانوا خَدَماً له بكُلِّ ما أوتوا مِن قُوى وقُدَر، في مستطاعنا أن نُسمِّيَ كثيراً مِن مُبرِّزي عُلَماءِ العربيّة «عبيدَ الألفاظِ والأساليب»، لِما استعبدَهم مِن صِحّةِ الفِكَر، ورَوعةِ بَناتِ النّظَر، وأناقةِ مُخبَّآتِ الصّدْر، حتّى قال ابنُ المقفَّع: «إنّ الكلامَ لَيَزدَحِمُ في صَدْري فأقِفُ لِتخيُّرِه». نَعَمْ، استعبدَتْ صِحّةُ الألفاظِ والأساليبِ والتّنويعُ فيها رجالاً مِن أهل اللّغةِ والبيان ينطبقُ على الواحِدِ منهم قولُ البُحْتُريّ:

دانٍ على أيدي العُفاةِ، وشاسِعٌ عَنْ كلِّ نِدٍّ في النّدَى وضَريبِ
كالبَدْرِ أفرطَ في العُلُوِّ، وضَوْؤهُ لِلْعُصْبةِ السّارينَ جِدُّ قَريبِ

وكيفَ لا يكونُ ذلك منهم وهم يَتْلُونَ صَباحَ مساءَ حُجّةَ الحَقِّ سُبحانَه على الخَلْق في صِحّة الألفاظِ والأساليب والتّنويع فيها في قوله سُبْحانَه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، أي: نَوّعْنا لَهمُ القولَ بأساليبَ مختلفة.

ثُمّ كيفَ لا يكونُ ذلك مِن رجالٍ قالوا مَثَلاً: إنّ النسَبَ إلى «تَغْلِبَ» تَغْلَبِيٌّ، بفَتْحِ اللّام. يقول الرّازيُّ في مُختارِ الصِّحاح: «وتَغْلِبُ»، بكَسْرِ اللّام، أبو قبيلةٍ. والنّسْبةُ إليه «تَغْلَبيٌّ»، بفَتْحِ اللّام، استيحاشاً لِتَوالي الكَسْرَتَيْنِ معَ ياءِ النّسَب.. وربّما قالوه بالكَسْر؛ لأنّ فيه حَرْفَيْنِ غيرَ مكسورَيْنِ، ففارقَ النّسْبةَ إلى «نَمِر». قُلْتُ: يعني أنّ في «نَمِر» حَرْفاً واحِداً غيرَ مكسورٍ؛ فلَمْ ينسُبوا إليه بالكَسْر، بَلْ بالفَتْح فقط.

ومِثْلُ هذا أكثَرُ مِن أن يأتي عليه الحَصْرُ. وفيه التّأكيدُ المُغلَّظُ لاستعبادِ السّلامةِ اللّغَويّة أفذاذاً مِن مُفكِّري العرب وأعلامِ أهل العِلْمِ منهم. فهذا، مَثَلاً، أبو الأسودِ الدُّؤَليّ مُنْتَشٍ بالِغٌ في المفاخَرةِ الغايةَ؛ لأنّه فصيحٌ لا يَلْحَنُ

ويُمعِنُ في تصحيحِ مُفرداته وأساليبه، وذلك إذ يقولُ:

ولَا أقولُ لِقِدْرِ القَوْمِ: قَدْ غَلَيَتْ ولَا أقولُ لِبابِ الدّارِ: مَغْلوقُ

ذلك لأنّ الصَّحيحَ الحَسَنَ أن يُقالَ: غَلَتْ قِدْرُ القومِ، و: بابُ الدّار مُغْلَقٌ.

- حَمْلُ النَّفْسِ على الإتْيانِ بالصّحيحِ الفصيحِ سَيْرٌ بها إلى مقامِ الإنسانيّة الأرفع:

الإنسانُ في التّصوُّر القرآنيّ مُعَلَّمُ البَيانِ، أي إنّ خالِقَهُ العظيمَ سُبحانَهُ ﴿ ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ ﴾ [السّجدة: ٧] هو الذي تولَّى تعليمَهُ الإبانةَ عن مقاصِدِه، لكنّ إضعافَ آثارِ هذا التّعليم يحصُلُ في هذه الحياةِ التي يُتاحُ فيها للإنسان حُرّيّةُ التصرُّف والاجتراح في كلّ شيء. ولأنّ منشَأ هذا الإضعافِ حُرّيّةُ الحركةِ على مَسْرَح الحياة، كان لا بُدّ مِن مُغالَبةٍ ومُجاهَدةٍ في هذه الحياة في مجالِ حَمْلِ النّفْسِ على تقويمِ المنطِقِ وتثقيفِ آلةِ البيان؛ لأنّ شَطْراً هائلاً مِن إنسانيّةِ الإنسانِ يَضيعُ بإهمالِ هذه الآلةِ وتَرْكِها على رِسْلِها، تفعَلُ ما تشاء.

- سَدادُ المُغالَبةِ والمُجاهَدةِ لِضَمانِ صِحّة الألفاظِ والأساليب في مَجْمَعِ اللّغة العربيّة:

ما يبذلُه الزّملاءُ الكِرامُ أعضاءُ المجمع مِن جُهد في إقرارِ الألفاظِ والأساليب التي تجِدُّ في حياتنا، بعْدَ الاطمئنانِ إلى صِحّتها بمُوافقتها الاتّجاهَ العامَّ في أشباهِها ونظائرِها في اللّغة العربيّة أو بالعثور على أصولٍ استعماليّة صَحيحة لها، مِن صِنْفِ الأعمال الصّالحة الميمونة إن شاء اللهُ تعالى، لِما له مِن سُهْمةٍ كبيرةٍ في الحِفاظِ على البِنْية الأساسيّة لِصُورةِ اللّغة العربيّة وسَمْتِها الإبداعيّ العامّ. ويَحْكي صنيعُهم صَنيعَ المُشرِّعِ القانونيّ الذي يُوضِح الجائزَ وغَيْرَ الجائزِ، والمُوافِقَ وغَيْرَ الموافِق، مِن ضروبِ السُّلوك والاجتراح.

وينتمي إلى صِنفِ الضَّروريّ والمُلِحّ في هذا الذي نحنُ إزاءه لُزومُ بلوغِ الغاية في التّحقُّق والتّثبُّت والتّبيُّن؛ ابتغاءَ الوصول إلى مَحجّةٍ بيضاءَ ليسَ فيها إلّا الوضوحُ والاطمئنانُ والتّسليمُ. فأعضاءُ المجمع في هذا الشّأن «رُوّادٌ» مُجتهدونَ يَقِظونَ مُؤتمَنونَ، ينطبقُ عليهم مفهومُ الحديث الشّريف: «الرّائدُ لا يكذِبُ أهْلَه». والرّائدُ هو الذي كانت العربُ تُرسِلُهُ لطَلَب الكلأ. وإنّه لَحَقٌّ معلومٌ لَهم لدى الحريصينَ على استمرار بقاءِ أمّتِهم حَيّةً مُفكِّرةً مُبدِعةً أن يباركوا هذا الجُهْدَ المتواصِلَ، وأن يقدِّروا لهم صنيعَهم، وأن يُهيِّئوا لهم أسبابَ الاستزادة مِن هذا الإنتاجِ النافع الذي له دَخْلٌ كبيرٌ في صَوْنِ صورةِ عقْلِ الأمّة ومَجْلَى تفكيرِ المبدعينَ مِن أبنائها، وإسهامٌ واضِحٌ في إنماءِ تقدُّمِ الفِكْرِ والتّفكير في مضمارِ الإبداع العقليِّ النّظَريّ والعَمَليّ.

ضاعفَ اللهُ سبحانَه مَثُوبةَ هؤلاء العالِمينَ العامِلينَ، وسَدّدَ على طريقِ الخير سُراهم ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَـٰمِلِينَ﴾. وكتبَه الرّاجي عَفْوَ مولاهُ عيسى بن علي العاكوب.

* * *

المحاضرات والمدارسات(*) والندوات

(*) **المدارسة**: هي المقابل العربي لكلمة (سيمِنار seminar) الأجنبية، وتعني بحثاً يقدمه أحد أعضاء المجمع، للتذاكر به ومناقشته في مجلس المجمع.

عبقريّ القصّ العربي:
عبد السلام العُجَيليّ في مرآة النقد المقارن

أ. د. عبد النبي اصطيف(*)

خلاصة:

يكاد الدكتور عبد السلام العُجَيليّ أن يكون، بانفتاح تكوينه الثقافي على الموروث العربي السردي الغني من جهة، والمواريث الثقافية الغربية من جهة أخرى، أنموذجاً فريداً في فنه القصصي الذي يؤهِّله بجدارة للدخول إلى دائرة الأدب العالمي.

ومن المؤسف أنه نادراً ما تم تدبر هذا الفن العبقري من منظور مقارَن، وهو ما تسعى المحاضرة إلى تقديمه من خلال تحليلها لرواية «أجملهن» (٢٠٠١م)، والوقوف على علاقاتها بالفنون الجميلة الأخرى كالموسيقا والسينما والنحت والرسم والعمارة، فضلاً على صلاتها بالأسطورة، وحوار الثقافات، وقضايا تمكين المرأة، إلى جانب تفاعلها مع الموروث العربي، مما يجعلها جوهرة التاج في فن القص العجيلي.

* * *

(*) أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث، جامعة دمشق.

ألقى الأستاذ الدكتور عبد النبي اصطيف هذه المحاضرة بتاريخ ٢٢/ ٣/ ٢٠١٧م في مجمع دمشق.

مع أنني لا أجزم بأن أحداً من قارئي الدكتور عبد السلام العجيلي يمكن أن ينكر عليّ عنوان محاضرتي «عبقري القص العربي» فإنني أرى أن من الحكمة السعي إلى تسويغ حكم كهذا بما ينبغي له من موجبات.

• وأول هذه الموجبات أن هذا القاصَّ المتميز، بل الفريد، قد قدّم من الرصيد القصصي ما يكفي للتدليل على رأيه في نفسه بوصفه قاصًّا مبدعاً يستمد مادته من الواقع، ويعالجها بخياله القادر، فتغدو عالماً مُتخيَّلاً يكاد يغري قارئه باستمرار بإحالته على هذا الواقع، وكأنه تسجيل له، وليس إنشاءً متخيلاً صنعه قاصٌّ عبقري.

• وثانيها أن الرجل في استكشافه لأغوار نفسه، وإمكاناته الفنية، وجد أن القصة هي ميدانه الذي يستطيع أن يحتوي طاقته الإبداعية التي تنطوي عليها نفسه الغنية بتجاربها، النبيلة بإنسانيتها، الشفافة بطبعها؛ ولذلك نراه يقرّ بأن «الموهبة القصصية موهبة أساسية» عنده. فقد اكتشف حين عاد إلى أعماله الأدبية الأولى أنه حتى في قصائده كان يعبر عن عاطفته في الشعر بطريقة قصصية. وهكذا نراه يضيف:

«وفي مقالاتي التي أكتبها يندر أن تمرّ واحدة دون أن تبدأ بحكاية أو تنتهي بحكاية أو تحتوي حكاية. بل إني في أحاديثي مع الناس، وفي توضيحاتي التي أسوقها لمرضاي عن حالتهم الصحية، أستعين دوماً بالقصة لأجسّد لهم الواقع المجرد في الأمور. بدأ ذلك استعداداً ثم أصبح عادة متمكنة. أذكر مرة أن رئيس تحرير مجلة «الآداب» طلب مني المشاركة بمقال عن الفن في عدد كان يريد إصداره عن الفنون من المجلة، فكانت مشاركتي بكتابة قصة «الحب والنفس» التي بسطت فيها عن طريق القصة، آرائي المقارنة في أعمال عدد من الفنانين البارزين من الذين تناولوا موضوع

«آموروبسيشه» تناولاً فنيًّا بالتصوير والنحت»[١].

• وثالثها أن العجيلي، وهو البدوي الذي لم يؤثر مكاناً آخر على بلدته الرقة، لايخرج في اهتمامه بالقصة عن تقاليد الحياة البدوية، التي لم تغادر الكثير من أعماله القصصية والروائية، حتى تلك التي تدور حوادثها في أقصى الشمال الأوربي[٢]؛

• ورابعها هو أن العجيلي ينتسب إلى واحدة من أمم الشرق العريقة التي فتنت الدنيا بروائعها بدءاً من ملحمة (غلغامش)، إلى كليلة ودمنة، إلى ألف ليلة وليلة أو الليالي العربية، إلى حَيّ بن يقظان، حتى إن كبار الباحثين الغربيين من مؤرخي جنس الرواية قديماً وحديثاً يحيلون نشأتها على الشرق وأممه ويخصُّون السوريين من بينهم بقدرتهم على التخييل الذي هو جوهر العمل القصصي.

وهاهي الباحثة والروائية الأمريكية (مارغريت آن دودي)، أستاذة الإنسانيات في جامعة (فاندربيلت) في كتابها الضخم «القصة الحقيقية للرواية»، تشير، مستندة في ذلك إلى مصدر مهم جدًّا عن هذه القصة هو كتاب أسقف أفرانشيز (بيير دانييل أويت) Pierre-Daniel Huet الموسوم بـ «بحث في أصل الروايات» Traite de l`origine de romans، إلى أن الرواية

(١) انظر: دراسات في أدب عبد السلام العجيلي، تحرير إبراهيم الجرادي (دار الأهالي، دمشق، ١٩٨٨)، ص ٢٣. وانظر كذلك نص القصة/ المقالة، المعنونة بـ «الحب والنفس» في مجلة الآداب (بيروت)، السنة الرابعة، العدد الأول، كانون الثاني/ يناير ١٩٥٦ (عدد ممتاز خاص بالفنون)، [الذي حمل غلافه صورة تمثال كانوفا، التي ظهرت كذلك في الصفحة الأولى من القصة/ المقال، فضلاً على صورة تمثال "القبلة" لرودان التي ظهرت على الصفحة (٥٩)]، ص ص (٥٧-٦٠).

(٢) انظر على سبيل المثال قصته «سالي» المنشورة في مجلة الآداب (بيروت)، السنة ٣، العدد ٦، ص ص ٤٣-٤٩.

لم تبدأ في فرنسة أو إسبانية، وأن علينا أن نمضي أبعد منهما في الزمان والمكان بحثاً عن البدايات الأولى للرواية، بل ربما أبعد من الرومان واليونان لأننا بكل بساطة لن نجدها لديهما. ففي مسعانا إلى العثور على أصل الرواية الأول علينا أن نبحث عن هذا الأصل لدى الشرقيين Les Orientaux، «الذين يُظهرون، وإلى المدى الأتمّ، القدرات الإنسانية في سرعة البديهة، والخطاب، والخيال. وإنها - هذه الخصائص - التي استُعملت أول ما استعملت على النحو الأفضل من جانب الشرقيين الذين منحونا روايتنا، والتي كان السوريون، والفرس، والمصريون أوائل ممارسيها»(٣).

- **النص الأدبي هو المُتحكِّم بأمر دارسه:**

قد يختلف النقَّاد فيما بينهم حول طبيعة النقد الأدبي، ووظيفته، وحدوده، ولاسيما مدى وثاقة صلاته بالعلوم والمعارف الإنسانية والطبيعية. غير أنهم يجمعون على أن ثمة قاعدة ذهبية ينبغي أن تحكم عمل الناقد في مقاربته لأي نص أدبي، سواءٌ أكان هذا النص ينتمي إلى أدبه القومي أم إلى آداب الآخر، مفادها أن النص الأدبي هو ما يملي قواعد درسه، وأن المادة الأدبية موضع النظر غالباً ما توحي لمتدبّرها بالمقاربة المُثلى لها. وهم في ذلك، فيما يبدو، يرفعون من قدْر الفن الجميل، ويرون أنه في نهاية المطاف السيّد الذي يأتمر النقد الأدبي بأمره عندما يسعى إلى تدبّر نصوصه التدبر الأمثل.

والحقيقة أن المرء يميل إلى تأييد رأي كهذا، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بنصوص الأدب الرفيع التي تتحول إلى معين لا ينضب للبحث والتنقيب،

(٣) انظر: Margaret Anne Doody, The True Story of the Novel (Harper Collins Publishers, London, 1997), pp. 12-13.& 17.

وإعادة النظر، ومعاودة التفكير، وذلك بسبب ما تنطوي عليه من غنى لا ينفد على مر العصور – غنىً قد يوحي بمنظورات متنوعة تَنوُّع اهتمامات مقاربيها، واختلاف تكوينهم الثقافي، وتأهيلهم المعرفي، مما يتجلى بوضوح في تدبُّرهم لها: شرحاً وتحليلاً وتفسيراً وموازنة ومقارنة وحكماً.

وبين ورواية «أجملهن»[٤] لشيخ الروائيين العرب السوريين الراحل عبد السلام العجيلي هي من هذا النوع من النصوص الذي تمكن مقاربته من منظورات مختلفة لما تنطوي عليه من غنى في أفكار شخصياتها ومشاعرهم، وكثافة في نسيجها الإنشائي.

فعلى سبيل المثال يمكن مقاربة الرواية بوصفها، في جزء مهم منها، رواية محاورة بين الأديان interfaith novel (بين المسيحية الكاثوليكية ممثلة بسوزان، الإسلام ممثلاً بسعيد: بطلي الرواية)؛ ويمكن التعامل معها على أنها، مع كون كاتبها رجلاً، رواية نسوية feminist novel تسعى إلى زعزعة الهيمنة الذكورية، وبخاصة في المجتمع العربي، مثلما تسعى إلى تمكين المرأة العربية من خلال تقديم أنموذجين مقنعين: أنموذج غربي من جهة، وآخر غربي من أصول عربية من جهة أخرى؛ وكذلك فإنها يمكن أن تعالج على أنها روايةُ رَحّالةٍ traveller novel قائمة على مشاهدات رحّالة خبير يستعرض فيها وجوهاً من العلاقة بين الأنا والآخر، في فسحة زمانية محددة وفسحة مكانية محددة هي النمسا، وبالتحديد فيينا وسالزبُرْغ؛ وفضلاً على ما تقدم فإنها يمكن أن تدرس على أنها رواية تقوم على رصد التفاعل الحميم بين الفنون الجميلة: الأدب والموسيقا والعمارة والنحت، ومن ثَمَّ فإنها يمكن أن تدرس من منظور مقارني أمريكي؛ ويمكن أن

(٤) عبد السلام العجيلي، أجملهن (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠١).

تدرس دراسة نفسية(*)، وأخرى اجتماعية(*)، تتناول الأولى منهما نفسيات شخصياتها الرئيسية وتحولاتها المتأثرة بتطور الأحداث، وهي بالفعل شخصيات مركبة مثيرة للاهتمام بفرادتها وغناها، في حين تنصرف الثانية منها إلى دراسة مجتمعات الرواية الثلاثة: المجتمع الريفي الذي يعيش فيه الطبيب عبد العزيز (وندى في أثناء قيامها بعملها البحثي الميداني)، والمجتمع المدني، الذي يتحرك فيه سعيد في حلب وسورية عموماً، والمجتمع النمساوي الذي يحتضن معظم أحداث الرواية ويشكل فسحة اللقاء الحميمي ما بين سعيد وسوزان بطلي الرواية.

وبوصفي متخصصاً بالنقد المقارن فقد رأيت، وكما يشي بذلك عنوان المحاضرة، أن أُقارِبَها من منظور مقارِني comparative perspective، لأنها في الحقيقة توحي لقارئها بهذه المقاربة، إن لم تفرضها عليه. وربما كان من المهم الإشارة إلى أنها تفسح المجال واسعاً أمام مقارِبها المقارِني ليباشرها من أي مَدارس الدرس المقارن للأدب شاء.

ذلك أن بوسعه مقاربتها وفق منظور المدرسة الفرنسية التقليدية، ويلتزم بشروطها الثلاثة دون أي عناء. فالرواية، فيما سأوضِّح لاحقاً، تصدر عن أسطورة «آمور وبسيشه»(٥) التي وردت بتمامها في رواية تحولات الجحش الذهبي لـ(أبوليوس لوشيوس)(٦) الأديب العربي الروماني: العربي مولداً،

(*) كانت في الأصل (سيكولوجية وسوسيولوجية) = المجلة.

(٥) انظر نصها في: Apuleius, The Golden Ass, Translated by Jack Lindsay (Indiana University Press, Bloomington, 1962), pp. 105-142.

(٦) انظر للمزيد عن حياته وتكوينه الثقافي: Jack Lindsay, "Introduction: Apuleius and his Work", in: Apuleius, The Golden Ass, ibid, pp. 5-29. Paula James, "Apuleius' The Golden Ass: The Nature of the Beast", in: A Companion to the Ancient Novel, Edited by Edmund P. Cueva and Shannon N. Byrne (Wiley-Blackwell, Oxford, 2014), pp. 120-121.

والروماني ثقافةً ولغةً)، ومعنى هذا أن مقارنتها بسابقتها هي مقارنة بين أدبين (وهو الشرط الأول لهذه المدرسة)، مختلِفَين لغةً (وهو الشرط الثاني)، وأن الصلة بينهما هي صلة فعلية (وهو الشرط الثالث)، وإن كانت قد تحققت عن طريق وسيط فني هو لوحة «بسيشه وكيوبيد» للبارون (فرانسوا جيرارد) François Gérard (١٧٧٠-١٨٣٧م)، والتي تعود إلى نهاية القرن الثامن عشر (١٧٩٨م) والمحفوظة في متحف اللوفر، الذي كان العجيلي يتردد عليه، ويستلهم من معروضاته بعض قصصه ورواياته.

ويمكنه كذلك أن يقاربها من وجهة نظر المدرسة الأمريكية بدراسة صلاتها بالآداب الأخرى من جهة، وصلاتها بمختلف مناطق التعبير الإنساني من جهة ثانية، فيدرس صلتها بالأسطورة المتقدم ذكرها، وصلاتها بمختلف الفنون الجميلة من نحت وموسيقا وعمارة ورسم، فضلاً على صلاتها بالعديد من العلوم الإنسانية كالدين، والتاريخ، والجغرافية وغيرها، والحقيقة أن الرواية تتيح مجالاً واسعاً للخوض في علاقاتها المركبة والمتنوعة والغنية هذه، مما يغني فهمنا للرواية وما تنطوي عليه من دلالات.

وإلى جانب مقاربتها فرنسيًّا وأمريكيًّا فإن بالإمكان مقاربتها ألمانيًّا بمناقشة هذا الضرب من التلقي الاستلهامي الذي تجسّده، والذي ترى المدرسة الألمانية فيه لبّ الدرس المقارن للأدب، إذ يعكس التفاعل الحميم الذي تنطوي عليه الرواية بين «الأنا» و«الآخر» على نحو يشي بعبقرية ما ينجم عنه من فن رفيع.

وفضلاً على كلِّ ما تقدم، فإن الرواية تتيح لدارس الصورة الأدبية Imagologist مثالاً رائعاً ليخوض في ترائي كل من العربي المسلم سعيد، وسوزان النمساوية المسيحية الكاثولوكية، بوصفهما نمطاً مردداً stereotype لأمتيهما، للآخر، على طريقة المدرسة الصورية Imagology.

وثمة أخيراً فرصة مقاربة الرواية من منظور جمالي يُعنى به علم الجمال Aesthetics، هو منظور تراسل الفنون correspondence des arts أو تقابلها[٧]، كما ترجمه بدر الدين القاسم الرفاعي رحمه الله، فيدرس هذا الحوار المبدع في الرواية ما بين الأدب والموسيقا والنحت والعمارة والسينما، وما يقدم للأدب من قيمة إضافية لكل من هذه الفنون الجميلة التي تنتمي إلى أسرة واحدة، وإن اختلف أفرادها في أداة تعبيرهم.

وعلى أي حال، لنشرع في النظر إلى الرواية مقارنيًّا، أو من منظور عالمي، كما يوصي بذلك رينيه ويليك، ونتبين صلاتها بمناطق التعبير الأخرى المختلفة.

• بين الرواية والأسطورة

هل ثمة من صلة بين رواية «أجملهن» والأسطورة؟

يحيلنا غلاف الرواية مباشرة على تمثال «آمور وبسيشه»[٨] الذي صنعه

---

(٧) انظر: إيتيان سوريو، تقابل الفنون، ترجمة بدر الدين القاسم الرفاعي، مراجعة عيسى عصفور (وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٣).

(٨) تمثال «آمور وبسيشة» والمسمى بـ «Psyche Revived by Cupid s Kiss» «بسيشة تستعيد الحياة بقبلة كيوبيد» صنعه النحات الإيطالي المشهور (أنطونيو كانوفا) Antonio Canova (١٧٥٧-١٨٢٢م)، مستلهماً إياه من الأسطورة التي أوردها (أبوليوس) في كتابه تحولات، بناء على طلب من الكولونيل (جون كامبل) John Campbell، وكان في حوزة Joachim Marat إلى وفاته عام ١٨٠٠م، لينتقل إلى متحف اللوفر في باريس عام ١٨٢٤م.

وإثر نجاح التمثال طلب الأمير (يوسوبوف) Yusupov نسخة أكثر احتشاماً للتمثال، وحصل عليها عام ١٧٩٦م، وهي النسخة المحفوظة في متحف الأرميتاج في بطرسبورغ.

أما النسخة التي تظهر صورتها على غلاف الرواية فهي من صنع (أدامو تادوليني) Adamo Tadolini تلميذ (كانوفا) ومريده، وهي النسخة المحفوظة في فيلا كارلوتا، والتي يشير إليها الراوي على أنها النسخة الأصلية التي رآها هناك، وهذا غير صحيح.

النحات الإيطالي (آدمو تادوليني) Adamo Tadolini تلميذ النحات المشهور (أنطونيو كانوفا) Antonio Canova (١٧٥٧-١٨٢٢م) ومريده، والذي يزعم سعيد بطل الرواية أنه رأى أصله، التمثال الأصلي، في «فيلا كارلوتا» Villa Carlotta على شاطئ بحيرة كومو في إيطاليا (ص ١٣٧-١٣٨)[٩]، وينسبه إلى (أنطونيو كانوفا) أستاذ (تادوليني)، الذي نحت نسخة معدّلة من تمثال أستاذه، بعد أن أعطاه الأنموذج الجصي.

وإذا ما تجاوزنا موضوع التمثال، الذي يشتري سعيد نسخة مصغرة منه يهديها إلى سوزان في قرية هيلبرون، والذي يذكره ببيت من الشعر قرأه عليه صديقه الدكتور عبد العزيز ذات مرة، يدور حول فكرة أن اللذة تكمن في الشوق لا في الوصال (ص ١٣٨)، إلى الأسطورة التي استلهمها (كانوفا) من كتاب «الحمار الذهبي» أو تحوّلات[١٠] The Golden Ass or Metamorphoses لـ(أبوليوس لوشيوس) Apuleius Lucius، فإننا سرعان ما نعثر على عنوان الرواية في وصف بسيشه التي كانت أصغر بنات ثلاث رزق بهن ملك وملكة، وأجملهن، وكان جمالها سبباً في تحوّلها إلى معبودة في نظر سكان تلك المملكة، مما أثار حفيظة الإلاهة فينوس، لما تنطوي عليه عبادة بسيشه من تجديف بحقها، فأرسلت ابنها كيوبيد لينتقم من الفتاة الجميلة بجعلها تُغرم بأبشع المخلوقات البشرية. غير أن كيوبيد فُتِن بجمالها، فلم يفعل ما أمرته أمه به.

وإذ ساور القلق الأب نتيجة عدم زواج ابنته ذات الجمال الخارق، فقد قصد كاهن (مايلتوس) Miletus، طالباً نصحه. فما كان من هذا الأخير إلا أن

(٩) تشير جميع الأرقام الواردة بين قوسين إلى صفحات الرواية.

(١٠) انظر: Apuleius, The Golden Ass, Or, A Book of Change, Translated with Introduction, by Joel C. Relihan (Hackett Publishing Company, Inc., Indianapolis/Cambridge, 2007).

أخبره بأن مصائب مخيفة ستحيق بابنته مالم تُترك على صخرة، يحملها منها وحش ويمضي بها بعيداً. وبينما تقف بسيشه على الصخرة وحيدة، ترتجف خوفاً مما ينتظرها، تحملها الرياح الغربية إلى قصر من الرخام مغطى بالأحجار الثمنية، يغدو مسكنها.

وفي قصر الرخام هذا كان يزورها كل ليلة زائر غامض يمضي الليل معها، مشترطاً ألا تراه. غير أن الفضول يغلب بسيشه ويجعلها توقد مصباح زيت لتتبين من خلاله شخصية زائرها الذي لم يكن غير إله الحب كيوبيد، وإذ تسقط قطرة من الزيت الحارق على جسد هذا الأخير، الذي كان يغط في نوم عميق، فإنه ينهض، ولكن ليفر منها بعد نكثها بوعدها له.

وتبحث بسيشه عن كيوبيد حبيبها الهارب في حالة من اليأس القاتل، وتُعرِّضها الإلاهة فينوس لضروب من اختبارات التعذيب تمضي بها من العالم السفلي إلى جبل الأولمب Olympus، وكان آخرها إحضار دورق من إلاهة العالم السفلي بروسربينا Proserpina، طالبة منها ألا تفتحه تحت أي ظرف من الظروف. وثانيةً يستبد الفضول بالفتاة المعذَّبة بسيشه فتفتح الدورق وتستنشق أبخرته التي تُدخِلها في نوم عميق يشبه الموت.

وعندما يعلم كيوبيد بالأمر يزورها ويلمسها برفق بطرف سهم من جعبته ليتحقق عدم موتها، فتتأثر أمه فينوس بوفائه وإخلاصه لمن يحب، وتأذن له الآلهة بطلب يدها والزواج منها، وتعطيها من شراب الآلهة Nectar وطعامها Ambrosia، وهذا ما يجعلها خالدة، وتعتمدها إلاهة للروح. وهكذا تغدو بسيشه، بقصتها المثيرة، رمزاً لعذابات الروح التي عليها أن تخضع لها قبل أن تبلغ السعادة والخلود(١١).

(١١) انظر مادة "Psyche" في: Pierre Grimal, The Dictionary of Classical Mythology, =

والسؤال الذي يراود المرء بعد عثوره على أول الخيط، وهو كون بسيشه ثالثة شقيقاتها وأصغرهن وأجملهن، كما أن سوزان هي ثالثة من استوقفهن سعيد من نساء فيينا وأجملهن، المتمثل بـ:

- عنوان الرواية أجملهن من جهة،
- والصورة – صورة آمور وبسيشه، التي طُبعت على غلافها من جهة ثانية،
- وحديث الراوي عن شرائه لنسخة التمثال المصغرة وإهدائها لسوزان من جهة ثالثة،

والسؤال هو: ما صلة الرواية بالأسطورة؟

صحيح أن الرواية في مجملها تجمع، في علاقاتها بين شخصياتها الذكورية وشخصياتها الأنثوية، بين معاناة الشوق والوصال في حالة الأمير رودولف والبارونة ماريا، وفي حالة سعيد وسوزان، وبخاصة بعد افتراقهما، وتلح على الشوق وحده دون الوصال في حالة عبد العزيز وندى، غير أن الإشارة إلى مأساة الزوجين الأَوَّلَيْن في انتحارهما، وإلى مأساة الزوجين الآخرين في فراقهما الأبدي، وإلى مأساة الزوجين الأخيرين في موت أحدهما، تمثل انعطافة حادة في توقعات القارئ المطَّلِع على الأسطورة الذي يتطلع إلى نهاية سعيدة تُخْتَتم بها معاناة الأزواج الثلاثة. خاصة وأن

= Translated by A. R. Maxwell-Hyslop (Blackwell, Oxford, 1986), pp. 396-397. M. C. Howatson, The Oxford Companion to Classical Literature, Second Edition (Oxford University Press, Oxford, 1997), pp. 471-472.

وكذلك مادة "Eros and Psyche" في: New Larousse Encyclopedia of Mythology, New Edition, Introduction by Robert Graves (Hamlyn, London and New York, 1968) p. 132.

وكذلك مادتي "Cupid" و "Psyche" في: Arthur Cotterell, Encyclopedia of Mythology (Hermes House, London, 2010), pp. 33 &75.

الراوي يُرهِص بهذه النهاية عندما يُهدي سوزان نسخة مصغرة من التمثال، ولكنه من جهة أخرى يُرهِص بنهاية أخرى تُنازعها عندما يشير إلى كوخ الصيد الذي يحل محله دير الكرمليِّين، والذي تنضم إليه سوزان بعد موت أمها، ويأسها من الزواج من سعيد، الذي أبطأ بعرضه إذ جاءها بعد فوات الأوان، لقد وهبت نفسها ليسوع.

ومع ذلك فإن ثمة ما يثير انتباه قارئ الرواية، وهو ما يورده الراوي حول البيت من الشعر الذي رواه له صديقه عبد العزيز.

يقول سعيد مخاطباً سوزان: «الشعر الذي ذكرني به تمثال كانوفا يقول: لَذَّاتنا في الشوق، لا في الوصال نعم إن اللذة في الشوق قبل أن تكون في الوصال، وربما في الشوق أكثر من أن تكون في الوصال، إذا لم تكن في الشوق وحده، لا في الوصال. إنها كلمات أربع أو خمس، لا أدري إذا كنت أحسنت نقل فكرته في ترجمتي لها. محتواها يحتاج إلى صفحات لشرحه، إذا لم تكن مجلدات. إلا أن تمثال كانوفا أحسن اختصار ذلك المحتوى في تقارب شفاه العاشقين، دون تلاصقهما، في الحجر الأصم الذي نحته إزميله. تطلعي إليه يا عزيزتي» (ص ١٣٨-١٣٩).

وهكذا فإن سعيد، إذ يرضى بالشوق وحده في مستقبل علاقته بسوزان (التي نَعِم بوصالها في الأيام الثلاثة التي التقاها بها)، والذي يرى (تمثال كانوفا) قد أحسن اختصار محتوى الشعر الذي رواه في تجسيده لتقارب الشفاه دون تلاصقهما (ص ١٣٩)، لا يقدّم دفاعاً مقنعاً عن رأيه هذا إذ تُقِرُّ سوزان بجانب من صحته عندما تقول: «في الشوق لذة، ولكن الوصال هو الغاية من الشوق، أليس لذيذاً مثله أو أكثر منه يا سعيد» (ص ١٣٩).

ويبدو أن سوزان قد قنعت بلذة الشوق وهي تنتظر عرض سعيد

بـالزواج، وعنـدما يئسـت منـه، قـررت، إذ فاتهـا الوصـال، أن تهـب نفسـها ليسوع، علَّ وصالها الروحي معه يعوض عن وصالها الجسدي مع سعيد.

وكذلك ثَمَّة القصيدة التي ينسبها هذا الأخيـر إلـى صـديقه عبـد العزيـز وينشـدها لسـوزان بالعربيـة، ثـم يترجمهـا لهـا بالإنكليزيـة ويوردهـا فـي الصفحات (١٤٧-١٤٩)، والتي يشي عنوانها «قلب من حجر» بما كان يشـعر به إزاء قلبه المتردد في الإفصاح عما يعتمل فيه من شوق، متماهياً بذلك مـع صاحب القصيدة الدكتور عبد العزيز الذي ربما كان يتحدث عما ساوره مـن مشاعر بعد تعرفه ندى ومساعدته لهـا فـي بحثهـا الميـداني فـي بلدتـه، التـي وصفها سعيد بأنها: «بكاء عليها، وعلى نفسه أيضاً» (ص ١٥٠).

- **بين الرواية والنحت:**

هل ثمة من صلة بين رواية أجملهن والنحت؟

إذا ما تجاوزنا موضـوع تمثـال «آمـور وبسيشـه»، ومـا يحيـل عليـه مـن أسطورة، إلى النهاية الفاجعة للراهبة ندى، فإننا سرعان ما نعثـر علـى علامـة sign تتصل بالعلاقة بين الأدب والنحت، وهي منفضة السجائر المنحوتة من الحجر الصوان على شكل قلب، والتي كانت فيما يبـدو وراء قصـيدة «قلـب من حجر» التي نظمها الدكتور عبد العزيز، والتـي قرأهـا سـعيد بالعربيـة ثـم ترجمها لسوزان، لتثير الحوار الدافئ بين بطلي الرواية عن علاقة عبد العزيـز بندى، وعن طبيعة الحب في نظر كل من سعيد وسوزان.

والسؤال الذي يراود المـرء بعـد عثـوره علـى أول الخـيط - الضـفيرة، والمتمثل بـ:

- الصورة - صورة آمور وبسيشه، التي طُبعت على غلافها من جهة،

- وحديث الراوي عن شرائه لنسخة التمثال المصغرة وإهدائها لسوزان من جهة ثانية،
- ومنفضة السجائر المنحوتة من الحجر الصوان على شكل قلب،

والسؤال هو: ما صلة الرواية بالنحت؟

«الواقع أن «**التمثال**» كان مصدر الإلهام الرئيسي لعبد السلام العجيلي، أي أن «**النحت**» بوصفه أحد الفنون الجميلة كان الملهم لفن آخر هو «**الأدب**»، أو بالأحرى لجنس رئيسي من أجناسه هو «الرواية». صحيح أن الأسطورة هي ما ألهم (أنطونيو كانوفا) تمثاله الرائع، ولكن الصحيح أيضاً أن **التمثال**، أو نسخته التي نحتها (آدمو تادوليني)، كان ملهم العجيلي، إذ اتخذ منه محوراً أساسيًّا من محاور الرواية بجعله (موتيفاً) motif، أو «مُتَخَلِّلاً» لعلاقتي الحب اللتين جمعتا كلاً من سعيد وسوزان وعبد العزيز وندى، فضلاً على استلهام الدكتور عبد العزيز، صديق سعيد، منحوتة «**منفضة السجائر**» التي خصته به ندى في إنشاء قصيدته «**قلب من حجر**» التي كانت تعبيراً مزدوجاً عما كان يعتمل في نفوس كل من عبد العزيز وندى وسعيد وسوزان، وهو ما تأسره القصيدة بنصها المكثّف المفعم بالمعاني والغني بالدلالات».

نص القصيدة:

قلب من حجر
هل هو قلبي
أم هو قلبك
أم هو قلب الكون
هذا القلب الذي قُدَّ من حجر؟
قلب من حجر
أمام عيني هو

ظاهره مُصْفر على احمرار
باطنه بين بياض ناصع وحمرة
حمرة فاقعة. أهي دم تخثر
في قلب من حجر؟
لا. ليس قلبك هو
أنت التي الآن أمام عيني
أمام بصيرتي
محيا من ياسمين
روحاً من أنسام
تكويناً من ضياء
كيف يكون ذلك
هذا القلب من حجر؟
لعله قلبي أنا
لكن قلبي تحطم
أسمع نحيبه وهو يتمزق
وهو ينزف
هل يتمزق وينزف
قلب من حجر؟
لم أرسلتِ إليّ هذا القلب الصخري
ألكي تقولي لي إن الكون
إن أهل الكون
الذي أطفؤوا قلبك الذي كله ضياء
قلوبهم من حجر؟

يا شقيقة الروح
يا دفقة من شعاع
يا جمال النفس والجسد
ليت كان لي مكان قلبي الذي تحطم
مكان قلبي الذي تمزق ونزف
قلب من حجر

«بعد نحو شهر من الفاجعة جاءتني في مكتبي الأخت ماري تيريز، وهي إحدى الفرنسيسكانيتَيْن اللتين كانتا مع الأخت ندى في زيارتهما الأولى لي. سلمتني هذه الراهبة مغلفاً كبيراً من ورق مقوى معنوناً باسمي، وقالت لي إنه أحد مخلفات الفقيدة التي سلمتها الجهات الرسمية إلى دير الفرنسيسكان بعد أن انتهت التحقيقات في حادث مقتلها. كان اسمي على المغلف كما قلت، ولكن الكتابة عليه تشير إلى أنه مرسل إلى الدكتور عبد العزيز عن طريقي. وحين جاءني عبد العزيز بعد أيام قليلة سلمته المغلف ففتحه في حضوري. لم يكن فيه شيء يخصني أنا، وإنما كان فيه مظروف رسالة مغلق باسم صديقي الطبيب، ومع المظروف منفضة سجائر من حجارة صوانية منحوتة بشكل قلب...قلب من حجر

ردَّدت سوزان كالمتسائلة، آخر كلمات سعيد:

قلب من حجر تختلط فيه الألوان، بين أصفر شاحب وأحمر وأبيض ناصع. هذا عن تلك المنفضة. عن القلب من صوان، من سيليكس».

- **بين الرواية والموسيقا:**

ربما كان من الطبيعي، بل من المتوقع، من بطل رواية الدكتور عبد السلام العجيلي «أجملهن»، سعيد السائح المثقف الميسور الحال، والمعني بالجمال

عامة، والفنون الجميلة خاصة، والذي تعـوَّد التجـوال فـي سـيارته الفارهـة فـي مختلف أنحاء القارة الأوربيـة (فرنسـا وألمانيـا وبريطانيـا علـى سـبيل المثـال)، مثلما تعوَّد الاستماع إلى الموسيقا في صـالات عواصـم الغـرب التـي يزورهـا، يُعجب بها ويطرب لها، وبخاصة عنـدما تكـون سـمفونيات لكبـار الموسـيقيين العالميين (ص١٣٢)[١٢]، كان من الطبيعي أن تكون الموسيقا موضـع اهتمامـه، بل أن ترافقه في جولاته تلك، ينصرف إليها بسمعه وهو يقود سيارته، كما يـذكر لنا في حديثه عن زيارته لمايرلنغ بصحبة سوزان التي كانـت تصـغي فـي أثنائهـا إلى (بولونيز شوبان) على البيانو (ص٤٢).

وعندما يتصل الاهتمام بالموسيقا ببلد مثل النمسا المعروف بأنـه مهـبط وحيها، ومهد كبار مؤلفيها، وقبلة أعلامها في العصر الحديث، فإن زائرها لا محالة سينشغل بها في كل مراحل جولتـه فـي ربوعهـا، خاصـة وأن مرافقتـه (دليله – عشيقته – وحبه الذي قرر في نهاية المطـاف الاقتـران بهـا، عارضـاً عليها الزواج)، سوزان، وأمها فراو كونيش، مغرمتان بالموسيقا التـي تشـكّل مكوّناً أساسيًّا من مكوّنات حياتهما.

فعندما تبدأ سوزان مهمتها في تعريف سعيد بفيينا تبدأ بالـدانوب مشـيرة إلى فالس (يوهان شتراوس) (الدانوب الأزرق الجميـل) (ص٢٢)، وعنـدما تمضي به إلى ضاحيتيها: (غرينتزيغ) و(كوبنزل) (ص٢٤)، ينضم سـعيد فـي أثناء جولتهما بين منازلهما إلى أولئك «الجالسين صفوفاً على مقاعد خشـبية طويلـة لا مسـاند لهـا، فـي سـاحات المنـازل التـي يتـنقلان بينهـا، يصـفقون ويطلقون حناجرهم بأناشيد صاخبة وهم يحتسون النبيذ المعتصر مـن كـروم

(١٢) تشير جميع الأرقـام الـواردة بـين قوسـين إلـى صـفحات الروايـة، وانظـر: عبـد السـلام العجيلي، رواية أجملهن (رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، ٢٠٠١).

تلك المنازل» (ص ٢٤). و«مع المغنين كان يرفع صوته بكلمات يقلّد فيها ألحانهم، ويقرع بإحدى كفيه المائدة أمامه كما يفعلون» (ص ٢٤-٢٥).

ومع أن سعيد لا يتذكر كَم من المنازل في الضاحيتين مرّا بها، فإنه يتذكر بل يذكر للقارئ أنهما «كانا يغنيان ويصفقان ويتمايلان مع حضور الساحة على أنغام كمنجات وأكورديونات يعزف عليها بعض الساهرين»[١٣] (ص٢٥). وأكثر من هذا فإن مرافقته سوزان لا تغفل عن لفت انتباهه إلى واحدة من الدور التي سكنها (بيتهوفن)، مشيرة إلى اللوحة التي تذكر تاريخ إقامته فيها، وإلى أن ثقل سمع الرجل قد ألجأه إلى سكنى الضواحي نتيجة انزعاج الجوار من صوت عزفه العنيف على البيانو، فصار ينتقل من دار إلى أخرى.

والمفارقة أن إقامة (بيتهوفن) في هذه الدور تحوّلت لاحقاً إلى مصدر رزق لأصحابها، الذين باتوا يتقاضون رسوم دخول من زوارها، مما دفع سعيداً إلى التعليق عليها: «ما أزعج الآباء من (بيتهوفن) أثرى الأبناء بعده»، محققين فيما بدا له المثل القائل (وهو شطر من بيت للمتنبي): «مصائب قوم عند قوم فوائد» (ص ٢٦). وعندما تمضي سوزان بسعيد إلى بلدة (مايرلنغ)، ترافقهما مقطوعة (بولونيز شوبان) Polonaise في الطريق، التي التقطت أذنا سوزان أنغامه الرائعة الصادرة عن راديو السيارة، وطلبت من مرافقها أن يتوقف عن الحديث إلى أن «ينتهي هذا المقطع من (بولونيز شوبان)» (ص٤٢).

أما الأم (فراو كونيش)، فإنها لا تنسى أن توصي سعيداً وسوزان بحضور حفلات موسيقا الحُجْرة Chamber Music في كل ليلة (ص٨٦)،

(١٣) الإشارة هي إلى موسيقا الشوارع التي تعرف بـ «divtertimento» وتؤدى عادة أمام بيوت الأغنياء أو الساحات العامة أمام جمهور متذوّق. وانظر: Joseph Machlis, The Enjoyment of Music: An Introduction to Perceptive Listening, Revised Edition (W. W. Norton & Company, New York, 1963), p. 296.

التي ليست مثل (كونشيرتات (موزارت) وأوبراته)، ولكنها ستعجب سعيداً دون شك، وتأسف لأنهما لن يحضرا موسم مهرجان موزارت المشهورة به مدينته، سالزبورغ (ص ٨٥).

ويبدو أن سعيد وسوزان لم يهملا نصيحة الأم وبحثا في ليلتهما الأولى في سالزبورغ عن صالة يستمعان فيها إلى موسيقا الحُجْرة Chamber Music (ص١٣٠) التي فتَنَت سوزان فغدت «كالمسحورة بما تستمع إليه، تعلو شفتيها ابتسامة وتنضح قسماتها بالغبطة والانشراح». وتبدو لسعيد «هانئة» بما يثيره في نفسها من «متعة وانتشاء» (ص١٣٠). وعلى أي حال فها هي سوزان تحدث سعيداً عن الموسيقا في تلك الحفلة وتأثيرها في تبديد ما كانت عليه من إنهاك ونصب:

«الموسيقا في تلك الحفلة، وألحان (موزارت)، وبراعة أصابع أولئك العازفين على أوتار آلاتهم، كل هذه مسحت على جبيني وصدري ومحت كل أثر للتعب والنعاس. أعادتني إلى التمتع بجمال الحياة. أعادتني أنغام (آينه كلاينه ناخت موزيك)[١٤]، موسيقا الليل الصغيرة، إلى التمتع بجمال الحياة، كما أعادتني ياسعيد إلى حبنا: حبنا أنت وأنا» (ص١٣٢).

وها هو الراوي يعلق على ما كاشفت به سوزان سعيداً عن تأثير موسيقا (موزارت) في نفسها بقوله:

«موسيقا الليل الصغيرة، (آينه كلاينه ناخت موزيك)، هي واحدة من القطع التي عزفها الموسيقيون في هذه الأمسية. وسعيد الذي تعجبه وتطربه سمفونيات كبار الموسيقيين عندما يستمع إليها في صالات عواصم الغرب التي يزورها، معزوفة من قبل الفرق الموسيقية الشهيرة والكثيرة في عدد

(١٤) "Eine Kleine Nachtmusik"

آلاتها وأفرادها، يعترف لنفسه بأنه لم يتأثر تأثر سوزان بهذه السيرينادا[١٥] الناعمة والحالمة التي عزفت على البيانو والكمان وحدهما. لم يكن هذا يهمه كثيراً عل كل حال. حسبه أن يسعد بتوهج عواطف معشوقته بهذه السيرينادا. إنها مسوقة بهذا (التوهج) تناديه الآن ليضمها هو بين ذراعيه ولتحدثه هي عن حبهما» (ص١٣٢).

ولا ينسى الراوي كذلك الحديث عن (موزارت) ومهرجانه عند زيارة سعيد وسوزان لهيلبرون، القلعة والقرية، التي حملت إليهما «لذة التمتع بجمال المناظر من طبيعية لا تصنّع فيها ومن مُنسَّقة بالأيدي الماهرة الصَّناع» (ص١٣٩)، فالقلعة التي هي قصر قديم ترجع عمارته إلى قرون سالفة، خضع لعملية تجديد «ليستقبل زوار سالزبورغ في موسمها الموسيقي، موسم مهرجان موزارت»[١٦] (ص١٣٩).

وكذلك فإنه لا يفوت الإشارة إلى تسكُّع سعيد وسوزان بعد ظهر يوم وصولهما إلى مدينة (موزارت)، في شوارع المدينة «متعرِّفَيْن على معالمها حيث كانت ذكريات حياة موزارات في عمره القصير وتنقلاته الدائمة، وذكريات أعماله الموسيقية الرائعة، هي اللازمة أو اللحن الدائم التردد في أرجاء المدينة المختلفة» (ص١٤٣).

ويبدو أن الحس الموسيقي الرفيع المتأصل في نفس سوزان هو ما دفعها إلى التصريح عن تأثرها بالموسيقا الجميلة لقصيدة الدكتور عبد

---

(١٥) السيرينادا Serenad هي قطعة موسيقية رومانسية مغرقة في عاطفيتها، وتعزف عادة في الأمسيات، وغالباً ما تكون على شرف شخص، أو حبيب. وقطعة «موسيقا الليل الصغيرة» السابق ذكرها هي من هذا النوع من التأليف الذي يعزفه رباعي وتري (كمان أول وكمان ثانٍ وفيولا وتشيللو وقد يرافقها كونترا باص)، أو أوركسترا وترية صغيرة.

(١٦) ينعقد مهرجان موزارت عادة في سالزبورغ بين ٢٢ تموز و٣١ آب من كل عام.

العزيز «قلب من حجر»، عندما قرأها سعيد بالعربية (ص١٤٦) وهكذا نراها تعقب على قراءته القصيدة بقولها: «لم أفهم الكلمات، ولكن الموسيقا فيها جميلة، ويخيّل إلي أنها حزينة، أليس كذلك؟» (ص ١٤٧). ثم تضيف بعد أن عرض عليها سعيد ترجمتها:

«يسرني أن أفهم كلماتها بعدما تأثرت بموسيقاها. أم هي نبرات صوتك هي التي أعطتها الجمال وصبغتها بالحزن؟ كنت رائعاً في القراءة. لماذا لا تكلمني دوماً بهذه النغمة الموسيقية» (ص ١٤٧).

- **بين الرواية والدين:**

هل ثمة من صلة مابين الرواية والدين؟ الجواب هو أن هذه الصلة جدُّ وثيقة إلى درجة يصعب معها فهم دلالة الرواية دون إشارة موسعة إلى ما تثيره من قضايا تتصل بالدين الإسلامي، والدين المسيحي، والمؤسسة الدينية عامة، وبدورها في تحديد مصائر أتباعهما. فضلاً على ما تثيره شروح سوزان عن الصروح الدينية التي تزورها مع سعيد من أفكار في ذهن الرجل، وعلى ما تستتبعه علاقتهما من مناقشات حول مجتمعي الشخصيتين، ومن مقارنات بين الإسلام، دين سعيد، والمسيحية، دين سوزان الكاثوليكية، بل إن بعض ما يدور من حوار بين سعيد وسوزان في الفصل الثاني، يكاد يكون ضرباً من حوار الأديان interfaith dialogue: بين الإسلام، الذي يمثله سعيد بطل الرواية – العربي المسلم، وبين المسيحية الكاثوليكية، التي تمثلها سوزان التي منحت نفسها ليسوع بعد أن يئست من سعيد الذي أعادها إلى الحياة، بما أثاره في نفسها من عاطفة جارفة تجاهه، ثم ما لبث أن غادرها موزَّعة بين رغبتها في الحياة من جهة، وبين تحقيقها لرغبة أمها في أن تصبح راهبة من جهة أخرى، وعندما ماتت الأم لم تجد أمامها سبيلاً غير يسوع ملاذها الأخير.

وهكذا فإننا نجد سعيداً لا يتردد في الحديث عن آرائه في الدين لسوزان مقارناً ضمناً بين الإسلام والمسيحية:

«لن أخبرك بشيء كثير. الدين، كل دين، له في نفسي كل التقديس. أما عن رجال الدين، فإن ديننا نحن المسلمين لا يعترف لهم بنظام يميزهم عن سائر المنتسبين. نحن نقول: لا رهبانية في الإسلام. الإسلام الذي هو ديننا. ومع ذلك فإني أعترف لك بشيء، لا عن الرهبانية نفسها، بل عن الذين يسلكون مسالك الرهبنة، أعني عن الرهبان... والراهبات أيضاً.

وسكت قليلاً، فقالت هي متسائلة:

– أي شيء تريد أن تعترف به؟ هل في نفسك شيء ضدهم، رهباناً وراهبات؟

أجاب مسرعاً على سؤالها قائلاً: ضدهم؟ بالعكس يا عزيزتي. منذ صباي كنت أتصورهم أشخاصاً أسطوريين. تسحرني أزياؤهم التي تجمع بين البساطة والأناقة. لا أتكلم عن ذوي المراتب العليا من القساوسة، والموشحين بالقصب والذهب. هؤلاء لم أر نماذجهم إلا حين كبرت. أما في الصغر، فما كنت أرى في مدينتي، في الحي الذي يسكن أهلي فيه وفي الدروب التي أسير فيها بين البيت والمدرسة، إلا بسطاء الرهبان. أما الراهبات...

أما الراهبات، فما كانت أنظاري تقع عليهن إلّا قليلا. ولكني لقيتهن في قراءاتي الكثيرة». (ص ٤٢-٤٣).

وهو بوصفه مسلماً، يخضع سلوكه غير المتسق مع تعاليم دينه، إلى مساءلة شديدة:

«في أعماقي، رواسب من التربية وربما من الثقافة، تقول لي إن كل جنس دون شرعية هو مُحَرَّم. معك ارتكبت المحرم» (ص ١٠٣-١٠٤).

أما سوزان فإن لها رأياً آخر، وهاهي تحدثه بالمقابل عن نفسها فتقول:

«أنا يا سعيد شخصية فتاة كاثوليكية، وكاثوليكيتي ليست سطحية. كانت أمي، لما رأته من تعلقي بالدين وطقوسه، تعدّني لأكون راهبة بعد أن تزوجت ابنتها الأخرى، شقيقتي، غير أن إخوتي الشباب الثلاثة قتلوا في الحرب العالمية الثانية، فلم أقبل بأن أترك أمي وحيدة» (ص ٤٤-٤٥).

وسعيد، فيما يبدو، يدرك ذلك تماماً، ولذلك يخاطبها معلّقاً على جديتها في تناول مسألة انتحار رودولف وماريا، وأن لهذا الانتحار صلة وثيقة بالعواطف والشهوات:

«روحك روح راهبة، وإن كنت لا تلبسين مُسُوح الرهبان» (ص ٥٤).

ومما يؤكد ذلك أن شروحها عن الأديرة المختلفة التي زاراها تشي بإعجاب عميق متأصل في نفسها يمكن أن يُرَدّ إلى تديّنها.

وكذلك فإن حوار سعيد وسوزان عن خطيئة الجسد، وما يرتبط بها من شعور بالإثم لارتكاب المحرم، ليس إلا وجهاً آخر من حوار الأديان. تقول سوزان لسعيد، بعد أن منحته في حبها له روحها وجسدها:

«كأنك تجد في حبي لك خطيئة، أو تجد في حبك لي عيباً» (ص ١٠٢).

وبعد أن أجال سعيد كلامها في نفسه، وتساءل:

«أتراها تدرك دقائق ما يجول في ذهنه حول الفارق بين نظرته ونظرتها إلى العلاقة التي ربطت بينهما في هذه الأيام الثلاثة المنقضية» (ص ١٠٣)، قال لها:

«أنا يا عزيزتي، يا حبيبتي، حرٌّ عاطفيًّا، لا يربطني بامرأة أخرى رابط، لا رسمي ولا معنوي، التقينا أنت وأنا. رُقتِ لي ورُقتُ لك، ثم أحببتك وأحببتني وقادنا الحب إلى أن نغرق معاً في اللذة، لذة الجنس. لذة الوصال الجسدي.

ومع أني حرٌّ في نفسي وفي جسدي فإن شعوري عميق بأني ارتكبت، بهذا الوصال الجسدي، خطيئة. بأني ارتكبت محرماً» (ص ١٠٣).

ثم أضاف:

«في أعماقي، رواسب من التربية، وربما من الثقافة، تقول لي إن كل جنس دون شرعية هو محرم. معك ارتكبت المحرم، أما أنت...». (ص ١٠٣-١٠٤).

«أريد أن أقول إني أغبطكِ. المحرمات التي غرسَتْها في وجداني بيئتي وتربيتي وثقافتي، أنت لا تعرفين عنها شيئاً، هنيئاً لك» (ص ١٠٤).

غير أن سوزان سرعان ما تجيبه شارحة وجهة نظرها في مسألة العلاقات الجنسية خارج دائرة الشرعية الدينية:

«الآن أكاد أصل إلى فهم ما تريد قوله. تريد أن تقول إنك ترى الجنس محرماً مالم يتصف بالشرعية، وإني أنا لا أراه كذلك. ولكن ماهي الشرعية أيها المحامي؟» (ص ١٠٤).

وتضيف: «الشرعية عندي هي الحب يا سعيد. أحببتك فأعطيتك جسدي مثلما أخذت جسدك. لست وحدك الذي أخذ حين أخذتني... فأنا أخذتك أيضاً. الرواسب التي تتحدث عنها لا أعرفها أنا. وأمي أيضاً، (فراو كونيش)، لا تعرفها. أمي باركتني، هي تعرف أني سأمارس الجنس معك، أو أني مارسته معك منذ ليلتنا الأولى». (ص ١٠٤).

«أنا فتاة كاثوليكية. قيل لي أنا أيضاً إن ممارسة الحب بدون الشرعية، الممارسة التي أشرت أنت إليها، خطيئة كبيرة، ولكننا أنا وأمي، وصديقاتي وأمهاتهن، وآباءهن أيضاً، نجد الخطيئة الكبرى في ممارسة الجنس، إذا حدثت من غير حب، إذا كان حب فليس هناك خطيئة، أو أنها خطيئة هينة،

نرتكبها في المساء ويغفرها لنا راهب الاعتراف، إذا صدقناه القول، في الصباح» (ص ١٠٥)

«أنا أحبك. إذا كان حبي لك خطيئة فما أحلاها من خطيئة. خذني أرجوك» (ص ١٠٦).

والمتأمل في دفاع سوزان عن ارتكابها ما يراه مجتمعها ودينها خطيئة، يرى أنه ينطلق من نظرتها إلى الله على أنه المحبة، وأن هذه النظرة إلى بارئها تشفع لها عنده، ولذا ترى أن اعترافها بهذه الخطيئة أمام راهب الاعتراف يكفي للتطهر من إثمها، والإعفاء من جرائرها. وكذلك فإنها بوصفها عضواً في المجتمع الغربي الذي يُعلي من شأن الحرية الفردية، وينظر إلى مسألة ممارستها على الصعيد الجنسي نظرة نفعية، ولا يفكر بها عقيديًّا، ترى أن ما تقوم به مشروع، لأنها تمنح جسدها لمن تحب طوعاً وحبًّا، ومن ثَم فإنها بهذا المنح تمارس حريتها الفردية من جانب، وتخلص لدينها الذي يقوم في نظرها على المحبة من جانب آخر.

أما تحفظ سعيد على ما ارتكبه من محرّم ومساءلته لنفسه فناجمة عن عقيدته من جهة وأعراف مجتمعه من جهة أخرى. فمادام المجتمع الإسلامي يرى أن نواته هي الأسرة، وليس الفرد، فإنه يحرص على طهارة رحم المرأة، المهد الأول لكل عضو في هذه الأسرة، ولذلك فإنه يشترط أن تستند العلاقة الجنسية بين الرجل والمرأة:

- إلى الشرع أو كلمة الله أو عقد الزواج الذي هو ميثاق غليظ، على حدِّ التعبير القرآني، بين هذين الطرفين،
- وإلى القانون الذي يكفل حقوق كل منهما وحقوق ما ينجم عن وصالهما،

• وإلى المجتمع الذي يبارك هذا الرباط المقدس بشاهدي العقد من جهة، وبإشهاره من جهة ثانية.

ومعنى هذا أن أي علاقة جنسية بالنسبة لعضو في المجتمع الإسلامي، مهما كان انفتاحه على المجتمعات الغربية، لا يكفي أن تستند إلى الحرية الفردية، ولا إلى الحب المتبادل بين طرفيها، بل عليها أن تكون منسجمة مع الشرع والقانون والمجتمع، حتى يبقى رحم المرأة، أساس الأسرة، طاهراً، لا يملك أي رجل انتهاك حرمته دون إذن من خالقه، ومراعاة لما يحكمه من ضوابط والتزامات قانونية، يحددها شرع الله، ومباركة صريحة من المجتمع الإسلامي الذي يحرص على أن يبقي على تماسكه وسلامة روابطه.

وفي معرض حديث ندى الراهبة، ذات الأصل السوري، مع المحامي سعيد عن لقاءاتها في بلدة صديقه الدكتور عبد العزيز، تشير إلى حوار دار حول «المعتقدات الدينية» بين طبيب شديد التعصب لمعتقدات دينه، الدين الإسلامي، وبين زميل له يعارضه لمجرد المعارضة كما اتضح لها من أسلوب معارضته الساخر، أو مماحكته، وإلى احتدام النقاش بينهما ولجوئهما في نهاية المطاف إلى تحكيم الدكتور عبد العزيز الذي عرض رأيه في المعتقدات الدينية بوصفه عالِماً، والذي تلخصه بلغتها كما تزعم على النحو التالي:

«نحن كلنا أطباء، رجال علم كما نقول عن أنفسنا. نحن نؤمن بالعلم، وبالعقل الذي أوصلنا إلى العلم. ولكني سأسألكم: من يستطيع منا الادعاء بأن علمنا أحاط بكل شيء في الوجود وعرفنا بكل شيء فيه؟ في مجالنا الذي نعمل فيه، مجال الطب، وفي سائر مجالات الحياة؟ أظنكم معي في أن المجهولات في هذا الكون لا تزال أكثر من المعلومات بما لا يقاس، وفي أنها ستظل كذلك،

وأظنكم معي أيضاً في أن العقل هو أداة المعرفة التي توصلنا إلى الكشف عن المجهولات وتحويلها إلى معلومات. ولكن ألا يجب أن نتساءل عن حدود قدرة هذه الأداة في عملها؟ أنا أخبركم: عقلنا هو أداة عيشنا في حياتنا في هذه الدنيا وعلى سطح كرتنا الأرضية هذه. ولكن هل حياتنا هي الوحيدة في هذا الوجود، وهل كوكبنا الأرضي هو كل الكون؟ لا شك في أن علمنا الذي وصلنا إليه يجيبنا بأن أرضنا هي ذرة في عالم لا متناه، لا نعرف منه إلا القليل، وبأن حياتنا هي فترة محصورة بين المولد والممات، في حدود سبعين أو ثمانين أو مئة سنة. عقلنا الذي نملكه يعيننا على العيش على هذه الأرض في حدود المكان، وفي السنين المعدودة في حدود الزمان. خارج هذين المجالين المحدودين زمانيًّا ومكانيًّا لا يستطيع عقلنا أن يعطينا معلومات يقينية. إنه مثل ميزان حساسيته بين الغرام الواحد والكيلوغرام الواحد. إنه يعطينا وزن الشيء الذي نضعه في كفته بدقة، إذا كان ثقل ذلك الشيء بين غرام وألف غرام. أما إذا وضعنا في الكفة حجراً ثقله عشرة كيلوغرامات فإن نابض الميزان يتحطم وكفته تتفتت». (ص ١١٢-١١٣).

ثم يضيف: «لقد أقررنا على عقلنا بأنه لا يستطيع تعريفنا إلا بمعلومات تقع ضمن مجالات محدودة في الزمان والمكان. ترى ما الذي وراء هذه المجالات؟ ماذا قبلها وماذا بعدها؟ أما من سبيل إلى المعرفة بغير العقل المحدود الاستطاعة؟ بلى، هناك سبيل آخر. السبيل الآخر حمله إلينا أناس منا وهبوا مقدرة غير مقدرة العقل، أو هي فوق مقدرة العقل. أناس جربنا صدقهم، وتجردهم، وسعيهم لخيرنا، فوجدناهم في الذروة في كل منها. جاءنا يسوع المسيح الذي راودته الجبال على أن تكون له فضة وذهباً، فأبى أن يتقبلها. جاءنا محمد بن عبد الله الذي قالوا له إن الشمس قد كسفت لموت ابنه إبراهيم فقال: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا يكسفان لموت أحد أو لحياة

أحد!... هؤلاء المجرَّبون في الصدق والتجرد والعمل لخيرنا جاؤونا وقالوا لنا: «عندنا علم بالذي عجزت عقولكم عن الوصول إليه. نحن، كما تعرفون عنا، لا نكذب. صدقونا، بما نخبركم به. هناك خالق عظيم هذه صفاته، وهناك حياة أخرى هذه خصائصها. صدقونا تنجوا !» (ص ١١٣-١١٤).

وعن هتافها، مُعلِّقةً على ما أدلى به من رأي، محدّثة نفسها: (باسكال)، ثم شرحها لسعيد ما أرادته بهتافها قائلة:

«خيل إليّ أن الذي كان يتكلم هو (باسكال) نفسه. إنها آراء (باسكال) وإن كانت المفردات في طرحها مختلفة» (١١٤).

وإذ تسمع سوزان رأي الدكتور عبد العزيز في المعتقدات الدينية فإنها تعلّق محدِّثة سعيد قائلة:

«أحسست بأن أقواله عن العقل الذي يصنع العلم، وعن قدرة ذلك العقل المحدودة، وعن الرجال الصادقين الذين يحملون إلينا الإيمان، أحسست بأن أقواله هذه موجهة إليّ أنا وليس فقط لأصدقائه المتناقشين حول المعتقدات الدينية» (ص ١١٦).

- **الشرقي والغربي عندما يتراءيان:**

والرواية من منظور العلاقة التي تقيمها بين الشرق، ممثلاً بالرجل/ الذكر سعيد، والغرب ممثلاً بسوزان/ الأنثى، جديرة بالتأمل لأنها تفصح عن النظرة - الضد للشرقي تجاه الغرب، إذ يظهر فيها الرجل - الشرقي - الفارس وهو يفترع الأنثى الغربية، آخذاً بثأر بلده من المستعمر الذي غزا واحتل وقتل ودمر واستغل خيرات البلاد وأذل العباد. إن هذه العلاقة المركبة المتعددة الوجوه والمستويات والدلالات يمكن أن تفسح المجال واسعاً للمقارنة بين قيم المجتمعين، وبخاصة تلك القيم المتصلة بالمرأة، حتى إنها يمكن أن تعدّ رواية نسوية تسعى إلى زعزعة الهيمنة الذكورية من

خلال تقديمها لأنموذجين رائعين للمرأة الصادقة المتصالحة مع نفسها والمخلصة لأفكارها، ولو انتهى بها المطاف إلى عالم غير عالمنا - عالم الدير اللصيق بعالم الآخرة (في حالة سوزان)، وعالم الموت الذي يفضي كذلك إلى عالم الآخرة (في حالة ندى). والرواية بمسعاها هذا تدعو ضمناً إلى تمكين المرأة حتى تعيش الحياة التي تليق بمنزلتها السامية.

وهي من منظور العلاقة بين الأنا (الرحّالة) والآخر (موضع تأمل الأنا في الفسحة الجغرافية التي تحتوي الأنا التي تنتقل بين جنباتها) رواية رحلة تقوم على تقديم انطباعات رحّالة خبير (هو الروائي العربي القابع في شخصية سعيد) عن النمسا التي تبدو له عالماً ساحراً بطبيعته، وفنونه، ولاسيماعمارته وموسيقاه، وفسح لهوه، فضلاً على الفتنة والسحر اللذين يتجسدان في المرأة النمساوية سوزان التي تأسر القارئ بتسنمها ذروة الجمال والرقة والعذوبة والدفء العاطفي - أليست كما وصفها سعيد «أجملهن»، مثلما أسرتْ سعيداً بطل الرواية فصورّها هذا التصوير المثالي للمرأة التي وجد فيها كل شيء، ولكنه فقدها بترده، وطول تفكيره.

- **بين الرواية والسينما:**

والرواية تقيم علاقة لها دلالتها مع فن السينما من خلال إشارتها إلى فيلم فاجعة (مايرلنغ) (من بطولة عمر الشريف وكيم نوفاك) الذي خلّد الحب اليائس بين (رودولف) ابن الإمبراطور (فرانسوا جوزيف) ووريث عرشه والبارونة (ماريا فيتسيرا)، والذي انتهى بالانتحار المزدوج في كوخ الغرام الذي تحوّل بعدها إلى دير للكرمليّين.

- **بين الرواية وعلم النفس:**

وثمة بعد كل ما تقدّم ما تتيحه الرواية من نماذج بشرية يمكن لعلم النفس أن

يصول في عوالمها ويجول، وبخاصة شخصية سعيد الرجل الشرقي الذي لا تغادره النزعة البطريركية، فهوالمحامي الميسور الحال، والذي يمكنه وضعه المادي من أن يتجول في ربوع أوربا (فرنسا، ألمانيا، النمسا) بسيارته، ليستمتع بصروحها الخالدة، وطبيعتها الساحرة، وفنونها المختلفة، ونسائها الجميلات، في حين أن «أجملهن» سوزان مجرد سكرتيرة في مكتب محامٍ كبير، تركت العمل عنده، وستلتحق بعمل جديد بعد أسبوعين من مغادرتها لعملها، أي هي عاطله عن العمل (ص ١٥-١٦)، وهو لا يتردد في اقتناعه بأن بإمكانه أن يجد دليلة جميلة تقوم بأداء وظيفة اختارها هو لها، وهي أن تعرفه على عاصمة بلادها. وبما أنه يؤمن بأنه الفاعل والمبادر فإنه يصرّ على أن تكون هذه الدليلة «أجملهن» وعلى أن تكون علاقته بها علاقة عابرة. وهو لا يكتفي بذلك بل يصر على المكابرة وعدم الإفصاح عما يختلج في نفسه من مشاعر إلى أن تفصح سوزان عما في نفسها وتصارحه بحبها له. وعلى إلماحها إلى الزواج منه (ص ١٦٨)، فإنه يتردد في عرض الزواج عليها، مع أنه كان يحسّ تمزقاً في كيانه وهو يفارقها:

«بل إنه ليظلم نفسه بانفصاله عن هذه الفتاة التي لم تعد بالنسبة إليه صديقة عابرة، أو عشيقة يوم وليلة. إنه يدرك الآن أن عاطفته نحوها لا تقل اتقاداً عن عاطفتها نحوه. وهو الذي رحل رحلات وعرف جميلات لن يكون منصفاً، ولن يكون صادقاً. إذا قارن سوزان بمن عرفهن قبلها فسوَّاها بهن، ولا إذا قارن تعلقه بسوزان بتعلقه بالأخريات قبل أن يتعرف إليها وقبل أن تخالط نفسه نفسها في هذه الأيام المعدودات التي جمعتهما معاً فجعل التعلُّقين في منزلة واحدة» (ص ١٨٢).

إلى أن انتهى به المطاف إلى فقدها إلى الأبد بعد تفضيلها يسوع عليه - يسوع الذي أخرجها من حمأة ما أغرقها فيه سعيد من آثام، فمنحته لذلك نفسها

طوعاً وحبًّا. ودراسة شخصية كهذه، وما طرأ عليها من تغيرات، والوقوف على حوافز تطورها شائق بالدرجة التي تشوِّق الدارس لشخصية سوزان التي فتنت سعيداً وقلبت حياته رأساً على عقب، وأربكت تفكيره، حتى إنه لم يستطع أن يأخذه قراره بشأن علاقته بها، دون مساعدة صديقه الدكتور عبد العزيز.

- **بين الرواية وعلم الاجتماع:**

ولا ننسى أخيراً، وليس آخراً، ما تيسّره الرواية من إمكانية لدراسة مجتمعات الرواية الثلاثة: المجتمع العربي المدني الذي يتحرك فيه سعيد في حلب وسورية عموماً، والمجتمع العربي الريفي الذي يعيش فيه الطبيب عبد العزيز (وندى في أثناء قيامها بعملها البحثي الميداني)، والمجتمع النمساوي الذي يحتضن معظم أحداث الرواية ويشكل فسحة اللقاء الحميمي ما بين سعيد وسوزان بطليهما المميزين. ولا ريب أن المقارنة بين هذه المجتمعات قيماً وأعرافاً وتقاليد وعلاقات ستكون مثيرة للفضول، وحافزة إلى الاهتمام بما تحمله من مفارقات ولا سيما علاقات الرجل بالمرأة، والموقف من المؤسسات الاجتماعية والدينية، فضلاً على الدور الذي تؤديه هذه المؤسسات في تقرير مصائر الشخصيات.

- **الرواية والتاريخ والجغرافية:**

الرواية، كما أرجو أن يكون قد اتضح مما تقدم من حديث، تستند في أرضيتها إلى فكرة إنسانية هي كيف أن اللقاء بين الرجل والمرأة يوقظ جذوة الحب/ الحياة فيهما، وكيف أن الظروف والواقع بمؤسساته القائمة يحول بين هذه الجذوة وبين الاستمرار، ويفضي في نهاية المطاف إلى انطفائها، والدخول في خواء عاطفي هو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة. وتتمثل

هذه الفكرة بـ(تمثال آمور وبسيشه)، الذي يجسّد سعي كيوبيد، إلاه الحب، إلى إيقاظ بسيشه الميتة بقبلة، والذي تهيمن صورته على صفحة الغلاف. في حين تتجسّد تاريخيًّا وواقعيًّا بـ(فاجعة مايرلنغ)، والانتحار المزدوج لكل من ولي عهد إمبراطور النمسا (فرانز جوزيف) Franz Joseph، الأمير (رودولف) Rudolf، وعشيقته البارونة (ماري فتسيرا) Mary Vetsera، بعد أن حالت المؤسسة القائمة (السياسية والدينية والاجتماعية) بينهما وبين الاستمرار في علاقة الحب التي جمعتهما.

ومعنى هذا أن الدارس المقارن لهذه الرواية لن يتمكن من استيعاب دلالتها دون تدبر صلتها بالتاريخ النمساوي، ودراسة كل من حياة الإمبراطور وحياة ولي عهده، وكيف انتهى الأمر بالأب إلى معارضة استمرار هذه العلاقة، وأفضى إلى تحويل الكوخ الذي ضم جسد العاشقين المنتحرين، إلى دير عبادة للكرمليِّين، أو بالأحرى للكرمليات، خاصة وأن بطلة الرواية سوزان تدخل في نهاية هذه الرواية الدير راهبة كرملية بعد أن يئست من نهاية سعيدة تجمعها بسعيد بطل الرواية نتيجة تردد هذا الأخير وتأخر مبادرته إلى طلب الزواج منها.

ولن يتاح، أيضاً، لهذا الدراس استيعاب ما تشير إليه من حادثة/ أو فاجعة كوخ الصيد في (مايرلنغ) Mayerling، وإلى فسحة اللقاء ما بين سعيد وسوزان دون الإحاطة بخريطة فينيا: كنيسة سان ستيفان كيرخه (ص ١٣)، وجادة روتنتوم (ص ٢٢)، وساحة الكاتدرائية (ص ٢٢)، والبراتر، مدينة الملاهي، ودولاب الناعورة (ص ٢٣)، وشونبرن بارك أوتيل (ص٨٣) وبما يحيط بها من ضواح: غرينتزيغ و كوبنزل (ص ٢٤)، وبما يربطها من طريق يمتد إلى لينز (ص ٩٨، ١٠٦)، ثم إلى هيلبرون فسالزبورغ وضواحيها

(هلاين ومنجم جبل الملح وبحيرة الملح سالتزي، في مدينة الملح والموسيقا وموزارت، سالزبورغ (ص١٦٩-١٧٦)، لما تحمله تفاصيل هذه الفسحة من معانٍ تتصل بدلالة الرواية، ومعنى هذا أن دراسة العلاقة بين هذه الرواية وبين الحقائق الجغرافية، المتصلة بالنمسا أو سورية ولبنان أو فرنسا أو ألمانيا أو إيطاليا وغيرها، والتي تشير إليها، مهمة غاية الأهمية في فهمها واستيعاب ما تنطوي عليه من دلالة.

- **الروابط الخفية بين شخصيات الرواية:**

وثمة في نهاية المطاف تلك الروابط الخفية التي تحكم علاقات الشخصيات الذكورية بنظيرتها الأنثوية، ففي حين يرتبط كل زوجين منهما بعاطفة الحب (متفاوت في درجاته التي تفصح عنها الرواية):

- الأرشيدوق (رودولف) والبارونة (ماريا فِتْسيرا)؛
- وسعيد المحامي وسوزان السكرتيرة في مكتب المحامي الكبير التي تركت عملها؛
- والطبيب عبد العزيز وندى الراهبة الفرنسية من أصول سورية،

نرى أن المؤسسة القائمة تحول بينهما، وينتهي الطرف الأنثوي بالالتجاء إلى العالم الأخروي، في حين يشارك الأرشيدوق عشيقته في مصيرها في الانتحار المزدوج، وينجو سعيد من مصير كهذا ولكنه إذ يفقد من عقد العزم على الزواج ممن أحبها بحق يدخل عالماً من البؤس واليأس على ما فرَّط في جنبها، ويشاركه في ذلك الطبيب عبد العزيز الذي تحرمه جريمة المؤسسة الاجتماعية ممن أحب إلى الأبد.

والحقيقة أن ما يجمع قصص الأزواج الثلاثة هو أسطورة آمور وبسيشه التي جسّدها (أنطونيو كانوفا) تمثالاً رائعاً يتسنم ذروة في محراب الخلود

في متحف اللوفر في باريس، ويفصح عن الشوق الذي يوقظه الإله كيوبيد بقبلته لبسيشه التي تبدو له كالميتة.

يخاطب سعيد سوزان متحدثاً عن التمثال فيقول: (ص ١٣٨)

«عبقرية هذا التمثال هي في تصويره اللذة في ذلك الشوق، أو في إيحائه بتلك اللذة»،

ويضيف:

«الشعر الذي ذكرني به تمثال كانوفا يقول: لذتنا في الشوق لا في الوصال! نعم إن اللذة في الشوق قبل أن تكون في الوصال، وربما في الشوق أكثر من أن تكون في الوصال، إذا لم تكن في الشوق وحده لا في الوصال» (ص ١٣٨).

* * *

- **دلالات الرواية**

- اللقاء الإنساني بين الرجل والمرأة يوقظ فيهما عاطفة الحب، التي هي مؤشر وجود الحياة.
- غير أن ضغط المؤسسات القائمة (السياسية، والدينية، والاجتماعية، والثقافية) سرعان مايطفئها، ومن ثَمَّ يطفئ وقدة الحياة في بني البشر.
- رسالة الرواية: لنفسح المجال واسعاً للمحبة حتى تجمع ما بين البشر لما فيه خيرهم وسعادتهم.

* * *

كلمة الدكتور مروان المحاسني(*)
في ندوة «التراث في زمن المخاطر»

أيها السيدات والسادة:

نجتمع اليوم تحت رايةٍ ساميَةٍ هي راية التراث، وحين نقول بأن تراثَنا هو المنطلقُ الأصليّ لذاتيتنا الثقافية نعني بذلك أن انتماءنا إلى الثقافة العربية يحمل إلينا سيلاً معرفيًّا، وتجاربَ إنسانية، تشترك في بناء شخصيتنا الحضارية.

إلا أنه كثيراً ما يجري حولنا إطلاقُ مفهومِ التراث على الأشياء المحسوسة الموروثة في مجال حضاري معين، كالنُصُب، والأدوات، واللوحات الفنية، والنقوش، والمصنوعات الخاصةِ بثقافة من الثقافات، أي إنها تشمل جميع المظاهر الحياتية التي تتميّزُ بها تلك الثقافة. فنحن عندئذ نتكلّم في مجال العمران عن أنماط من المباني توصَف بأنها تراثية، لأنها جزء من ذَوقية خاصةٍ سائدة في مجموعة إنسانية محددة، أو هي نتيجة لضروراتٍ محلّية، بشريةٍ أو مناخية، فَنصِفُها بأنها تراثية نظراً لانتشارها، كناطِحات السّحاب في أمريكا، أو الأبنية البسيطة في القطب الشمالي، أو مجاهل إفريقية، وأما حين نتحدّث عن الفنّ الصيني أو الياباني، فإننا نبحث في كل منهما عن العناصر الوصفية التراثية، التي تمكّننا من التفريق بين المنتجات الفنية لكلّ منهما. وكذلك حين

(*) ألقى رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق الأستاذ الدكتور مروان المحاسني هذه الكلمة في افتتاح ندوة (التراث في زمن المخاطر) بتاريخ ١٩/ ٤/ ٢٠١٧.

ذكر اللباس التراثي للأقوام المختلفة، نعني به اللباسَ اليومي المعتاد المرتبطَ بالمناخ المحلّي، أو ذلك الخاصَّ بالمناسبات والاحتفالات، وهو لباسٌ غالباً ما يكون سائداً في منطقة معينة من عالمنا.

ومن جهة أخرى هناك ظواهر تراثيةٌ لعدد كبير من النشاطات الإنسانية في كل مجتمع، منها المهرجانات المرتبطة بالمناسبات الدينية، أو طقوسُ زيارة الأماكن المقدسة، كما تشمل قواعد زفاف العرائس، أو الرقصات الخاصة كالدَّبكة في مشرقنا، وهي عاداتٌ يصعب علينا أن نعود إلى أصولها.

وأما ما نعنيه بالتراث في المجال الفكري المكوِّن لمجتمعنا، فهو ذلك المسارُ المتّصل بماضي أمتنا، بتفصيل دقائقِ تاريخها، من انطلاقها من جزيرة العرب إلى بلاد الشام، وما أنجزته من حضارةٍ مشرقيةٍ تحملها لغةٌ تطابقت مع مختلف مُجريات التاريخ، حتى أنتجت علوماً عقليةً تجريبية عاليةَ المستوى، إلى جانب تعمّقٍ حقيقي في الفقه، وفي الفلسفة.

فإذا كان التراث الفني والمجتمعي في بلادنا قابلاً للتأثر بضغوط الحداثة أو مُشجّعاتها، بما تهدّد به من مخاطر، نظراً لما نراه من تسارعٍ في إنتاجها لوسائلَ تُسهّل حياة الإنسان المعاصر، فقد يَصِلُ تأثيرُها إلى إحداث انفصالٍ ثقافي كامل كما نراهُ في مجالات الفنون والصناعات، فلا بدّ لنا من القول بأن التراث الفكري الاجتماعي ليس في متناول تلك المؤثرات.

ذلك لأن تراثنا الفكري مُتجذّرٌ في ذاتيتنا الثقافية، ولا يكون خَلعُه وإبعاده عن رواسِيْهِ إلا بطريق الاستِلاب الثقافي، الذي يستطيع في بعض الحالات أن يُبعد الأفراد، أو الجماعات، عن لغتها مؤكداً اغترابَها عن انتماءاتها. وهذا أمر لا تستطيع المخاطر أن تَفرِضه على الأفراد والجماعات، إلا إذا أرادوا الوصول إلى ما يسميه المستشرق الكبير (جاك برك) Jacques

Berque «بَتراً لغويًّا»، نظراً لأن اللغةَ هي الحاملُ الأساسيّ للحقائق التراثية المُدوّنة في النصوص، كُتُباً ومخطوطات.

لذا يمكن القول بأن جوهر التراث الفكري لا تناله المخاطر إلا إذا أراد صاحبُه إسقاطَه طوعاً.

أيها الحفل الكريم:

إنّ المخاطر قادرةٌ على أن تسيطر على المقوّمات المادية الحاملة للتراث، الحافظة له، فهي تستطيع أن تقضي عليها قصداً أو عَرَضاً، وذلك على الأخص في زمن الحروب والكوارث الطبيعية كالزلازل والحرائق والهجرات البشرية المرتبطة بالشؤون المعيشية.

وأما إذا كان تراثنا حيًّا في أذهاننا، وهو المحرّك المسيطر على تعاملنا مع ما يحيط بنا من أحداث وظروفٍ طارئة، أي إنه الناظمُ الوجداني لكل فرد في تعامله مع الآخر، فمن البديهي التأكيد أن منطلقات هذا التراث الحيّ، المُهيكلِ لشخصيتنا الحضارية، هي محفوظةٌ في سطورٍ مبثوثة في كتب مطبوعة، أو مازالت مكتوبةً في مؤلفاتٍ لم تصل إلى مطابع الحداثة، أو في مخطوطاتٍ ثمينة اخترقت الأزمنة والعصور، ووصلت إلينا حاملةً ما يُمكِننا اعتبارُه مرجعياتٍ لغويةً وفقهية وعلمية، تشرح لنا مُكوّنات ما وصل إلينا من فكرٍ أصيل نَبَتَت عنه هذه المراجع.

وأما النصوص فقد كنّا صغاراً نشاهدُ أمثال تلك الكتب والمخطوطات، في بيوتِ دمشق القديمة، في حَيِّ «العمارة» أو «القنوات»، محفوظةً في كُتُبيّات أبوابها الصغيرة مُغلقةٌ بالزجاج، حمايةً لها من الغبار، تتصدّر القاعة الجميلة التي اكتستْ جدرانها بالخشب الشامي المزخرف، وهي تُطلّ على فسقيَّة رُخامية صغيرة، يُسمع خرير مياهها الهادئ في العتبة، تَبُثّ في القاعة

الرطوبةَ المطلوبة، لحفظ الكتب مما هو معروفٌ عن جو دمشق المائل إلى الجفاف. والقاعة ذاتُها يَحميها الإيوان المجاور لها من نفوذ حرارة الشمس، إلا من نافذةٍ صغيرة في جدارها الشمالي، المُطِلّ على أرض الدار الواسعة، وكانت القاعة مَلاذاً مثاليًّا لقيلولة بعد الظهر.

وأما اليوم فتراثنا المادي المكتوب محفوظٌ في المؤسسات الرسمية، وكانت المكتبة الظاهرية أولَ هذه المؤسسات حين استفاد مجمعنا عند إنشائه من ذلك البناء التراثي البديع الذي يؤوي ضريح الملك الظاهر بيبرس، فجعله مكتبةً للمجمع، وجعل المدرسة العادلية المقابلة للظاهرية مركزاً لاجتماعاته.

وقد انتقل معظمُ هذه المخطوطات إلى مكتبة الأسد بعد إنشائها، وبقي عدد قليل منها في مكتبة مجمعنا.

أيها الحفل الكريم:

لقد كان لزاماً علينا أن نحيط تلك المخطوطات بالرعاية والعناية الدائمة، وهذا ما جعلَنا نستعين بشخصيةٍ خليجية لها باعٌ طويل في هذا المجال، هو جمعة الماجد الذي أرسل لنا مَن يُدرّب العاملين في مجمعنا على العناية الدقيقة بالمخطوطات، كما أهدى إلينا التجهيزات الحديثة اللازمة لهذا العمل.

وما تزال المخطوطات العربية منثورة في مكتبات عواصم العالم، وقد استفاد منها المستشرقون أكثر من أصحابها، وكانت معرفتُنا لمحتواها ممهورةً بتفسيرهم في أغلب الأحيان.

وقد تبين منذ بضع سنوات أن شنقيط، وهي موريتانيا اليوم، هي أغنى البلاد العربية في حيازة المخطوطات، وذلك في مكتبة تنبكتو، عاصمةِ تجارة الملح

بين السنغال والمشرق في القرون الوسطى، ولا شك بأنّ المخاطر أصبحت مُحدِقةً بها في تلك الأجواء المشحونة بأنواع العنف في الشمال الإفريقي.

وفي أية حال فإنّ المخطوطات تُحَفٌ فنية علمية ثمينة علينا أن نجعل محتواها العلمي في متناول الباحثين، يُضيفون ما فيها من دقائق المجالات التي تختصّ بها إلى ما هو منشور في البحوث الحديثة، لعلّهم يكشفون فيها تَرسُّبات حضارية لم تكن واضحةً قبل الآن، مُستعينين بمعطيات النقد الحديث، مُبرزين الكثير مما نسميه اليوم التناصّ.

وقد تجاوب مجمعنا مع هذه الضرورات المُلحّة، وبخاصة تلك المتعلّقة بهشاشة المخطوطات، وبانتشار العنف في عالمنا، فاعتمدنا الوسيلة الحداثية المثلى، وهي الرَقمنة، للحفاظ على محتوى تلك المخطوطات.

وقد بدأنا الاتصالات اللازمة لإدراج تلك النفائس في نظام حاسوبي يجعلها في متناول الباحثين في أنحاء المعمورة، وذلك بالالتحاق ببرنامج حاسوبي عالمي يَتَولّى ربطَ محتويات مكتبتنا بالمكتبات العالمية.

ولا ننسى أنّ عدداً من هذه المخطوطات يتضمن رسوماً وشروحاً رياضية لبحوث العلماء، من أمثال الحسن بن الهيثم في البصريات، إلى جانب تخطيطات دقيقة في علم(الحِيَل) أي الميكانيك، وهذا ما يجعل بابَ التصوير يبقى ملازماً لهذه البرامج الرقمية.

وقد رأيت في مركز العلوم العربية الذي يديره الأستاذ فؤاد سزكين في فرانكفورت كيف تمكّن المهندسون الألمان من إعادة تركيب نموذجِ الساعة التي كانت على باب المسجد الأموي بدمشق، لضبط مواقيت الصلاة، ويُعتقَد أنّ الساعة التي أرسلها هارون الرشيد إلى (شَرْلُمان) كانت مشابهة لهذا النموذج.

أيها الحفل الكريم:

لقد رأينا أنّ يوم المخطوطات العالمي فرصةٌ مناسبة للاستماع إلى ما يقوله المختصون في شؤون الحفاظ على التراث المكتوب في بلادنا، وقد قبِلتْ ثلّةٌ من الأساتذة دعوتنا، ولهم الشكر الجزيل.

ويطيب لي أن أطلب إلى الأستاذ الدكتور محمود السيد نائب الرئيس التفضل بإدارة الجلسة العلمية، فليتفضل.

* * *

آلية الحفاظ على المخطوطات في أيام الخطر

أ.د. مصطفى موالدي(*)

تُعد المخطوطات العربية، التي ألَّفها العلماء العرب والمسلمون، لبنة من لبنات صرح الحضارة الإنسانية في جميع فروع المعرفة البشرية.

وتأتي أهمية الحفاظ على المخطوطات العربية وتحقيقها ودراستها ونشرها من أنها مظهر من مظاهر النشاط الفكري المعرفي في الحضارة العربية، المؤثِّر في تطور الحضارة الإنسانية بشكل ملموس.

ركَّزت ورقة العمل على آلية الحفاظ على المخطوطات في أيام الخطر من خلال مجموعة من الإجراءات.

تتعرض المخطوطات للعديد من المخاطر نتيجة:

- لعوامل إنسانية (الحرب والسرقة والتمزيق والتشويه والحك والإهمال،...)،
- ولعوامل فيزيائية وكيميائية (الحرارة والضوء والرطوبة، وطبيعة الورق والحبر والغبار،...)،
- ولعوامل بيولوجية (القوارض والحشرات والديدان والفطريات،...)،

وقد تتداخل تلك العوامل في المكان والزمان، ولذلك لا بد من اعتماد مجموعة من الإجراءات المتكاملة للحفاظ على المخطوطات قبل حدوث

(*) عميد معهد التراث العلمي العربي - جامعة حلب.

المخاطر، وأثناء حدوثها وبعدها، وكذلك تكون تلك الإجراءات متداخلة بالزمان والمكان، ولكنها تسعى لهدف واحد وهو المحافظة على هذه الثروة القومية والإنسانية الفريدة وغير المتجددة.

سنشير إلى حزمة من الإجراءات الضرورية الواجب اتخاذها للمحافظة على المخطوطات وهي:

١- تصوير كافة المخطوطات الوطنية (العامة والخاصة) تصويراً رقميًّا دقيقاً، وعلى عدة نسخ، وحفظها في أماكن مختلفة بحيث تكون آمنة، وكذلك تصويرها تصويراً ورقيًّا - انطلاقاً من النسخة الرقمية لأنه لا يجوز تعريض المخطوطات للضوء مرّاتٍ عديدة - وتجليدها وحفظها في مستودعات متخصصة ومجهزة بوسائل الحفظ المناسبة.

٢- إعداد فهارس نوعية تخصصية بالمخطوطات، وتعميمها على الجهات الثقافية الوطنية والدولية، إثباتاً لملكية تلك المخطوطات، ولتعميم الفائدة العلمية منها.

٣- تكليف إحدى مديريات وزارة الثقافة بإعداد سجل رسمي لتسجيل المخطوطات العامة والخاصة مع صفاتها الدقيقة، وتحديد ملكيتها، بحيث يمكن نقل ملكية المخطوطات العامة والخاصة بواسطة الجهات الحكومية العامة فقط - فيما إذا طُلب ذلك -، وضمن حدود الوطن حصراً. بحيث يشابه سجل المخطوطات السجل العقاري من الناحية الحقوقية والقانونية.

٤- توزع المخطوطات الأصلية على عدة أماكن آمنة، وينبغي عدم حفظها في مكان واحد حرصاً على سلامتها، وتُعد الخريطة الجغرافية لتوزيع المخطوطات من أسرار الدولة العليا.

٥- يمنع إخراج المخطوطات الأصلية بأي شكل من الأشكال خارج حدود الوطن.

٦- معالجة وسائل حفظ المخطوطات (أقراص C.D، أشرطة مِكروفِلْم، شرائح المِكروفيش، النسخ الورقية المصورة عن المخطوطات الأصلية) دوريًّا، والمحافظة عليها من التلف وفقدان المعلومات.

٧- سَنُّ القوانين والتشريعات الخاصة بحماية المخطوطات على مستويات وطنية وقومية وعالمية.

٨- الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية المهتمة بحماية التراث الثقافي وبخاصة المخطوطات.

٩- حماية الموظفين المهتمين بالحفاظ على المخطوطات من طريق الاتفاقيات الدولية.

١٠- إنشاء صندوق عربي خاص لتمويل حماية المخطوطات.

١١- غرس وتعميق روح الاحترام الواجب إزاء الثقافات والممتلكات الثقافية والإنسانية لدى المواطنين بكافة فئاتهم.

١٢- التخطيط القَبْلِيُّ والدقيق والمنظم لحماية المخطوطات وطرق نقلها إلى أماكن آمنة في حال اندلاع الحروب. مثال التخطيط الدقيق: إفراغ متحف اللوفر في باريس من جميع مقتنياته قبل دخول الجيش الألماني إلى باريس أثناء الحرب العالمية الثانية.

١٣- تحضير ملفات قضائية، تطالب الدول التي حازت مخطوطات أصلية من دول أخرى بطرق غير شرعية بإعادتها بعد تحديد صفات تلك المخطوطات بدقّة، وإثبات ملكيتها.

إعداد المخابئ المناسبة لحماية الممتلكات الثقافية ومنها

المخطوطات، بحيث تكون في مناطق آمنة بعيدة عن المناطق الحيوية والاستراتيجية المستهدفة من الجهات المتنازعة، وبحيث تكون تلك الأماكن بعيدة عن التلوث الجوي، ومجهزة بجدران خاصة تحفظ المقتنيات من الحرائق والزلازل، ويستحسن استخدام الخزائن الحديدية الكبيرة جدًّا لحفظ المخطوطات - غرفة المخطوطات هي خزانة حديدية مصفَّحة ومجهزة بأقفال خاصة كما في خزانة المخطوطات الرئيسة في مدينة قونية بتركيا -.

ويجب تجهيز تلك الخزائن برفوف معدنية متحركة، واستخدام نوعية الكهرباء المناسبة التي لا تضر بالورق، وتوفير درجة الحرارة والرطوبة المناسبتين، وتزويدها بأجهزة إنذار مبكِّر بوقوع الحرائق وأجهزة إطفاء الحرائق من النوعية الممتازة، وكذلك استخدام المواد المعقِّمة المتبخرة داخل تلك الخزائن لمكافحة آفات المخطوطات.

١٤- تأسيس مخابر لترميم المخطوطات ومعالجتها من الجفاف والحشرات الضارة وغيرها من الأمراض التي تصيب المخطوطات وتعقيمها.

أخيراً: تحتاج الإجراءات السابقة الذكر لميزانيات ضخمة ولجهود جبارة ومضنية، ويجب القيام بمعظمها قبل حدوث المخاطر، ولكن هذا الإرث العظيم المتمثل بالمخطوطات والذي يمثِّل ويميِّز حضارتنا العربية والإسلامية عن باقي الحضارات الإنسانية من حيث الكم والكيف، يستحق هذا الاهتمام، لأنه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بذاكرتنا وبوجودنا الحضاري على سطح البسيطة.

* * *

رقمنة المخطوطات في المكتبات
إرشادات عامة للحفاظ
على التراث الوطني في زمن المخاطر

د. عبير عناد العساف(*)

تمهيد:

تعرَف المخطوطات بأنها «النسخة الأصلية التي كتبها المؤلف بخط يده أو سمح بكتابتها أو أقرَّها أو ما نسخه الورّاقون بعد ذلك في نسخ أخرى منقولة عن الأصل أو عن نسخ أخرى غير الأصل». وتمثِّل هذه المخطوطات ثروة وطنية تحتفظ بها المكتبات في مجموعات خاصة محدودة الإتاحة. ونظراً لكثرة المخاطر المحدقة بمخطوطات مكتباتنا نتيجة الظروف الراهنة التي يمرُّ بها بلدنا الحبيب سورية أصبح لزاماً علينا الاعتماد على تقنية الرقمنة لضمان الحفاظ على أصول المخطوطات ولتيسير إتاحة النسخ المرقمنة منها لِسَدِّ احتياجات مجتمع المستفيدين.

تتناول ورقة العمل هذه المخاطر التي تواجه حياة المخطوطات، ثم تتطرق إلى آلية الحفاظ عليها من خلال محورين متكاملين: الأول يشتمل على ملامح البيئة الملائمة لحماية الأصول التقليدية، أما المحور الثاني

(*) قسم المكتبات والمعلومات – كلية الآداب والعلوم الإنسانية- جامعة دمشق.

فيتناول موضوع الرقمنة من حيث المفهوم والأهمية والمتطلبات والمراحل الرئيسية لإطلاق مشروع الرقمنة مع الإشارة إلى الإشكاليات المرافقة لعملية الرقمنة، وانتهى بالإشارة إلى أهمية الاستفادة من التجارب المحلية التي تعمل حالياً على رقمنة مصادرها التراثية.

- المخاطر التي تهدد حياة المخطوطات:

في البداية، لا بد لنا من استعراض مجموعة المخاطر المحدقة بالمخطوطات سواء كانت طبيعية أو من صُنع الإنسان والتي يمكن أن تتلخص بالآتي:

١ - المخاطر الطبيعية:

١ - **الرطوبة**: إن ارتفاع نسبة الرطوبة في البيئة المحيطة يؤدي إلى تشوهات في شكل المخطوط وتَكَوُّنِ الحموضة والبقع الصفراء على الأوراق ونمو الحشرات والفطريات والبكتريا وسواها.

٢ - **الضوء**: هناك أضرار متفاوتة لكل أنواع الضوء (الأشعة فوق البنفسجية، الموجات القصيرة، الأشعة الحمراء...) مثل اصفرار الأوراق وزوال بعض الألوان والنقوش والأحبار الحساسة للضوء وتعرض المخطوطات لتأثيرات الجفاف ومظاهره المختلفة.

٣- **الحرارة**: إن ارتفاع الحرارة الناجم عن الجو الخارجي يؤدي إلى أضرار يصعب أحياناً معالجتها نذكر منها جفاف العجينة اللاصقة لأغلفة المخطوطات وجفاف الأوراق والجلود والبُردي مما يؤدي إلى تفككها وتفتتها.

٢ - المخاطر الكيميائية:

تعد المخطوطات من أشد وأسرع المواد تأثراً بالمواد الكيميائية التي

يحملها الهواء مما يؤدي إلى إصابتها بالأحماض التي تشكل خطراً فاتكاً على حياتها، ومن هذه العوامل:

١ - **التلوث الهوائي والحموضة**: من أكثر الغازات الملوثة (الحمضية) خطراً غاز ثنائي أكسيد الكبريت. وقد تحدث الحموضة في المخطوطات لعوامل أخرى بخلاف التلوث الهوائي كوجود نسبة عالية من حامض الكبريتيك وكذلك بقايا الكلور في عمليات التبيض للورق.

٢ - **الأتربة والمعلقات الموجودة في الهواء**: وتحمل معها جراثيم الفطريات وبويضات الحشرات التي تنمو بسرعة متناهية خاصة إذا توفرت الرطوبة والحرارة.

٣- العوامل العضوية:

نظراً لكون المخطوطات ومكوناتها من أصل عضوي فهي قابلة للتحلُّل والفساد بتأثير الأوضاع المناسبة من قبل الكائنات الدقيقة التي يكون بإمكانها إحداث تغيرات وتشوهات في الورق والأغلفة واللواصق والأحبار وغيرها.

٤ - العوامل الذاتية:

للإنسان دوره في إتلاف المخطوطات، ذلك أن:

١ - التقليبَ العنيف لصفحات المخطوطات يؤدي إلى تمزقها وتشوه أحرف زوايا هذه الصفحات.

٢ - التقليبَ والتناول للمخطوطات بأصابع قذرة أو ملوثة بالحبر أو مبتلة بالعرق والدهون يؤدي إلى ظهور بقع وبصمات مشوهة على هذه المخطوطات وصفحاتها.

٣- ثنيَ الأوراق للدلالة على الأماكن التي وصل إليها القارىء من

العادات السيئة التي تؤدي إلى تكسر ألياف الورق ومن ثَم احتمال فقدان بعض أجزاء الورق.

٤- التدخينَ أو الأكل والشرب أثناء الاطلاع على المخطوطات يؤدي إلى أخطار سقوط الدخان أو شرر الدخان أو المأكولات والمشروبات على صفحاتها وأغلفتها، مما يسبب أضراراً متعددة من اصفرار واحتراق وتبقع يصعب إزالته بعد ذلك.

٥- التصويرَ المتكرر يؤدي إلى تفكك الملازم وتلف كعب المخطوط.

٦- إضافةَ علامات وكتابات أثناء القراءة مما يشوه بهاء النص الأصلي.

٧- تمزُّقَ الأوراق وتلف المخطوط بسبب الترميم من قبل غير المختصين.

٨- جهلَ بعض العاملين في مخازن المخطوطات بالطرق السليمة لوضعها على الأرفف، مما يعرضها للضرر والتقوس.

٩- الإهمالَ وعدم الالتزام بالمعايير اللازمة في درجة الحرارة ونسبة الرطوبة وقوة الأشعة الضوئية مما يعرضها أحياناً لأضرار بالغة.

١٠- عدمَ مقاومة وإبادة القوارض والحشرات وسواها على نحوٍ سليم، فضلاً عن عدم رش المخازن دوريًّا بالمبيدات اللازمة لذلك.

٥- مخاطر الحروب والنزاعات:

المتمثلة بالسرقة والحريق والتلف والإهمال والضياع.

- آلية الحفاظ على المخطوطات من الزوال

للحد من المخاطر المحدقة بالمخطوطات، لا بد للمكتبات من العمل على محورين أساسين متكاملين:

المحور الأول: الاستمرار في التزام المكتبات بحفظ أصول المخطوطات:

لا بد للمكتبات من توفير البيئة المناسبة لحفظ أصول المخطوطات وذلك بتحقيق مجموعة الإرشادات التالية:

١- ضرورة الكشف الدوري المتكامل على المخطوطات وخاصة على أجزائها الداخلية للتحقق من سلامتها وعدم تعرضها لأضرار وآفات معينة. ويمكن فِعْلُ ذلك أثناء التنظيف. وهنا يستحسن نقلها من أماكنها إلى أماكن مكشوفة جيدة التهوية، ثُم تنظيفها على ألا يشكّل ذلك النقل مخاطر أخرى كالسرقة أو الضياع أو الإهمال.

٢- العمل على عزل المخطوطات المصابة بالفطريات وغيرها من الحشرات والآفات حال اكتشاف ذلك، ووضعها بعيداً عن سائر المخطوطات الأخرى السليمة وإجراء المعالجة لها.

٣- حماية المخطوطات من عوامل التلوث الجوي وذلك عن طريق غلق الأبواب والنوافذ بإحكام، ومنع التدخين ودخول الغازات الضارة إلى المخازن وغرف وصالات القراءة، استخدام مرشحات مائية لإمرار الهواء النقي داخل الصالات والتخلص من الغازات الضارة، ووضع المخطوطات في خزائن محكمة الإغلاق لمنع وصول الحشرات والفطريات إليها خاصة في المناطق التي ترتفع فيها نسبة الرطوبة.

٤- التحكم في عوامل البيئة الطبيعية ويعني ذلك التحكم بدرجة الحرارة ونسبة الرطوبة ومقادير الأشعة الضوئية.

٥- اتخاذ الاحتياطات والإجراءات السريعة للمحافظة عليها من الدمار والضياع في حال الحرائق والفيضانات والزلازل والحروب.

المحور الثاني: الحفاظ على المخطوطات بالاعتماد على تقنية الرقمنة:

تتعدد المفاهيم المتعلقة بمصطلح الرقمنة وربما أبسطها هو «عمليةٌ أو إجراءٌ لتحويل المحتوى الفكري المتاح على وسيط مادي تقليدي (مثل مقالات الدوريات، الكتب، المخطوطات، الخرائط...) إلى شكل رقمي». أي إن رقمنة المخطوطات هي بكل بساطة تحويلها من الشكل المطبوع (المكتوب) إلى الشكل الرقمي.

- أسباب رقمنة المخطوطات

وهناك عدة أسباب تدفع بالمكتبات إلى رقمنة مخطوطاتها، أبرزها:

١- **حماية المجموعات الأصلية والنادرة:** حيث تمكِّن الرقمنة من توفير نسخ رقمية متاحة للتداول داخل المكتبة وخارجها تحول دون حاجة المستفيد للرجوع إلى المخطوط الأصلي إلا في حالات خاصة، وهذا من شأنه أن يُضعف احتمال تعريض المخطوطات للتلف، وخاصة تلك التي تكون في حالة مادية هشة.

٢- **التشارك في مصادر المعلومات:** ذلك أن إتاحة نسخة رقمية من المخطوط في متناول المستفيدين من موقع المكتبة الإلكتروني، من شأنه توفير الاطلاع عليه من جانب عدة مستفيدين في وقتٍ واحد ملغياً بذلك مشكلة النسخ المحدودة من المجموعات النادرة.

٣- **الاطلاع على النصوص بصورة أفضل وأكثر اتساعاً:** إن النسخة الرقمية البديلة للمخطوطات يمكن أن توفر بعض الإمكانات التكنولوجية الحديثة مثل إجراء تكبير على النص وتصغيره والانتقال السريع إلى أي جزئية من جزئيات النص من خلال الروابط الفائقة.

٤- **زيادة قيمة النصوص**: إتاحة النسخ الرقمية البديلة للمخطوطات على موقع المكتبة الإلكتروني يوفّر الاستفادة القصوى من مصادر المعلومات القيِّمة والنادرة والتي يمكن أن تكون في بعض الأحوال غير منشورة على نطاق واسع.

٥- **تعزيز العمل التعاوني**: إتاحة فرصة المشاركة والتعاون مع المكتبات الأخرى في إنتاج مصادر المعلومات المرقمنة وإتاحتها للمستفيدين.

٦- **مواكبة التطور التقني** واستغلاله في الحفاظ على أصول المخطوطات وفي تلبية احتياجات المستفيدين المتغيرة.

٧- **توفير ميزانية إضافية للمكتبات**: إنّ إنشاء قاعدة بيانات المخطوطات المرقمنة لها جميع الخصائص الفنية والفكرية لكافة أشكال المخطوطات، يساهم في زيادة دخل المكتبات عن طريق إتاحة الاشتراك بها، إضافة إلى إمكان الاعتماد على خدمة المخطوطات المطبوعة تحت الطلب حيث يمكن للمستفيد، سواء كان فرداً أو مؤسسة، طلب الحصول على نسخة ورقية من النسخة المرقمنة قابلة للتداول.

- متطلبات مشروع رقمنة المخطوطات

١ - التخطيط:

ويعني تحديد الأهداف ووضع السياسات وطرق العمل وإجراءات التنفيذ وإعداد الميزانية التقديرية ووضع البرامج الزمنية لتحقيق الأهداف الموضوعة. وقد يكون التخطيط على المدى القريب أو على المدى البعيد. وعادة ما يسند مشروع الرقمنة إلى لجنة تشرف على المشروع تعرف باسم

فريق عمل الرقمنة، والذي يجب أن يتكوّن من عناصر يشهد لها بالكفاءة العلمية والعملية، حيث تقوم هذه اللجنة بوضع خطة مناسبة لمراحل تنفيذ مشروع الرقمنة وأبرز عناصر الخطة:

١- تحديد الأهداف المراد تحقيقها من مشروع الرقمنة (هل ستُجرى الرقمنة بهدف الإتاحة أم من أجل الحفظ أم للهدفين معاً).

٢- دراسة جدوى، يجري فيها تحديد المتطلبات المادية والبشرية الضرورية لعملية الرقمنة.

٣- تحديد تكاليف المشروع وإقرار ميزانية مناسبة للمشروع مع تبويبها.

٤- وضع خطة زمنية واضحة لمراحل تنفيذ المشروع.

٥- إعادة هندسة الإجراءات الإدارية التنظيمية والعمليات الفنية بما يتناسب والتحول الجديد.

٦- تحديد كيفية إدارة المخاطر أي الإجراءات التي سوف تتخذ بخصوص المشاكل التي سوف تعترض المشروع.

٢- تحضير التجهيزات المادية والبرمجية المطلوبة:

على سبيل المثال لا الحصر: الحواسيب، الماسحات الضوئية الإلكترونية، الكَمِرات الرقمية، برامج التقاط الصور، برامج تحرير الصور، برنامج تَعَرُّف الحروف ضوئيًّا (OCR).

٣- الموارد المالية اللازمة لتكلفة القوى البشرية (رواتب، تدريب، عمل إضافي...)، وتكلفة المُعَدّات (من شراء وصيانة وإصلاح، تكلفة شراء البرمجيات وتحديثها...).

٤- الأُطُر البشرية:

ويكون ذلك بالتأهيل والتدريب أو التعاقد والاشتراك مع متخصِّصين

في مجال الرقمنة. بعض المؤسسات تمنح مشاريع الرقمنة لِجهة خارجية متخصصة بموضوع الرقمنة، وبعضها الآخر يعتمد على العاملين المحلِّيين. ويعتمد الاختيار على عدة عوامل: حجم المخصصات المالية، مدى توفر الهيئة العاملة المدربة، حجم مجموعة المخطوطات المراد رقمنتها وطبيعتها، إمكان نقل المخطوطات إلى خارج المؤسسة، خبرة المؤسسة الخارجية في الرقمنة، تكاليف الرقمنة الخارجية، التحكم في مستوى جودة مصادر المعلومات المرقمنة خارج المؤسسة.

٥- **دراسة وإعداد مصادر المعلومات المراد رقمنتها مع تحديد نوعية المستفيد من رقمنة هذه المخطوطات:** لا بد أن يكون للمكتبة سياسة لاختيار المصادر المراد رقمنتها فلا يمكن لأي مكتبة أن تقوم برقمنة كل مجموعاتها، فبعض المخطوطات ليست بتلك الأهمية لتقوم برقمنتها والبعض الآخر بحاجة لترميم قبل الرقمنة. إضافة إلى أهمية تحديد مجتمع المستفيدين ليصبح بالإمكان تحديد كيفية إتاحة المحتوى المرقمَن واختيار أدوات البحث والاسترجاع الملائمة.

- مراحل القيام بمشروع رقمنة المخطوطات

١- **مرحلة تنظيم المخطوطات وصيانتها وترميمها:** قبل القيام بأي خطوة لرقمنة المخطوط لا بد أن يتم صيانته وترميمه سواء كان الترميم يدويًّا أو آليًّا.

٢- **مرحلة الرقمنة:** إن عملية الرقمنة تأخذ شكلين أساسين:

أ- الرقمنة بشكل صورة: وهي تمثيل دقيق للصفحة التي تم التقاطها من المخطوطة الأصلية ويعتبر هذا أمراً مفيداً لعملية التحقيق. ويتميز النص المرقمن بشكل صورة، بأنه لا يمكن

سوى تصفحه أي لا يسمح بأيّ شكل من أشكال البحث داخل النصوص. هناك ثلاثة أساليب للرقمنة بطريقة الصور: الرقمنة في شكل أبيض وأسود، الرقمنة في شكل مستويات الرمادي والرقمنة بأسلوب الألوان. ونظراً لخصوصية المخطوطات فإن الرقمنة بشكل صورة هي الأنسب.

ب- الرقمنة بشكل نص: تسمح هذه التقنية باستعادة المحتوى النصي ولكن طريقة العرض عادة ما يتم فقدها.

٣- **مرحلة المعالجة**: بعد رقمنة المخطوطات وتحويلها إلى مخطوطات إلكترونية تأتي مرحلة معالجة هذه المخطوطات التي هي صُور، ويمكن أن ننجز عملية المعالجة التالية: تحسين نوعية الصور، ضغط الصور لتقليل مساحة التخزين، تنظيم وترتيب الصور في ملفات، تحويل الصور إلى صيغة PDF.

٤- **مرحلة المراقبة**: مرحلة تجري بالتوازي مع عملية التصوير الضوئي حيث يقوم المسؤول بالتدقيق في الملفات المصورة ضوئيا ومقارنتها بالأصل للتحقق من وضوحها وجودتها وعدم ضياع أي معلومة قد يحتويها المخطوط. فإذا عُثر على صورٍ ليست بالكفاءة المطلوبة تُعاد رقمنتها.

٥- **مرحلة إعداد التسجيلات الواصفة**: تتطلب عملية الرقمنة فهرسة المجموعات فهرسة دقيقة وذلك لتسهيل عملية البحث واسترجاع المعلومات.

٦- **مرحلة الحفظ والإتاحة**: يتمثل الهدف الرئيسي منها في حفظ المعلومات المرقمنة وإتاحتها في أي وقت ومكان بمختلف

وسائط الحفظ الرقمي المعتمدة (شبكة الانترنت، جهاز الحاسوب، الأقراص المضغوطة،...) إضافة إلى ضمان الصيانة والاستمرار مدةً طويلة.

٧- **مرحلة التقييم والتقويم**: ويجري في هذه المرحلة تقييم الأداء في مشروع الرقمنة وذلك بتحديد الانحرافات الإيجابية عن الخطة المرسومة للاستفادة منها مستقبلاً، وكشف الانحرافات السلبية عن خطة العمل المقررة وتحليلها ومعرفة أسبابها وإيجاد الحلول الناجعة لها لتلافيها وعدم الوقوع فيها مستقبلاً.

- إشكاليات مشروع رقمنة المخطوطات

على الرغم من المميزات التي تقدمها عملية الرقمنة فإنها عادة ما تصطدم بكثير من التحديات:

١- **إشكالية حقوق الملكية الفكرية**: تحتاج بعض المخطوطات إلى مفاوضات واتفاقات مع أصحاب الحقوق.

٢- **إشكاليات في طبيعة المخطوطات المراد رقمنتها**:

أ- تنوُّع أحجام المخطوطات العربية وكذلك نوعية الخط في المخطوط الواحد.

ب- وجود كتابات وتعليقات على الحواشي تأخذ أشكالا متعددة.

ج- حالة المخطوط من حيث الحفظ.

د- صعوبة في مرفقات المخطوطات خاصة الخرائط والرسوم.

ه- وجود الكتابة في إطار فني من الزخارف والأشكال في مقدمة بعض المخطوطات.

و- كتابة المخطوط الواحد بلغتين أو ثلاث على نفس الصفحة.

ز- التنقيط المتبع يختلف من مخطوط إلى آخر فمنها ما يأخذ أشكالا دائرية صغيرة أو مثلثات أو أزهاراً بألوان مختلفة.

٣- **إشكاليات الحفظ الرقمي للمخطوطات**: تتمثل بالسرقة الإلكترونية، قرصنة المواقع، الفيروسات، تلف بعض المواد وعدم قابليتها للقراءة، التزوير والانتحال... ولكن من الممكن تخطّي هذه الإشكالية من خلال الرقابة المستمرة، والتحديث، وحفظ المادة المرقمنة الواحدة على أكثر من وسيط لحمايتها من التلف، والاستناد إلى هجرة المعلومات.

٤- **الإشكاليات المالية**: من الضروري البحث عن مصادر التمويل قبل البدء في المشروع نظراً لضخامة التكاليف خاصة عندما يكون حجم المواد المراد رقمنتها كبيراً.

٥- **الإشكاليات التقنية والفنية**: تتمثل بالتجهيزات المادية والبرمجيات خاصة في ظل التطورات السريعة والمتلاحقة في هذا المجال.

- نماذج من التجارب المحلية في مجال رقمنة المخطوطات والكتب التراثية:

من الأهمية بمكان الاطلاع على تجارب المؤسسات الأخرى في مجال الرقمنة بُغية الوقوفِ على الأخطاء السابقة والاستفادة من الخبرات والخطط المتبعة في إنجاز المشاريع قبل التعاقد مع أي مؤسسة كانت. ومن الملاحظ اليوم أن عدداً من مكتباتنا السورية تعمل على اعتماد مفهوم الرقمنة لحماية مخطوطاتها من الزوال وإتاحتها لأكبر عدد من المستفيدين، نذكر منها:

مشروع رقمنة المخطوطات في مكتبة الأسد الوطنية: بدأت مكتبة الأسد الوطنية في قسم التصوير الخاص بها برقمنة مخطوطاتها والكتب

النادرة بشكل صورة وذلك بالاعتماد على الكمِرة الرقمية. وتُحفظ النسخ المرقمنة على أقراص متراصَّة. ويتمحور هدف المشروع في ضمان حفظ المصادر التراثية. ولكن لا تزال المكتبة تتيح الاطلاع على المخطوطات بالاعتماد على أجهزة المكروفِلْم.

مشروع رقمنة الكتب التراثية في مركز الوثائق التاريخية: بدأ مركز الوثائق التاريخية التابع للمديرية العامة للآثار والمتاحف بمشروع رقمنة مصادره في عام ٢٠٠٥ والمتمثلة بالمخطوطات، والكتب، والصور، والصحف والوثائق، التي تعود لحقبة الاحتلال العثماني. يتمحور الهدف الرئيسي من إطلاق مشروع الرقمنة في عملية الحفظ الرقمي البعيد المدى للمصادر التاريخية وتيسير اطلاع الباحثين على النسخ المرقمنة من المصادر التاريخية. اعتمد المركز على الرقمنة الداخلية لرقمنة مصادره بشكل صورة بواسطة الكمِرة الرقمية والماسح الضوئي. أتاح المركز مصادرَه المرقمنة داخلياً للباحثين اعتباراً من عام ٢٠١٢ وبذلك حُجِب الاطلاع على المصادر الأصلية التي نُقِلت إلى خارج المركز لضمان حمايتها. حُفِظت النسخ المرقمنة على أقراص متراصَّة ثم نُقِلت إلى العتاديات.

مشروع رقمنة المخطوطات في مكتبة بطريركية أنطاكية وسائر المشرق للروم الأرثوذكس: تسعى المكتبة لرقمنة مجموعتها الكاملة بهدف حماية مخطوطاتها من التلف وتسهيل إتاحة النسخ المرقمنة للمستفيدين. وتتمحور الإشكاليات التي صادفت المشروع في الإشكاليات التقنية مثل الإضاءة ودقة الصورة وأمكن التوصل إلى حلٍّ لها. تجري الرقمنة وفق الخطوات التالية:

١ - يُختار المخطوط بحسب رقمه التسلسلي ويُنظَّف ثم يُرقَّم ترقيماً كاملاً إذا لم يكن مرقماً لضمان الحصول على نسخ مرقمنة متسلسلة.

٢- تجري عملية الرقمنة بالاعتماد على كمِرة نيكون دي ٧٠٠، وفي إعدادات الصور يجري التقاط صيغتين من الصور (jpeg , nef) ويجري التقاط صور لكل صفحة ولكل جوانب المخطوط للاحتفاظ بالشكل الأصلي للمخطوط وتُرفَق مسطرةٌ بجانب المخطوط لتوضيح حجم المخطوط الأصلي.

٣- تجري فهرسة المخطوط كالتالي: اسم الجهة المرقمِنة، رقم المخطوط التسلسلي، نوع الصيغة ورقم الصفحة.

٤- بعد الانتهاء تُفرز الصور حسب الصيغة ضمن ملفات لتوفير إتاحتها فيما بعد.

الخاتمة

نستخلص في النهاية أن الرقمنة تعتبر في أيامنا هذه الحل الأمثل لحماية أصول المخطوطات والكتب التراثية من الزوال، ولكن هذا لا ينفي وجود مجموعة من التحديات المتعلقة بالبيئة الإلكترونية التي يجب على المكتبات أخذها بعين الاعتبار للوصول إلى الهدف المطلوب من مشروع الرقمنة.

* * *

المصادر والمراجع

- إرشادات للتخطيط لرقمنة الكتب النادرة والمخطوطات الاتحاد الدولي لجمعيات ومؤسسات المكتبات، ٢٠٠٤. متاح على الرابط: https://www.ifla.org>rbms-guidelines
- إشكالية رقمنة المخطوطات بالجزائر: زاوية الشيخ محمد باي بلعالم والمركز الوطني للمخطوطات بأدرار نموذجين. أبا الحبيب حمزة. – الجزائر: جامعة وهران، ٢٠١٥ (إطروحة ماجستير) متاح على الرابط: https://theses.univ-oran1.dz>tha3948
- دراسات في تحليل وتصميم مصادر المعلومات الرقمية. أحمد فرج أحمد – الرياض: مكتبة الملك فهد الوطنية، ٢٠٠٩.
- رقمنة الكتب النادرة وتقنياتها: المكتبة التراثية بجامعة القاهرة نموذجاً. محمد فتحي عبد الهادي. – مجلة إعلم.– ع ١٥، (٢٠١٥).– ص ١٧٥–٢٠٤.
- رقمنة المخطوطات العربية: الطرق والأساليب. عادل غزال. – مجلة التراث.– ع ٢ (٢٠١٢). متاح على الرابط: https://adelghezzal>wordpress.com
- المخطوطات في العالم العربي: الواقع والأفاق. المكتبة المركزية. – مجلة صدى المكتبة.– س ٢، ع ١٤ (٢٠١٢). متاح على الرابط https://lib2.kfu.edu.sa>web>8.2.asp

* * *

مشروع صون التراث السوري العاجل

الأستاذة أمينة الحسن(*)

دعاني مَنْ لا يسعُني مخالفتُه الدكتور: «محمود السيد» لإلقاءِ هذه المحاضرةِ، وإنّي أتقدّم بالشكرِ الجزيل له، ولرئيسِ مجمعِ اللغة العربية الدكتور: «مروان المحاسني» على دعوتي إلى هذه المأدبة التراثية، وأشكرُ جميعَ مَن لبّى دعوتي من أساتذتي المكرَّمين.

السادة الحضور الأكارم، تحية وبعد: لقد قضى أجدادُنا العلماءُ جلَّ عمرِهم في العلمِ والتحصيل، وأتَوا بنفائسَ وكنوزٍ بقيت إرثاً لنا، وتراثُنا غزيرٌ متنوع، وكلمةُ التراثِ مأخوذة من وُرِثَ، والتاءُ فيها مبدلةٌ من الواو، وتعني: وراثةَ المال، وتراثُنا يشملُ الآثارَ المكتوبةَ الموروثةَ التي حفظَها لنا التاريخُ فوصلت إلينا في صورةِ كتبٍ مخطوطة، وقد كانتِ الكتابةُ باليدِ وسيلةً متواضعةً لنقلِ المعرفة.

والمخطوطاتُ هي كلُّ ما كُتبَ بخطِ اليد، وتنقسم إلى قسمين: مخطوطاتٌ قديمةٌ وهي التي يُقدَّرُ عمرُها بأكثرَ من خمسين عاماً. ومخطوطاتٌ حديثة: وهي التي عمرُها أقلُّ من خمسين عاماً.

لَقيتْ هذه المخطوطاتُ اهتماماً كبيراً منذ القديم، فقد اهتمَّ النَّساخُ بنسخِها، والمجلِّدون بتجليدِها، والمذهِّبون بتذهيبِها وزخرفتِها، والمخطوطاتُ

(*) أمينة المخطوطات والكتب النادرة في مكتبة الأسد - دمشق - سورية.

ثروةٌ قوميّةٌ تفخَر بها الأمةُ العربية، وهي نبعُ عطاءٍ ومرجعٌ في جميعِ ميادينِ العلوم، وهي أمُّ الثقافة، ومرجعٌ أساسيّ ينهلُ منه طلبةُ العلم.

وتُعَدُّ مكتبةُ الأسد المكتبةَ الوطنيةَ للقطر العربيِّ السوريِّ من كبرى المكتباتِ الحديثةِ في الوطنِ العربي، وهي وعاءٌ فكريٌّ تقدَّسَ بأسرارِها.

وتحتفظُ بمجموعةٍ كبيرةٍ من المخطوطاتِ التي آلتْ إليها من المكتباتِ الأخرى كالمكتبةِ الظَّاهرية بدمشقَ التي ورد لنا منها (١١٩٠٤) ذُكِرَتْ في سجِّلِ الظاهريةِ الذي طبعه الأستاذان الخيمي والحافظ، ومن المكتباتِ المتعددةِ في حلب، ومكتبةِ مديرية الآثارِ والمتاحف، والمركزِ الثقافيِّ في حماة وإدلب، زيادةً على ما يَرِدُها باستمرارٍ من مخطوطاتٍ عن طريقِ الإهداءِ أو الشراء.

وهناك عدَّةُ تسمياتٍ لها منها:

المخطوطاتُ الخزائنية: وهي التي كان يكلِّفُ فيها أحدُ السَّلاطين أو الوزراء كاتباً بالنسخ لخزانتِه الخاصة، والمخطوطاتُ الفريدةُ: وهي التي لا يوجدُ منها نسخٌ أخرى في الخزائن.

وهناك مخطوطاتٌ نسخَها مؤلفُها بيدِه، أو أشرفَ على نسخِها وتصحيحِها المؤلفُ نفسُه.

ولدينا مجموعةٌ ثمينةٌ من المخطوطاتِ القديمةِ التي يزيدُ عمرُها عن ألفِ عام ومنها:

- مسائل الإمام أحمد بن حنبل: له تاريخ سماع سنة (٢٦٧هـ).
- صفة النار لابن أبي الدنيا: تاريخ نسخه (٣١٠هـ).
- شرح ديوان الفرزدق: تاريخ نسخه (٣٣١هـ).
- التربيع والتدوير للجاحظ: تاريخ نسخه (٤١١هـ).

تعرَّضتِ الكثيرُ من المخطوطاتِ وخزائنِ الكتبِ للضياعِ والدَّمار، والتَّلفِ والسَّرقة، لأسبابٍ مختلفة، وخلالَ الغزوِ المغوليِّ لبغدادَ سنةَ (٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م) أُحرق ودُمِّر العديدُ من خزائنِ الكتب، ومنها خزانةُ المدرسةِ المستنصريةِ التي رُميتْ بعضُ مخطوطاتِها في نهر دِجلة، وسُرِقَتْ مجاميعُ من نوادرِ المخطوطات من (نصيرِ الدين الطوسيّ) الذي دخل مع هولاكو إلى بغداد، ولم تسلمْ خزائنُ المخطوطاتِ من السَّرقةِ والتهريبِ أثناء الاحتلالِ التيموريِّ والصفويِّ لبغداد.

لقد بُذِلَتِ الجهودُ الكبيرةُ في العصرِ الحديثِ لإنقاذِ ما يمكنُ إنقاذَه من المخطوطاتِ التي سَلِمتْ من الكوارثِ والنكباتِ السابقة، وعَرفَ العالَمُ أهميةَ إنقاذِها، وحمايتِها، والحرصِ عليها، نظراً لأهميتِها، فهي قبلةٌ للباحثينَ التي تفتحُ لهم آفاقاً معرفيةً للنهوضِ والرقي.

لا بدَّ من توحيدِ الجهودِ لإنقاذِ المخطوطاتِ ورعايتِها، وتجميعِها، وتصويرِها، وتحقيقِها والتعريفِ بها لوسائل متعددةٍ. وحمايةُ المخطوطاتِ يجب أن تخرجَ من الاهتمامِ الفرديِّ إلى الاهتمامِ المؤسساتي، ولا بدَّ من زياراتٍ علميّةٍ للمكتباتِ الشرقيةِ والغربيةِ للاطّلاعِ على الطرائقِ المتَّبعة لصونها وحمايتِها.

ولقد حضرتُ مقدمةَ مشروعِ دورةٍ عُقِدَتْ في بيروتَ بعنوان: (مشروع الصون العاجل للتراث) برعايةِ منظَّمةِ اليونسكو. ويُعَدُّ مشروعُ صونِ التراثِ العاجلِ السوريِّ مشروعاً مهمّاً؛ لحمايةِ التراثِ الثقافيِّ السوريِّ من أعمالِ الدمارِ والتخريبِ التي قد تطالُ سورية.

من هنا لا بدَّ من إعدادِ محاضراتٍ وأنشطةٍ في المراكزِ الثقافية، والمجامعِ اللغوية، ووسائلِ الإعلامِ الدوليةِ والإقليميَّةِ والوطنية، وشبكاتِ

التواصلِ الاجتماعية؛ لتوعيةِ المثقفين والعاملينَ وأصحابِ الخبرة لفهم الواقع، واتخاذِ التدابيرِ اللازمةِ والسريعةِ لحمايتِهِ، وصونِه.

ولرجالِ الشرطةِ والجمارِكِ دورٌ كبير في مكافحةِ تهريبِ الممتلكاتِ الثقافيةِ والتراثية.

وتتضافرُ الجهودُ لتدريب العاملينَ لحمايةِ التراثِ أثناءَ النزاعِ وبعَدهُ، وذلك بإقامة دوراتٍ يشرفُ عليها مختصونَ من منظماتٍ محليةٍ ومجتمعٍ مدني.

ومن الضروريِّ العملُ الدؤوبُ على التخطيطِ لمراقبةِ التراثِ الثقافيِّ في سوريةَ من الجهاتِ المعنيَّةِ بصونِ هذا التراثِ كمنظمةِ اليونسكو التي انطلقتْ بمشروعِها الأولِ في الأولِ من آذار عام أربعةَ عشر وألفين (٢٠١٤) ليستمرَ ثلاثَ سنواتٍ.

والمخطوطاتُ الأصلية إرثٌ عظيمٌ من الأجدادِ الذين انكبُّوا على العمل في التأليفِ والتصنيفِ والإبداعِ خلالَ زمنٍ طويلٍ ليقدِّموا إلينا ثمرةَ نتاجِهم الفكريِّ الذي يُعَدُّ كنزاً ثميناً.

يجدر بنا أن نحتفيَ بهذا الكنز؛ وذلك بالمحافظة عليه من أيدي العابثين.

وعلى المكتبات التي تقتني هذه المخطوطاتِ الثمينةَ أن تقومَ بالمحافظةِ عليها؛ وذلك بتعقيمِها، وترميمِها، وتجليدِها، ووضعِها في ظروفٍ مُناخيةٍ مناسبةٍ بدرجة حرارة (١٨) مئوية، ودرجة رطوبة من (٥٥) إلى (٦٠) درجة مئوية.

على أمناءِ المستودعاتِ أن يضعوها على رفوفٍ معدنيةٍ بشكل عموديٍّ منتظم، وعليهم أن يقوموا بإجراءاتٍ لإرسالها إلى المختصين بتعقيمِها، وترميمِها، وتجليدِها؛ بغيةَ المحافظةِ عليها من التلفِ والفطرياتِ والحشراتِ والأَرضَةِ التي قد تؤثر فيها.

ولا بدَّ من إعدادِ خبراء بترميمِ وتعقيمِ وتجليدِ المخطوطات من طريق اتِّباعِ دوراتٍ متتاليةٍ يشرف عليها مختصون.

ولعلَّ أجهزةَ إطفاءِ الحريقِ من الأشياءِ الضروريةِ التي ينبغي أن تكونَ قريبةً من المستودعاتِ عند نشوبِ أيِّ حريق.

على العاملين في مجالِ المخطوطاتِ الاعتناءُ بأرشفتِها ضمنَ قوائمَ أو سجلاتٍ لتقييدِها. ويجدر بهم الاهتمامُ بفهرستِها وتصنيفِها، وإعدادِ فهارسٍ مطبوعة وإلكترونية لها. وقد قامتْ مديريةُ المخطوطاتِ بإعداد ما ينيف عن أربعين فِهرساً في موضوعاتٍ متنوعة.

وقام العاملون بمديرية التصوير بتصويرها بأشكال متعددة منها:

على مصغراتٍ فلميةٍ (مكروفلم): (قرص فلمي)، (مكروفيش): (شرائح فلمية) ولا بدَّ من تعهدِها بالتهويةِ المستمرةِ ضمنَ أدراجِها.

ويجري تصويرُها على أقراصٍ مدمجةٍ وأقراصٍ صلبة لرقمنتها.

كلُّ هذه الإجراءاتِ لخدمةِ الباحثين دونَ الاطِّلاعِ على النسخِ الأصليةِ للمخطوطات؛ وذلك للحفاظِ عليها من التكسرِ والتلف.

ومن المقترحاتِ لصونها زمنَ الحربِ نقلُها إلى مكانٍ سريٍّ آمنٍ تتوفر فيه الشروطُ المناسبةُ الآنفةُ الذكر، والمحافظةُ عليها أثناءَ نقلِها.

ومن الضروريِّ اتِّخاذُ الإجراءاتِ الاحتياطيةِ لحمايتِها في المعارضِ الدائمةِ والموسميّة؛ وذلك بوضعِها ضمنَ خزائنَ زجاجيةٍ مغلقةٍ بإحكام ومغطَّاة، يشرفُ عليها عاملون أكفياء.

أما بالنسبةِ للكتبِ النادرةِ فهي كتبٌ مطبوعة تحتلُّ مساحةً مهمةً بعد النُسخِ الخطية؛ وذلك لكونها فريدةً وقديمة، ولها مزايا متعددةٌ اكتسبتْها من الندرة، كالقياسِ الكبيرِ أو توقيعاتِ أحدِ الوزراءِ أو السلاطين في عهودٍ سابقة.

ولِما للكتبِ النَّادرةِ من أهميّةٍ كبيرةٍ قمنا بتصويرِها وتعقيمِها وترميمِها لصيانتِها.

وأخيراً أتقدمُ بجزيلِ الشكرِ لكلِّ مَنْ ساهمَ في صونِ وحمايةِ هذا التراثِ الغالي ولِمَنْ عملَ على دعوتِنا لهذه الندوة المهمّةِ لعلَّ هذا الحاضرَ يحتضنُ ماضياً عريقاً جديراً بالمحافظةِ عليه.

* * *

رؤية في آلية الحفاظ على المخطوطات وصيانتها

مأمون الصاغرجي(*)

أحدثكم في هذه العجالة عن ملامح في آلية الحفاظ على المخطوطات وصيانتها:

لمحة تاريخية:

دأب العرب والمسلمون في سالف أيامهم على العناية بما تخطه أقلامهم على العُسب والرِّقاع، وقطع الأديم، وعظام الأكتاف، حفاظًا على ما جاء به الرسول ﷺ، من قرآن منزل. وبعد انقطاع الوحي بوفاته ﷺ، جُمع القرآن على عهد أبي بكر، ثم على عهد عثمان، رضي الله عنهما، من تلك الأدوات البدائية آنذاك، والتفت المسلمون إلى رواية أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأحواله، التي كان عليها في السفر والحضر والغزوات، وما فسّره لهم من كتاب الله العزيز، الذي يتعبدون به ربهم، عن طريق الرواية الشفوية السائدة في مجتمع القرن الأول الهجري. ولما انتشر الإسلام في العهود اللاحقة شرقًا وغربًا، ودخل الناس في الإسلام أفواجًا، عُربُهم وعجمُهم، لجؤوا إلى تفسير آيات الكتاب، وتعلُّم اللسان العربي، فدُونتْ الروايات الشفوية ونُقلت من الأدوات البدائية، ثم إلى ورق البردي فيما بعد، وظهر علماء العربية، وأضحت الشعوب الأعجمية، تتعلم العربية، فنشأت رواية الشعر الذي اتُّخذ دليلًا على التفسيرات

(*) باحث في التراث العربي.

اللغوية للقرآن، ونشأ عن ذلك جمع الشعر الجاهلي، وجمع لغة الأعراب، في وصف السحاب والمطر والإبل والصيد وغير ذلك، ومن ثَمَّ أمست هذه المجموعات نواة المعجمات اللغوية. ومع تعاقب الأيام والسنين، صار العلماء يكتبون التواريخ للخلفاء والملوك، ثم تحولت هذه المحفوظات المدونة، إلى أوراق مكتوبة وكتبٍ مخطوطة، بعد أن توافر عددها وتكاثر تعدادها من جيل إلى جيل. وبخاصّة عندما بُدئ بنقل آداب اليونان والرومان وعلومهم وفلسفاتهم إلى اللغة العربية، في عصر الرشيد والمأمون، وهو ما يسمَّى بعصر الترجمة، إذْ أنشآ دار التعريب، التي سُمِّيت دار الحكمة فيما بعد، وكان عدد الخزائن فيها – على قول المقريزي – نحو أربعين خزانة، تتَّسع الواحدة منها لِثمانية عشر ألف كتاب، وبلغ عدد الكتب في مكتبة دار العلم في زمن الدولة الفاطمية نحو مئتي ألف مجلد.

وعلى أهمية هذه الثروة القومية الكبيرة، التي خلَّفها أجدادنا والتي تكوِّن أكبر منتوج حضاري عرفته البشرية في ذلك الوقت، فإنَّ الحفاظ عليها اليوم والعناية بها وحمايتها من المخاطر الداخلية والخارجية ليمثِّل هدفاً مهمًّا في أولويات المجتمع العربي الحديث، وتاريخه العلمي والثقافي. إذْ يمتدُّ تاريخها في أطول حقب متتابعة منذ القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) إلى تاريخ دخول الطباعة إلى عالمنا العربي أوائلَ القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي)، يعني نحو اثني عشر قرنًا، امتدّت في توارث المخطوط جيلًا بعد جيل، مع ازدياد أعداد المخطوطات، في كل طبقة من طبقات الناس.

الطرق التقليدية في حفظ المخطوط:

إن مؤسِّسي المكتبات الكبيرة الأوائل لم يَدُر في خَلَدهم ما يكتنف

الكتب التي جمعوها من مخاطر قد تعصف بها في وقت من الأوقات، ومع توافر أعداد الكتب فيها لم يجد القَيِّمون عليها في ذلك الوقت سوى أدوات الحفظ البدائية من تجليد وتزيين وحفظ على الرفوف.

خطر العوامل الداخلية البيولوجية:

والواقع أننا نجد المكتبات بعامة يكتنفها خطران كبيران، يعصفان بها: أولهما داخلي وهي عوامل عضوية، نظرًا لكون المخطوطات تتكون من أصل عضوي، فهي قابلة للتحلُّل والفساد وانتشار الحشرات بداخلها مع مرور الزمن، وعندما لا تتوفر لها الشروط الفنية الملائمة، والتي تجعل تلك الكائنات بإمكانها إحداث تشوهات في الورق والأغلفة واللواصق. وقد تكفل بالقضاءِ عليها في العصر الحديث تدابيرُ يقوم بها المتخصِّصون في معالجة المخطوطات وترميمها، فيتحكمون بعوامل الطبيعة، من درجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، ومقادير الأشعة الضوئية، وغيرها مما قامت بها النظريات الحديثة للحفاظ عليها. وهذا لن أتعرض له في هذه العجالة، وأترك ذلك للفنيين المتخصصين.

خطر العوامل الخارجية:

وما أظن أن ثمة مكتبة تراثية اليوم تحتوي مثل هذه النفائس، ولا تتوفّر فيها الشروط الفنية، ولكني أنبِّه هنا على الأخطار التي تحيط بثرواتنا القومية، من كلِّ حدَب وصوب؛ من ذلك الاضطرابات السياسية التي تعصف بالدول، وما ينشأ عنها من تدمير لثروات البلاد، ونهب للمراكز الحضارية فيها، كما سجله التاريخ لنا على أيدي المغول والتتار، وتتمثل هذه الأخطار بالأمور التالية:

أولها الدمار الذي يلحق بالممتلكات والدوائر الرسمية في الحروب والفتن المتكررة، التي مرت على العالم الإسلامي، من مثل فاجعة بغداد أيام الغزو المغولي، وسقوط غرناطة، ثم السرقات المتتالية في أثناء الحروب الصليبية، وبعدها في عصر الاستعمار الحديث. إذْ قضوا على آثار العلماء وما بذلوا في حياتهم من جهود ضخمة في الجمع والتدوين، والدرس والبحث.

وإني لأذكرُ أيامَ حرب العاشر من رمضان عام ١٣٩٣هـ التي شنتها سورية ومصر على العدو الصهيوني، أو ما يسمَّى بحرب السادس من تشرين سنة ١٩٧٣م إذ كانت مخطوطات دار الكتب الظاهرية يومَها موجودةً في دار الكتب الظاهرية اليوم في باب البريد، التابعة لمجمع اللغة العربية بدمشق، وذلك قبل نقلها إلى مكتبة الأسد الوطنية، وقد كانت إدارة المجمع قد أخذت تدابير أولية منذ زمن بعيد، وذلك بتصوير المخطوطات التي يناهز عددها ثلاثة عشر ألفَ مخطوط على المكرو فِلْم، ووضعت الأفلام في خزائن خشبية في بناء المجمع (المدرسة العادلية)، ووضعت المخطوطات الأصلية بصناديق حديدية محكمة، ويقرب عددها من مئة صندوق، ورُحِّلت جميعها إلى المتحف الوطني، حيث المكان الآمن لها في ذلك الوقت. وكانت طلبات التصوير تُوفَّر آنذاك عن طريق المكروفِلْم في المجمع.

ثاني هذه المخاطر: الإهمال بسبب غياب الوعي بأهمية المخطوط وما يلحقه من الورثة الجاهلين بقيمته. وغالبًا ما يكون ذلك في البيوت والمنازل الخاصة، فلا يعتنون بالحفاظ عليه وترميمه إن اقتضى الأمر.

ثالث هذه المخاطر، وهو من أشدها تأثيرًا في العصر الحديث: هو إحاطة بعض المكتبات بحراسة شديدة كاذبة، تقف حائلًا في وجه العلماء والباحثين وطلبة العلم، بحيث يستحيل الوصول إليها، إلا بطرق ملتوية،

يسلكها بعضُ الموظفين المَكاتبيِّين الموكول إليهم حفظُها، طمعًا بالكسب غير المشروع، وطمسًا لمأثرة حضارية راقية، يفتخر بها العرب والمسلمون، ألا وهي الوقف الإسلامي الذي يسعى إلى ترسيخ أسس التعاون بين أفراد المجتمع، إذ الوقفُ يُحبَس للأجيال القادمة لتنتفع به، وهو المعبَّر عنه بالصدقة الجارية. فمعظم المخطوطات إنْ هي إلا وقفٌ حبَسها أصحابُها في المساجد والزوايا والرُّبُط على العلماء وطلاب العلم، كما يحبِسون المصاحف ليقرأها عامة الناس، وينتفعوا بما فيها. ثم نُقلت هذه المخطوطات إلى المكتبات الوطنية الكبيرة لحفظها وترميمها وصيانتها.

ويتذرّع بعض القائمين على خزائن المخطوطات بحجج واهية، كي لا تُتخذَ سلعةً للتجارة. فيتشددون في شروط الحصول على المخطوط، ليقفوا حائلًا بينه وبين مستحقيه، أفلا يعلمون أن عملهم هذا هو الذي يدفع الناس إلى التجارة وسلوك الطرق الجائرة، بعامل العرض والطلب، فلو يدري التاجر أن المخطوط مبذول لكل الناس من غير عناء، لأحجم، ولبارت تجارته بالخسران.

وللقضاء على هذه الظاهرة، والفساد الذي نشأ عنها، سعى كثير من القائمين على المؤسسات الخيرية إلى جعل المخطوط مبذولًا لطالبه من أهل العلم، عملًا بشروط الوقف. وقد ساعدهم على ذلك التقدُّم التقني الذي انتشر في أصقاع المعمورة، وغزا ميادين العلوم والصناعات والتجارات، وأضحى أداةً طيعة يستعملها أفراد المجتمع بشرائحه كافة. فإذا ما حفظت المخطوطات في أماكنها، الحائزة الشروطَ الفنية، وصُوِّرت بالصور الملونة الدقيقة، ثم وضعت على الشابكة، فأصبحت على طرَف الثمام، يتناولها الرائي يكبّرها أو يصغِّرها حسب حاجته.

وأضرب لكم أمثلة عن بعض تلك المواقع على الشابكة، التي هيأت

أُطُرها الفنية، وقامت بتصوير المخطوطات، ووضعتها على الشابكة لمن شاء أن يقتنيها من غير مقابل، وعملًا بالوقف الذي أشرت إليه، من هذه المواقع:

● هذا موقع مكتبة المحجة على الشابكة، السهم الأيمن يشير إلى قسم المخطوطات، والسهم الأيسر يشير إلى عنوان مجاميع المدرسة العمرية وهي مصورة عن مخطوطات الظاهرية.

● وهنا موقع المحجة نفسه ولكن هنا يجري اختيار قطعة من تاريخ ابن عساكر والسهم الأسفل يشير إلى التحميل لمن يريد أن يأخذ منه نسخة بالمجان.

● وهنا موقع مركز (وَدُود) للمخطوطات للبحث عن مخطوط وتحميله.

● وهنا موقع جامعة الملك سعود، والسهم يشير في الأعلى إلى البحث عن المخطوطة.

● وهنا موقع جامع المخطوطات الإسلامية يشير العمود الأيمن إلى رقم المخطوط، والأيسر إلى تصفح المخطوطة قبل تحميلها.

● وهنا الموقع السابق نفسه وفيه قسم من مخطوطات دار الكتب الظاهرية، ويسعى الموقع لاستكمال جميع مقتنيات الظاهرية من المخطوطات.

● وهنا موقع (دونكم إرثكم) يشير إلى قائمة متجددة بمعنى أن المواقع المذكورة ما تزال تهيئ مخطوطات للعرض كل يوم، لتستكمل ما لديها من مخطوطات ووضعها في الموقع المشار إليه.

● وهذه أسماء مواقع المراكز العربية للمخطوطات وروابطها التي يدلُّ عليها الموقع السابق، وقد وصل عددها إلى اثنين وعشرين موقعًا.

● وهذه أسماء مواقع المراكز الأجنبية للمخطوطات وروابطها التي

يدلُّ عليها الموقع السابق، وقد وصل عددها إلى أربعة وخمسين موقعًا.

ربما تكون معظم هذه المراكز المذكورة لم تَستكمِل بعد وضع كل ما لديها من مخطوطات على مواقعها، ولكنها تسعى لإتمام هذا المشروع الضخم وهو إكمال ما تبقَّى لديها من مخطوطات لعرضها فيها.

وختامًا أقول: إنَّ رؤية المخطوط على الحاسوب فيما أظن، أجدى وأنفع من رؤيته البصرية الحقيقية، وخاصة إذا كان مصوَّرًا بتقنية عالية الجودة، وبالألوان الطبيعية، وذلك لما يتمتع به الحاسوب من قدرة على التحكم بأوضاع الصورة، من تكبير وتصغير وقلب ودوران، وغير ذلك، مما ييسِّرُ على المحقق ما يجد من صعوبة في قراءة الكلام الدقيق المرصوص بعضه إلى بعض.

أرجو أن أكون بهذه النظرة قد ساهمت في تقديم رؤية تحافظ على المخطوط من جهة، وتجعله ميسَّرًا لكل عالم، أو طالب علم، وإن انتشاره على الشابكة، هو من أهم الوسائل الناجعة في الحفاظ عليه. وكما قيل: العلم يزكو على الإنفاق.

والسلام عليكم.

* * *

أنباءٌ مجمعيةٌ وثقافية

حفل استقبال
الأستاذ الدكتور عبد الناصر عساف
عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية في جلسته التاسعة عشرة المنعقدة (في ٢٦/ ١/ ١٤٣٨هـ- ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٦م) الأستاذ الدكتور عبد الناصر عساف عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية، ليشغل الكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ الشيخ سليم البخاري، وصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم (٣٧٤) في (١٥/ ١٢/ ٢٠١٦م) بتعيينه.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الدكتور عبد الناصر عساف في جلسة علنية عقدها (يوم الأربعاء ١٢/ ٤/ ٢٠١٧م) في قاعة المحاضرات في المجمع، حضرها نخبة من رجال العلم والسياسة والأدب وأصدقاء المحتفى به.

افتتح الجلسة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع بكلمة موجزة رحب فيها بالسادة الحضور، مهنئاً الزميل المجمعي الجديد، مباركاً انضمامه إلى مجمع الخالدين.

ثم ألقى الأستاذ مروان البواب كلمته التي تحدث فيها عن الزميل المحتفى به، ونوه بمكانته العلمية والخلقية.

تقدم بعد ذلك الأستاذ الدكتور عبد الناصر عساف، وألقى كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ الشيخ سليم البخاري.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق
في حفل استقبال الدكتور عبد الناصر عساف

أيها السيدات والسادة

تحية طيبة لمن لَبَّى دعوتنا وحضر ليشاركنا في استقبال عضو عامل جديد، يدخل مجمعنا محمولاً على إنتاجه العلمي الغزير في الصرف والنحو والأساليب اللغوية المعاصرة. هو الدكتور عبد الناصر عساف الذي تخرّج في جامعة دمشق ونال الدكتوراه فيها، ينضم إلى مؤسسة ظهرت إلى الوجود قبل ما يقارب قرناً من الزمان، وكانت أول مجمع لغوي في العالم العربي، أنشئ للحفاظ على اللغة، وإعادتها إلى وجدان أبنائها، وقد باشر مؤسسوه بكل جدّ الانفتاح على الحداثة المعاصرة بعد انطلاق النهضة العربية المعاصرة التي خلفها عهد التنوير الأوربي.

ونحن اليوم نعتقد أن مهام المجمع ترتكز على فهم دقائق اللغة العربية التي يمكن أن يُعينَنا التعمّقُ فيها على السير في مهمتنا الكبرى، وهي إيصال لغتنا إلى احتواء توطين العلوم في طيّات مخزونها اللغوي الفريد، لنُعيد إليها موقعها العالمي في حداثة سريعة التطور.

إنّ اللغة العربية لغةٌ عريقة قديمة، وليست لغةً عتيقةً حملتها إلينا

عواصف التاريخ بعد أن عطّلت مكونات نظامها، بل إنها لغة مازال نظامها مرتبطاً بالمحرّكات الأصلية التي تسيّر اللغات: وهي دقة التوصيف الذهني للألفاظ، وحسن سبك العبارة، وصولاً إلى الفهم، بالاعتماد على مخزون لغوي يكاد يكون لامتناهياً في تنوعه وشموليته. ذلك أن هناك عدداً من اللغات الأوربية قد تشرّبت عناصر لغةٍ عالمية طاغية في زمان ما، واستفادت ممّا يحمل المعنى من أجزائها، لإدخاله في انفتاحها اللغوي، معتمدةً خصائصها الإلصاقية لتُعيد تركيب ألفاظها بإدماج العناصر الغريبة في منطلقات ألفاظها، وهي السوابق واللواحق اللاتينية والإغريقية، التي أصبحت أجزاؤها مكوّناتٍ مستقرةً لتوضيح معنى الألفاظ في اللغات الأوربية. وأما اللغة العربية، كما حللها اللغويون الأُوَل كسيبويه والخليل بن أحمد، فهي لغة يحكمها المنطق بأدق قوانينه، وهي علميةُ التكوين باستنادها إلى الأسس الرياضية الواضحة في إبدال الحروف وتصريف الأفعال.

وهذا ما يجعلنا نرفض أقوال من يُصرّون على أن لغتنا قد شاخت، وأن نحوَها يَحول دون تمكّنها من التجاوب مع متطلبات الحداثة، ويدّعون أنها «وأقتبس» ليست قادرةً على تلبية حاجاتنا اليَوْمية الموصوفة بمصطلحاتٍ غريبة عنها، وذلك إضافة إلى استفسار آخر، «وهو مدى تأثير اللغة في العقل والسلوك البشري»، وهو تساؤل يجب عكسُه قائلين: ما هو مدى تأثير العقل في اللغة؟.

وقد وصل بعضهم إلى تشبيه اللغة العربية اليوم بلغة شكسبير، التي يقولون إنها أصبحت لغةً لا يفهمها أحدٌ، ولكن أين إنكليزية القرون الوسطى من لغةٍ تغوص جذورها في أعماق التاريخ، وما زال شعرُها في جاهليتها تتلألأ فيه نفحات المشاعر الإنسانية، وصفحات العزّة والكرامة؟.

وهي لغة استحوذت في طيّات نظامها اللغوي على منطلقات العلوم التجريبية، واللبنات القاعدية لِما وصل إلى أوربا من فكر فلسفي وتعبير رياضي، حتى تمكنت من استنباط علومها من تلك الكتب العربية التي تُرجمت إلى اللغات الأوربية.

لا بد لنا من القول إن مثل هذه الترّهات لا تمسّ اللغة العربية في حقائقها كما نعيشها، ونفخر بانتمائنا بواسطتها إلى حضارةٍ تجاوبت مع متطلبات العقل البشري، باعتمادها لغةً متكاملةً يحترم نَحْوُها متطلباتِ العقل الإنساني، وقد عرفتم تلك التساؤلات التي دارت بين مدارس النحو حول ضرورة توضيح العامل في الوظائف النحوية.

لذا يجب علينا التصدي لما يحيط بنا من آراء انهزامية لا تكتفي بمهاجمة لغتنا، بل ترتمي في أحضان لغاتٍ لا تعرف من موازينها إلا القليل، وتبقى مغترّة ببريقٍ علمي هو إنتاج الفكر الإنساني، وليس إنتاج اللغات الأجنبية.

إنّ مجمعنا يرفض أن تُحشر أعماله فيما يسمّونه تطوير اللغة العربية، الذي يمكن اختزاله بأنه تشويهٌ لنحوِها وإسقاطٌ لما تتميز به من دقائق تدفع اللبس عن الخطاب، كَنُون النسوة مثلاً، أو ما تختص به من وضوحِ إعرابٍ يحدّد العلاقة بين الألفاظ، وسهولةِ الاشتقاق المفتوح على توليد الألفاظ الشارحة للمعاني برغم تعدد مجالات استعمالها.

إنّ مسارنا هو مسارٌ جادٌ لتحديث اللغة العربية، أي فتح الأبواب المؤدية إلى تفهّمها لروح العصر، برغم ما يعتري تلك الروح من صرعات وهزّات، ليَسهل تطابق لغتنا مع منتجات الحداثة العلمية والتقنية، التي ما فتئت تُغرق الأسواق والأذهان بما تُدخله إلى حياتنا اليومية.

إنّ هذا التحديث هو ما تهدف إليه المعجمات العلمية التي أصدرها المجمع، وذلك بأن تُتيحَ لأبنائنا أن يتخاطبوا في مجال اختصاصهم بلغة عربية صحيحة معبّرة، في سياق مناقشاتهم العلمية، لعلّ تلك الحوارات تنتهي إلى مشاركةٍ عملية في تقدم العلوم.

إنّ ما تتميز به لغتنا من قوالبَ بِنيويةٍ وارتباطٍ وثيق بين اللفظ والمعنى، وقِلّةِ ما فيها من مقترضات لسانية طوّعَتها بفضل خصائصها، يجعلها لُغةً فريدة في عالم اليوم، لا تُعكّر صفاءها شوائبُ تعطّل تطابقها مع نواظم الشعر، ودقة التعبير، فهي من أوسع اللغات العالمية إن لم تكن أوسعها.

أيها الحفل الكريم:

يعتقد الكثيرون أنّ مهمة مجمع اللغة العربية تقتصر على متابعة استعمال اللغة للتنبيه على ما قد يطرأ على حسن انتقاء ألفاظها، وأهم من كل ذلك وما يعتقدونه مُلِحّاً هو تيسير قواعد النحو التي يعتبرونها صارمةً يصعب فهمُها، وأنّ على المجمعيين إيجاد السبل لتسهيلها. لذا فهم يتصورون المجمعيين مُنكَبّين على مناقشات في النحو والصرف، وانتقاءٍ للأساليب، وتصنيفٍ للألفاظ حسب سُلّمٍ متدرج يُحدد موقعاً لكل لفظة، ولكل تعبير، في مراتب الفصاحة.

وحقيقة الأمر أنّ الإنتاج الأكبر لمجمعنا هو مجموع تلك المعاجم العلمية التي أصدرها المجمع في السنوات العشر الأخيرة، وهي تنضوي تحت لواء مشروعٍ عملي: توحيدُ المصطلحات العلمية في التدريس الجامعي، ما دامت سورية هي البلد العربي الوحيد المُصرّ على تدريس جميع العلوم باللغة العربية، وذلك في جامعات خمس رسمية، وهو مشروعٌ فرضته مشكلات حقيقية، بعد ظهور خلافات حادّة حين نَقلِ المصطلحات

العلمية الحديثة إلى اللغة العربية، إذ ظهرت مصطلحات جديدة يريد أصحابُها فرضَها، مستندين إلى فهمهم لها من خلال لغة البلاد التي أوفدوا إليها، إذ دخل تأثير الألمانية إلى جانب الروسية، وإلى جانب الفرنسية والإنكليزية، وقامت مشادات حقيقية لم يمكن حلُّها إلا عن طريق لجان أَلَّفها المجمع من أفراد يَعرِضون ميولهم على لجنة تضم جميع النزعات، ليخلُصوا إلى إيجاد مقابلٍ عربي واضحٍ لكل مصطلح.

وقد أصدر مجمعنا المعاجم العلمية في الموضوعات التالية:

«الكيمياء، الفيزياء، علوم الحياة الحيوانية، علوم الحياة النباتية الزراعة، الجيولوجيا، المعلوماتية، الرياضيات، الاستشعار عن بعد»، ونحن في طريقنا إلى إصدار معجم للعلوم البيئية، واستكمال معجم ألفاظ الحضارة.

وأما المعجم الموحد للمصطلحات الطبية، فقد سبق اتحادُ الأطباء العرب مجمعَنا في إصداره في السبعينيات من القرن الماضي عن طريق لجنة يرأسها أستاذنا الكبير الدكتور حسني سبح رحمه الله، وكان الرئيسَ الرابع لمجمعنا، وساهمنا فيها أنا وزميلي هيثم الخياط سنواتٍ طويلة قبل دخولنا إلى المجمع، إلى جانب مجمعيين أجلّاء من مصر والعراق.

وتقوم اليوم لجنةُ المعاجم بتحضير معجمٍ دلالي مُبتكر هو معجم دلالات الأبنية اللغوية، نحاول فيه تصنيفَ الألفاظ في جميع مدلولاتها، إثباتاً لما تتمتع به اللغة العربية من ثروةٍ لفظية تظهر في النصوص بالمعنى الذي يفرضه السياق، دون أن يدعو ذلك إلى أي التباس، بعد الاطّلاع على المجالات المختلفة التي يمكن استعمال تلك اللفظة فيها بالمعنى المطلوب (أبواب صفات الإنسان والحيوان والنبات والمشاعر والعواطف والأمراض والأدوية...).

ولا بد من ذكر تلك اللجان المختصة بمصطلحات الإعلام، وطب

الأسنان الحديث، وعلوم البيئة، التي لم تصل بعد إلى إتمام أعمالها، وأما الدراسات اللغوية الدقيقة التي تقوم بها لجنة اللغة العربية وعلومها، من تصحيحٍ للأخطاء الشائعة أو دراسةٍ للألفاظ والأساليب الجديدة، فهي المنطلق لما يقيمه المجمع من ندوات تُعرض فيها قراراتها على خبراء يُدعون للمشاركة في أعمال الندوة وينتهي الأمر بها بعرضها على مؤتمرات اتحاد المجامع العربية لإيصالها إلى إقرار نهائي.

أيها الحفل الكريم:

لا يسعنا إلا أن نشكر اللغويين من أعضاء المجمع لمشاركتهم في أعمال اللجان العلمية، لمساعدة المختصين على انتقاء أفضل المقابلات للمصطلحات المعروضة، بعد أن يُقدّم المختصون تفسيراً واضحاً لما يتضمنه المصطلح الأجنبي من معانٍ في اللغة الأجنبية.

ونحن نرحب بالدكتور عبد الناصر عساف شريكاً في اللجان العلمية لنستفيد من خبراته.

وقد طلبنا إلى الأستاذ مروان البواب عضو المجمع أن يبسط أمامكم السيرة العلمية لزميلنا الجديد، الذي سيتكلّم عن المجمعيّ المؤسّس الشيخ سليم البخاري فليتفضل.

كلمة الأستاذ مروان البواب
في حفل استقبال الدكتور عبد الناصر عساف

أيها السيدات والسادة

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية

أيها السادةُ أعضاءُ المجمع الموقَّرون

أيها الحضورُ الكريم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أرحِّب بكم أجملَ ترحيبٍ وأجزلَه، وأشكر لكم تفضلَكم بالمشاركة في حفل استقبال زميلنا الجديد الدكتور عبد الناصر عساف عضوًا عاملاً في مجمع اللغة العربية بدمشق.

أيها الحفلُ الكريم:

مع طلوع فجر هذا اليوم يبلغ عمرُ مجمعنا في التقويم الميلادي سبعًا وتسعين سنةً وعَشَرَةَ أشهرٍ وأربعةَ أيام، ويبلغ عمرُه في التقويم الهجري مئةَ سنةٍ وثمانيةَ أشهرٍ وثمانيةَ أيام.

وقد مرت هذه الأعوامُ العديدة والأزمنة المديدة من عمر هذا المجمع العريق وهو يقدِّم العطاء تلو العطاء، والإحسان إثر الإحسان. وكان من أول عطاءاته وأعظمِها شأنًا وأرفعِها سناء أن أزاح اللغةَ التركيةَ ومحا آثارَها من ميادين العلم والتعليم والإدارة والحياة العامة في سورية، وأعاد اللغةَ العربية

ببهائها ورونقها إلى هذه الميادين، إيمانًا منه بأن كِيانَ الأمة إنما هو لسانُها الناطق، وأن الأمةَ ولسانَها توأمان لا ينفصلان؛ يرتفعان معًا ويَتَّضعان معًا.

ثم تتالت تلك العطاءاتُ وتتابعت، بفضل جهود أعضاء المجمع الذين تعاقبوا جيلاً بعد جيل على حَمْل رسالته، يَتبارَوْن في خدمة العربية، لا يَنُون ولا يَفتُرون، إذا قضى منهم سيِّدٌ خَلَفَه سيِّد، يَسيرون على الجادة، يؤدُّون حقَّ الأمانة التي حملوها.

ولئن أسينا على فراق مَن زاملناه في مسيرتنا منهم، إننا لنسعد بمن ينضمُّ إلينا يَشدُّ أزرنا ويقوِّي عزيمتَنا، ويساعدُنا على الاضطلاع بواجباتنا تُجاهَ لغتنا العربية الشريفة.

أيها الحفل الكريم:

نرحِّب اليومَ بالدكتور عبد الناصر عساف زميلاً جديدًا في مجمعنا، وهو أستاذٌ جامعيٌّ قدير، وباحثٌ مدقِّق خبير، نَجَّذته التجارب، وغَذَّته الحكمة، فُطِرَ على حب العربية ففتح لسحرِها وعبقريتِها قلبَه وعقلَه، فملك ناصيتَها، وتَضَلَّعَ من نحوها وصرفها، ومَهَر في أدبها وبلاغتها. دلَّ على ذلك بواكيرُ أعماله من مؤلفاتٍ ومحاضراتٍ وبحوثٍ ودراسات.

والأملُ معقودٌ على أن يكون انضمامُه إلى أسرة المجمع سندًا قويًّا لمسيرتها، رافعًا لرايتها، ونصيرًا يشدّ من أزرها ليستدّ ساعدها، يُكمِّلُ ما بدأه سابقوه ليتعاظمَ بناء المجمع الشامخ وتزدادَ دعائمُه ثباتًا ورسوخًا، فتزدادَ العربيةُ تألُّقًا ووضاءةً وإشراقًا. هذه اللغة المُبينة التي اتسمتْ بسَعتها وطواعيتها وأصالتها وعبقريتها وسحرها؛ هي لسان العرب الناطق، أوسعُ من القاموس المحيط، وأغنى من تاج العروس، وأكبرُ من خزانة الأدب، وأرسخُ من أساس البلاغة، وأحلى من قَطْر النَّدى، وأجملُ من شُذور الذهب.

بيانُها سِحْر، وفصاحتها سِرّ، خصائصُها عجيبة، ومزاياها فريدة، سهلةُ الجري على الألسنة، عذبةُ الوقْع على الأسماع، ما لحسنها نهاية، ولا يُدرَك لجمالها غاية.

أيها الحفل الكريم:

وُكِل إليَّ أن أعرِّف بزميلنا الكريم، كما جرت بذلك سُنَّةُ المجمع، وأن أسرُدَ طَرَفًا من سيرته وآثاره، وهي كما سترون تُعرب عن محامد فضله ومآثر نبله، وتشهد بكريم خصاله وشمائله، وغزارة علمه.

وُلِد الدكتور عبد الناصر عساف في قرية الحَراك من أعمال درعا في ٢٠/ ٣/ ١٩٦٥. فهو بذلك أصغر أعضاء المجمع الحاليين سِنًّا؛ إذ إنه لم يتجاوز الثانيةَ والخمسين. وفي سِنِّ الدكتور عبد الناصر هذه ردٌّ على أولئك المشنِّعين الذين لا يفتؤون يتَّهمون المجمعَ بأنه لا يختارُ لعضويتِهِ إلا الذين بلغوا من الكِبَر عتيًّا، من الذين تجاوزوا الستين والسبعين. وفي الشواهدِ التي سأسرُدها على حضراتكم حجةٌ قاطعةٌ تدحض زَعْم هؤلاء المشنِّعين وتُبْطِل فِرْيَتَهم؛

فالعلامةُ عز الدين التنوخي، وهو أحد مؤسسي المجمع، كان أصغرَ أعضاءِ المجمع وقتَئذٍ، وكان في الثلاثين من عمره.

والشاعرُ خليل مردم بك، أُنتُخب عضوًا في المجمع وهو في الثلاثين، وصار رئيسًا للمجمع وهو في الثامنة والخمسين.

والطبيبُ الموسوعيّ مرشد خاطر، كان في الحادية والثلاثين.

والدكتور جميل صليبا، كان في الأربعين.

والأديبُ المحقِّق محمد سليم الجندي، كان في الثانية والأربعين.

والعلامة اللغوي عبد القادر المبارك، والدُ أستاذِنا الدكتور مازن المبارك، كان في الثالثة والأربعين.

والأستاذ الرئيس محمد كرد علي، وهو أولُ رئيس للمجمع، كان في الثالثة والأربعين أيضًا.

والأمير مصطفى الشهابي، كان في الثالثة والأربعين أيضًا.

والمؤرِّخ رشيد بقدونس، كان في الرابعة والأربعين.

والطبيب حسني سبح، وهو أحد رؤساء المجمع، كان في الخامسة والأربعين.

والمفكِّر فارس الخوري، كان في السادسة والأربعين.

والشاعر أديب التقي، كان في الثامنة والأربعين.

ولولا خشيةُ الإطالةِ لتابعتُ سَرْدَ أسماءِ جميعِ الذين صاروا أعضاءً في المجمع وكانوا في سِنِّ الدكتور عبد الناصر، ولكني اكتفيتُ بذكر الأعلام الذين لم يبلغوا الخمسين.

وأعودُ لأتابعَ سيرةَ أخينا الزميل الجديد، فأقول:

في مدارس قريةِ الحراك تلقَّى الفتى عبد الناصر عساف تعليمَه بمراحلِهِ المختلفة، وكان شَغَفُه بالعلم وأدواتِهِ شديدًا لدرجةِ أنه حَبَسَهُ عن الناس وصَرَفَهُ عن كثيرٍ من ملاهي الحياة وشؤونِها، بل إنه أَنْبَتَ بين جوانِحِهِ خُلُقَ العُزلة الذي أصبح صفةً ملازمةً له لا يكاد ينفكّ أحدُهما عن الآخر.

وفي تلك المدارس ذاق حلاوةَ طعمِ التفوّق، فكان متفوّقًا في سِنِيِّ دراسته جميعِها، ولم يخرج عن الثلاثة الأوائل إلا في الصف الثالث الثانوي. وفي تلك المدارس أيضًا تمكّن منه حبُّ العربية. نَبَتَ هذا الحبُّ ثمّ أخذ ينمو وينمو شيئًا فشيئًا، حتى أصبح هوًى مقيمًا استبدّ به استبدادًا جَعَلَهُ يُغيِّر منحَى دراسته الجامعية؛ فحين نال شهادةَ الثانوية العلمية سنةَ (١٩٨٣)، لم يَنضوِ فيما تُتيحه له شهادتُه العلميةُ يومَئذٍ كالهندسة الكهرَبائية

والميكانيكية والاقتصادِ والتجارةِ والحقوق، بل أصرّ على التسجيل في قسم اللغة العربية بجامعة دمشق، مُعْرضًا عمّا ألَحّ به عليه والدُه من إعادة الكرّة في الثانوية لنيل ما يُتيح له التسجيلَ في كلية الطبّ البشريّ.

وفي قسم اللغة العربية شقّ الطالبُ طريقَه في مرحلة الإجازة بِجِدٍّ ومواظبةٍ وحماسةٍ واقتدار، وكان من ثلّة المتفوّقين.

وفي سنة (١٩٨٨) عُيِّن معيدًا في النحو والصرف. حتى إذا فرغ من مرحلة دبلوم التخصّص، وأسلمَتْه الأيّام إلى مرحلة الماجستير، نَهضَ يُعِدّ رسالته: (شرح الشافية) لركن الدين الأَسْتَرَاباذِيّ.

وفي سنة (١٩٩٢) نال الباحثُ درجةَ الماجستير في النحو والصرف بمرتبة امتياز.

ثمّ أعدّ رسالةَ الدكتوراه في النحو والصرف التي تناول فيها (جهودَ ابنِ عطيّةَ الأندلسيِّ النحويّةَ والصّرفية).

ولا بأس في ذكرِ نُتَفٍ مِمَّا قاله بعضُ مناقشي الباحث في رسالته، وفيها ما يَشهد للباحث ولرسالته؛ فهذا الدكتور نبيل أبو عمشة يقدِّم لمناقشته بقوله: «أعرف الأخَ عبدَ الناصر باحثًا مُجدًّا، يسعى إلى خدمة العربية بما أوتي من مقدرةٍ واسعة على البحث والاجتهاد. ولا ريب أنّ هذا السعيَ ترك أثرًا واضحًا في تكوينه العلميّ، فارتقتْ مداركُه وعَلَتْ عبارتُه، فإذا هو باحث، وأيُّ باحث! وقاربت لغتُه لغةَ القدماء، فغدا لسانُه أشبهَ بلسانهم، وظهرت شخصيّتُه في سعيه إلى مناقشتهم والتدقيق في كلامهم ومذاهبهم، وهو ما لا يُحْسنه إلا أهلُ هذا العلم مِمّن بَرَأَتْ سلائقُهم، واشتدّ عودهم. وتُعجبني فيه قدرتُه على الغوص والتحليل، وعدمُ التسليم بكلّ ما يُنقَل، بل كان يحقِّق ويقارن ويستنبط، وينتهي إلى نظراتٍ هي ما هي، مِمّا يؤذن بفهمٍ

للنصوص واستيعاب لمذاهب النحويّين وآرائهم. ولم يكن الباحثُ فيما كتبَ ذا هوًى، فقد بيّن ما لابن عطيّةَ وما عليه بنَزاهةٍ وأمانة، أسعفه في ذلك كلِّه حُسْنُ تأتّيه لما في المصادر، وتتبُّعُه لما فيها، على نحوٍ لا تكاد تُعْوِزه الدقة». انتهى كلام الدكتور نبيل أبو عمشة.

ويقول الدكتور مسعود بوبو في مناقشته: «الباحثُ أعلى بكثير مِمّا كَتَب. ومنذ سنوات لم أقرأ لباحثٍ يمتلك القدرةَ على الصبر والمتابعة والإفادة من المراجع، ودقةِ العبارة ومتانتِها كهذا الباحث. والله إنّي لسعيد بمناقشته». انتهى كلام الدكتور مسعود بوبو.

وهكذا نال الباحثُ درجةَ الدكتوراه في النحو والصرف بمرتبة امتياز، سنة (١٩٩٦)، وعُيّن إثر ذلك، في الهيئة التدريسية في قسم اللغة العربية، في كلية الآداب بجامعة دمشق، مدرّسًا للنحو والصرف.

وقد نهض الدكتور عبدُ الناصر لتدريس النحو والصرف بمنهج القدماء موضوعاتٍ وأدواتٍ وتاريخًا ومسائلَ خلاف، وإضافةً إلى ذلك تصدى في السنوات العشر الأخيرةِ للدراسات النحوية المعاصرة، والأساليب اللغوية المعاصرة. وكان في ذلك كلِّه يقوم بما يمليه عليه خُلُقُه وواجبُه، حريصًا على رسالته العلمية، رفيقًا بطلابه، ناصحًا لهم، أمينًا فيما يُسنَد إليه.

ولزميلنا الجديد مشاركةٌ يسيرة في تأليف الكتاب الجامعي، فقد شارك بعضَ زملائه في تأليف كتابين؛ الأول: (النحوُ وتاريخُه)، والآخر: (النحو ومسائله) لطلاب قسم اللغة العربية بجامعة دمشق.

وللدكتور عبدِ الناصر في الدراسات العليا في قسم اللغة العربية الذي يدرّس فيه نصيبٌ حسنٌ وأثر طيّبٌ يَمتَح من عِلمٍ وخُلُق، فقد أشرفَ على عشْرِ رسائل ماجستير في النحو والصرف، نوقِش خَمسٌ منها، نالَ بها أصحابُها

درجةَ الماجستير بمرتبة امتياز، تحكي جُهْدَ المشرف وأمانتَه، وتدلّ على ما كان له فيها من توجيهاتٍ وتصحيحاتٍ ولمساتٍ مخلصةٍ صادقة.

وشارك في مناقشةِ أزيدَ من عشرينَ رسالةً لنيل درجتَي الماجستير والدكتوراه، وكانت مشاركتُه طيّبةً تدلّ على نظرٍ ثاقب وقراءةٍ عميقة متبصِّرة.

وثَمةَ تجربةٌ أخرى للدكتور عبدِ الناصر في التدريس؛ إذ عَمِلَ في كلية المعلّمين بأبها في السعودية مدةَ خمسِ سنوات (من عام ٢٠٠١، وحتى ٢٠٠٦)، درَّس فيها اللغةَ العربية وعلومَها، وحكَّمَ أبحاثًا عديدة، ودقَّق في عددٍ من الكتب والرسائل، وأعدَّ بعض المسابقات التعليمية في المهارات اللغوية وأشرفَ عليها، وكتبَ في مجلةِ كلية المعلّمين بأبها، ومجلةِ بيادر الصادرةِ عن نادي أبها الأدبي، ولَقِيَ في ذلك كلِّهِ من تقدير الإدارة والزملاء والطلاب ومحبّتهم وتكريمهم ما لا يَحُدُّه الوصف، لما بدا لهم في هذا الأستاذ وفي أفعاله وسلوكه من صدق وإخلاص وأمانة وجدٍّ واجتهاد.

وبعد عشْرِ سنواتٍ من عودة الدكتور عبد الناصر إلى الوطن، اختارَهُ مجمع اللغة العربية بدمشق ليكون عضوًا مراسلاً، وصدر القرار في ذلك في ٦/ ١/ ٢٠١٦.

أيها الحفل الكريم:

لزميلنا الدكتور عبدِ الناصر مجموعةٌ صالحةٌ من البحوث والدراسات نشرها في مجلات عديدة؛ مِن مثلِ: مجلةِ مجمع اللغة العربية بدمشق، ومجلةِ جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية، ومجلة التراث العربي، ومجلة الموقف الأدبي، ومجلة الفيصل، ومجلة اللغة العربية في أبها، والمجلة العربية في الرياض، ومجلة بيادر في أبها، ومجلة (أحمد) البيروتية.

وقد تنوعَّت محاورُ هذه البحوثِ والدراساتِ تَبَعًا لموضوعاتها؛

كالنحو والصرف، والنقدِ والتصويبِ اللغويّ، وفصاحِ العامية واللهجاتِ العربيّةِ المعاصرة، وأدبِ الأطفال.

ففي موضوع النحو والصرف، نقرأ العناوين الآتية:

١- (هذه المصطلحاتُ النحوية).

٢- (عِلَّةُ التَّقاصِّ أو المقاصَّة في النحو العربي).

٣- (التنازعُ عند ابنِ مَضاء بين كتابه «الردّ على النحاة» وقراءةِ شوقي ضيف).

٤- (إنكارُ تقدير ضمائر الرفع المستترةِ لاستغناء الفعل بمادّتِه عن فاعله).

٥- (إدغامُ التاء في الأصوات المقاربة في صيغ: تفعّل وتفاعل وتفعلل).

وكان للدكتور عبد الناصر في هذه البحوث آراءٌ وردودٌ تتعلق بتسميةِ بعض المصطلحات النحوية ونسبتِها إلى أصحابها.

وفي موضوع النقد والتصويب اللغوي، نقرأ عناوينَ من مثل:

١- (أوهامٌ لغويةٌ قد تَمسُّ القرآن).

٢- (تصحيحُ التصحيح بين القعود والجلوس).

٣- (الدخيلُ يجانبه الصوابُ في ثلاث كلمات).

حذَّر الدكتور عبد الناصر في هذه المقالات وغيرِها من الأوهام والأخطاءِ التي تَصدر عن جماعة المغلِّطين، الذين يُخطِّئون في أحايينَ كثيرةٍ ما كان من الكلام فصيحًا صحيحًا، ويَدْعون إلى نبذِهِ والعزوفِ عنه بغير وجهِ حقّ، فيُلحقون الضيمَ بالعربية، ويُصيبون الكتّاب والمتكلّمين بالعَنَتِ والمشقَّة.

ودعا الدكتور عبدُ الناصر هؤلاء المغلِّطين إلى التأنّي عند تخطئةِ هذه الكلمةِ أو تلك، وهذه العبارةِ أو تلك، فلا يَنبَرُون لها إلا بعد استقراءِ المرادِ في المدوّنة العربيةِ الواسعة، وتدبُّرِ كلام العلماء، والنظرِ فيما انتهت إليه

مجامعُ اللغةِ العربيةِ اليومَ من قراراتٍ تنطوي على إساغةِ ما شاع على ألسنةِ الكتّاب وجَرَتْ به أقلامُهم، مِمّا اتسعت له الأصالة، ولم تَمنع منه روحُ العربية وطرائقُها.

فإذا لم يجد المغلِّطون ما يَسندُ تلك العبارةَ أو الكلمةَ من سَماعٍ معتَمَدٍ أو قياسٍ متّبَع، أو يَنصرُها من دليلٍ مفحِم أو حُجةٍ قاطعة، جازَ لهم عندئذٍ أن يُغلِّطُوها، وأن يُنبِّهُوا على ما قامت عليه.

ومن هذا القبيل كان للدكتور عبدِ الناصر نظراتٌ وتعقيباتٌ على ما صدرَ عن لجنة اللغة العربية في هذا المجمع من قراراتٍ في بعض الألفاظ والأساليب التي يستعملها الناس في زماننا. تلك النظراتُ المُعجِبةُ التي تدلّ على ما وراءَها علمًا وتحقيقًا ومراجعةً واجتهادًا، وفقهًا للنصوص، وحُسْنَ تذوُّقٍ للغة.

ومن هذا القبيل أيضًا كانت لزميلنا الدكتور عبدِ الناصر مشاركاتٌ في ضبطِ الكلام على فصاح العامية ضبطًا منهجيًّا مُحْكمًا، بيَّن فيها أنَّ فصاحَ العاميةِ واللهجاتِ العربيةَ المعاصرة، إذا دُرِست دراسةً علميةً بعيدةً عن الأغراض المشبوهةِ والنَّزعات الضّيّقة، فإنها تَجود غيرَ شكٍّ بفوائدَ عديدةٍ يَصبُّ بعضُها في خدمة اللغة العربية؛ إذ يمكنها أن تَبعثَ من ألفاظ اللغةِ ما يكاد يكون مَواتًا، وتُحْيِيَ ما طال هَجْرُه وغَلَبَ عليه النِّسيان.

وفي موضوعِ أدبِ الأطفال، شارك الدكتور عبد الناصر في الكتابة للأطفال واليافعين في مجلة (أحمد) البيروتية، فكتب فيها حلقاتٍ عن أدب الأطفال عند تولستوي ومحمد الهراوي ومعروف الرصافي، وكتبَ إضافةً إلى ذلك بعضَ الخواطر والقِصص.

وأخيرًا، حكَّم الدكتور عبد الناصر جملةً صالحةً من البحوث لعددٍ من المجلات العلمية المحكَّمة، منها: مجلةُ جامعة دمشق للآداب والعلوم

الإنسانية، ومجلةُ الفرات للدراسات والبحوث العلمية، ومجلةُ التراث العربي، ومجلةُ كلية المعلمين بأبها.

وفي الختام، أهنئك أيها الزميلُ العزيز على ما نِلْتَه من ثقةِ زملائك وتقديرِ المجمع لك، راجيًا لك المزيدَ من العمل الموفَّق والإنتاجِ المثمر في رحاب مجمعنا العظيم.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

١٢/ ٤/ ٢٠١٧

* * *

كلمة الدكتور عبد الناصر عساف
في حفل استقباله يتحدث فيها
عن سلفه الشيخ سليم البخاري

أيها السيدات والسادة
الأستاذ الدكتور رئيسَ المجمع الموقّر،
الأساتذةُ أعضاءَ المجمع الكرام،
الضيوفُ الأكارم: أساتذةً وزملاءَ وزميلات وأصدقاءَ وطلّاباً ومحبّين،
الإخوة والأخوات الأفاضل،
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته (١):

هأنذا أقف بين أيديكم في مقام لم يخطُر ببالي يوماً من الأيام، قدّره الله وأراده فكان كما قال كن فيكون، فله الحمد على عظيم إنعامه، ألقى في صدور أعضاء مجمع اللغة العربية الكرام حسنَ الظنّ بطالب علم يشرُف بخدمة لغته الأم، فاختاروني فيهم تكريماً؛ فلهم ولكلّ من كان له فضلٌ في بلوغ هذا المقام في رأي أو قرار جزيلُ الشكر والامتنان، واللهَ أدعو أن أكون عند حسن ظنّهم عوناً لهم وسنداً في خدمة لغتنا العظيمة التي رماها فِئامٌ من المُحْدَثين بما ليس

(١) الكلمة التي ألقاها د. عبد الناصر إسماعيل عساف في حفل استقباله عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربيّة بدمشق يوم الأربعاء ١٥ رجب ١٤٣٨هـ الموافق ١٢ نيسان ٢٠١٧.

منها، وهي منه بَراء، من مشكلات صدروا فيها عن أوهام وأضاليل وأخطاء في الفهم والتقدير والحكم، واختلف فيها أقوام منهم اختلافاً بلغ أحياناً مبلغَ الخصومة والاتّهام والتدابر، وكلٌّ يدّعي وصلاً بليلى. والغيرةُ على اللغة العربيّة التي تحرّك فريقاً من هؤلاء وأولئك ممّا يجب غير شكّ أن يكون فينا جميعاً، فهي قطعة من دين المرء وعروبته. لكنّ تلك الغيرة لا ينبغي أن تكون كما قيل وحشاً بعيون خضراء، تنتهي بنا إلى خرافة الدبِّ الذي قضى على صاحبه حبّاً حين رماه، وهو نائم في ظلّ شجرة، بصخرة أراد بها أن يطرد ذبابة كانت تحوم حول وجهه، فأهلكته؛ بل يجب أن تكون حبّاً صادقاً ينبُت بالعلم الصحيح والحكمة البالغة والرأي الصائب والرؤية الواضحة. على أنّ من أحابيل النفس البشريّة المراوغة أن تَزَيَّن ثُلّةٌ في الآخرين من بني جلدتنا بالغيرة والحرص شعاراً لها، اتَخِذَتْ منه حصان طروادة، إذْ بلغ بها مبلغاً من كيان اللغة أخذت ترتع فيها بأفانين من العبث والفوضى، تسمّيها بغير أسمائها، وتلك دعوى ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب والخراب.

وإذا كان كثير من الناس ينظر في هذا المقام إلى ما يدُلّ عليه الاختيار من منزلة وتكريم، يرَون ذلك، ولا يكادون يرَون غيره، فإني من الذين يشغَلُهم الوجهُ الآخر من الأمر، وهو عظيم التكليف وما ينطوي عليه ويقتضيه من رسالة وأمانة ومسؤوليّة وجُهد وعمل، يتملّكني ذلك ويكاد يُفسِد عليّ ما للمقام من تكريم وتقدير يَسُرُّ النفس ويدغدغ مشاعرَها ويُشبع ضعفاً أقام فيها.

وإنّي هنا لأعِدُ المجمع الكريم ومن كان يحسن بي الظنّ من صديق أو زميل أو محبّ وعداً صادقاً أن أنهض بذلك التكليف وتلك المسؤولية كما يجب؛ وكيف لا، وذلك من عظيم الأمانة التي أُسأل عنها، والله عزّ وجلّ يقول: ﴿ وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ ﴾ [التوبة: ١٠٥]؟.

أيها الحفل الكريم:

من سنّة المجمع التي استنّها أن يعرّف المرء إذا قام هذا المُقامَ بسلف راحلٍ له من المجمع[٢] تعريفَ تذكير وادّكار، وإنّ من حسن حظّي أن أعرّف هاهنا بعَلَمٍ يجهله كثير من الناس، على الرغم من أنّه كان من طلائع الإصلاح الديني واليَقَظَة الحديثة في سورية كما صدّر الزِّركليُّ ترجمتَه في (الأعلام)، وأحدُ أركان النهضتين الوطنيّة والعلميّة، والنافخُ في بوق التجديد كما وصفته جريدة (العهد الجديد) البيروتية. تحمّل أمانةَ نشر العلم والتوجيه والإرشاد ومحاربةِ الجهالة، كما تحمّلَ أمانةَ إذاعة المعرفة ومحاربة الظلم، وكان صورة الأخلاق الفاضلة الكريمة، ومثلاً متكاملاً جمع بين المعرفة والخير.

ذلكم الأستاذُ الشيخ محمّد سليم بنُ إسماعيلَ الآمديُّ أصلاً البخاريُّ شهرةً، رئيسُ العلماء وشيخُ الأحرار.

وُلِد البخاريّ في دمشق سنة ١٨٤٨ لأب كان من ضباط الدرك، وتعلّم في المدارس التحضيريّة التركية، وأخذ علوم العربيّة من نحو وصرف وبلاغة، والعلوم العقليّة من منطق وحكمة وجدل، والعلوم الشرعيّة من أصول فقه وكلام وتفسير وحديث من علماء دمشق في زمنه، وقد لازم بعضَهم، وربطته ببعضهم روابطُ المحبّة والولاء كالمحدّث بدر الدين الحسني والشيخ طاهر الجزائري. وجاور بمكّة المكرّمةِ حين حجّ حِجّة

(٢) كان من خطة المجمع منذ عام ١٩٢١ اقتداءً بالمجامع العلميّة الأجنبيّة أن يُعرّف أحدُ أعضاء المجمع بالعضو الجديد في جلسة القبول، فيجيبه العضو المقبول بكلمة مناسبة، ثمّ أُضيف شيءٌ جديد في الموضوع، وهو أن يكتب الأعضاءُ ملخّصاً لتراجم حياتهم وآثارهم لتُسجَّل في السجلّ المخصوص. تاريخ المجمع العلمي العربي، أحمد الفتيح، ص ٢٣٧.

الإسلام ستة أشهر، تلقّى فيها العلم من بعض علماء مكة ومفتيها كالشيخ رحمة الله الهندي والشيخ أحمد الدهّان والشيخ زيني دحلان.

تولّى منصب الإفتاء على حداثة سنّه في كتيبة المدفعيّة من فيلق الشام في الجيش العثماني بعدما نجح في اختبار الآستانة (إسطنبول) نجاحاً مكّنته منه غزارةُ علمه وقوّة عارضته، مع إجادته التكلّمَ والكتابةَ باللغة التركيّة ومعرفته قليلاً من اللغة الفارسيّة، وظلّ على ذلك زهاء ربع قرن، كثر فيه عارفوه، وذاعت شهرته العلميّة في بلاد الشام وبعض الأقطار المجاورة، وهيّأ له ذلك مخالطةَ كثير من رجالات العلم، ومنهم محمد عبده ورشيد رضا، وكان بينه وبينهم أثناءَ ذلك مناظراتٌ علميّةٌ شهِدت له بغزارة علمه وعُلُوّ منزلته.

وكان الأستاذ من دعاة الإصلاح السياسي والديني، وقد لقي في ذلك من التضييق والأذى ما لقي، وكان من ذلك أن سُجِن ونُفي. حتى إذا زال حكم العثمانيين عاد إلى دمشق، فعُيّن في العهد الفيصليّ عضواً في مجلس الشورى، ثمّ نُقِل إلى مجلس المعارف الأعلى، ثمّ انتُخِب سنة ١٩٢٠ عضواً عاملاً في المجمع العلمي العربي، ثمّ أُسنِدت إليه رئاسةُ العلماء فأعاد إلى المؤسسة الدينيّة هيبتَها شيئاً فشيئاً بعد أن تمكّنت منها الفوضى، حتّى إذا كان العاشر من آذار سنة ١٩٢٤ اعتزل معتكفاً إلى أن تُوفّيَ في الرابعِ والعشرين من تشرين الأوّل سنة ١٩٢٨، فطُوِيَت بذلك صفْحةٌ وضّاءة من صفَحات العلم والوطنيّة والإخلاص.

وهذه الترجمة المختصرةُ لا تحول دون تبيين بعض المفاصل المهمّة المفيدة من سيرة الأستاذ الشيخ سليم البخاري، وربّما أشرقت بذلك روحُ السرد وأعلن الكلامُ جمالَه، وأفشى الإجمالُ أسراراً خبّأها في طيّاته:

*** مؤلّفاته:**

لم تكن الكتابةُ والتأليف ممّا اشتُهِر عن الأستاذ سليم البخاري، على

الرغم من تلك الرغبة التي كانت تراوده مذ كان في سنّ طلب العلم؛ ذلك أنه صنّف لأول عهده بطلب العلم رسالةً صغيرة في المنطق، كتبها بلغة سهلة عذبة، تنفي عن هذا العلم تعقيد العبارة، وصعوبة الفهم، وعرَضَها على أحد مشايخه، فسخِر منه وأنّبَه، وقهره بالتثبيط والزجر قهراً[٣]، وسقى ميلَه إلى التأليف ورغبته في البحث بملح أجاج، فأهلك ذلك الميلَ منه إلّا قليلاً، وكانت هذه الواقعةُ محطّةَ انكسار مبكّرةً تركت في نفسه نُدوباً امتدّت طويلاً؛ إذ فترت همّتُه في ذلك، ولم يعد إلى التأليف، على جلالة قدره، وكثرة علمه، وقوة قلمه، وشدة بيانه، إلّا ما ندر.

ومن أثر ذلك النادر:

- رسالةٌ (في آداب البحث والمناظرة)، وهي مجهولة المصير.
- كتاب (حلُّ الرموز في عقائد الدروز)، وهو مطبوع[٤].
- رسالة في بضع صَفَحات في ترجمة القاضي العالم المفسّر قطب الدين الشيرازي، محمود بن مسعود (ت٧١٠هـ)، استنسخها شكري العسلي، ونُشِر ملخّصُها في مجلة (المقتبس)[٥].
- رسالة في الكلمات المعرّبة لابن كمال باشا (ت ٩٤٢هـ) عُني بها ونشرها الأستاذ سليم البخاريّ عن نسخة خطّيّة بمكتبة

(٣) التشجيع، علي الطنطاوي، مجلة الرسالة، ١٩٣٥، ع ١٠٦، ص ٢٢. عن المكتبة الشاملة.

(٤) طُبِع بعنوان (حل الرموز في عقيدة الدروز)، دراسة وتحقيق حمد بن صالح الحمِيده، مكتبة دار النصيحة - المدينة المنورة، ط١، ٢٠١٤. وكان أ. محمد كرد علي قد لخّص منه شيئاً في (المقتبس) ١٩١٠، م ٥، ٤/ ٢٥٠-٢٥٧، عن أصل الدروز، وقال: «ملخّصة من كتاب (حلّ الرموز في عقائد الدروز) لأستاذنا سليم أفندي البخاري، من علماء دمشق، وهو لا يزال مخطوطاً لم يُنشر بالطبع». ومنه نقل أيضاً في كتابه (خطط الشام) ٦/ ٢٦٤-٢٦٧.

(٥) المقتبس، ١٩٠٧، م ٢، ١/ ٣-٧.

جميل الشطي، في مجلة (المقتبس) في أربعَ عشرةَ صفْحةً[٦].

- وله كما قال الأستاذ محمّد سعيد الباني: «تعليقات ومقالات في موضوعات شتّى حفَلت بها حواشي الكتب التي طالعها في حياته، تدلّ على تمكّن من أسرار الأدب والشريعة».
- وكان له إسهام في نشر بعض الكتب والرسائل والإشراف عليها وتصحيحها. فقد أشرف مثلاً على طباعة كتاب الشيخ علاء الدين بن عابدين (ت ١٨٨٩) (الهدية العلائيّة) في الفقه الحنفي حين طبع أول مرّة، بمطبعة مجلس المعارف سنة ١٢٩٩هـ، وصحّحَ كتابَ (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد)، لابن الأكفاني محمّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري(ت ٧٤٩هـ)، وهو كتاب نفيس ذكر فيه أنواع العلوم وتصنيفَها ومنافعَها ومراتبَها، صحّحه سليم البخاري في طبعته التي طُبِعت ببيروت، سنة ١٣٢٢هـ؛ كما وقف عليه الشيخ طاهر الجزائري تصحيحاً ومعارضة ومقابلة على كثير من نسخه.

على أنّ ما يدلّ عليه ذلك كلُّه من علم الأستاذ البخاري وتمكّنه من علوم العربية والشريعة، لا يوازي - كما قال معاصرُه وتلميذُه الباني - مجالَ علمِه الواسع.

والآثار التي انتهيتُ إليها من ذلك، ووقفت عليها، تضيء خطوطاً من جانب الكاتب المؤلّف في شخصية الأستاذ الشيخ، ولا تؤلّف صورةً متكاملة عنه، فغياب رسالة (في آداب البحث والمناظرة) مثلاً، إذ لم أحظَ بها أو بأثر يدلّ عليها، يترك في تلك الصورة مِساحة فارغة؛ لأنّ هذه الرسالة

(٦) المقتبس، ١٩١٢، م٧، ١٠/ ٧٢١-٧٢٧، و١١/ ٨٠١-٨٠٧.

ممّا يمكن في تقديري أن يضيء جانباً رئيسياً في تكوينه المعرفي والمنهجيّ ويكشفَ بعضَ آرائه، لما عُرف به واشتُهِر عنه في فن البحث والمناظرة.

والتصحيح الذي نهض به البخاري فيما صحّحه من كتب أو أشرف على نشره يدلّ كما تنبئ نصوص بعض تلك الكتب، بما كان فيها من تماسك وسلامة وصيانة من الزلل، على قراءة خبير وفقه عالم ودقّة نظر وأناة، لكنّه يغمِط الشيخَ بعضَ حقّه، لأنّ تلك الكتب خِلْوَةٌ ممّا يدلّ على منهجه في ذلك وحدود جهده وأثره فيه، وفي مثله تكون شخصيةُ المصحّح العلميّة، وكيف لك أن تعرف ذلك كلّه حقّ المعرفة، في كتب غابت عنها الحواشي والتعليقاتُ، وخلت من المقدمة والخاتمة اللتين تنصّان على ذلك وتصرّحان به، واختفى من نصّها العلاماتُ المادّيّة الدالّة على ضروب التصحيح والاستدراك والضبط؟.

والبقيّة الباقية من آثار الأستاذ البخاري التي وقفت عليها تُنبئُك ببعض سمات منهجه في التأليف، من أمانة تطلّ عليك من تصريحِه بمصادره، وتبيينِ هيئة نقله من تلك المصادر إمّا كان تلخيصاً وإمّا كان بلفظه، وتحديدِ النصوص التي نقلَها من مظانّها؛ ومن علمٍ مؤيّدٍ بالنصّ والدليل يصرفُه ما أمكن عن حديث الذات وانفعالاتها الخاصّة، كأنّه العِلْمُ يستوطن ضفافَ الحياد. وكتابُه (حلّ الرموز) دليل على ذلك؛ ففي هذا الكتاب يحدّثك البخاريُّ بالنصّ والدليل عمّا تجهله من دقائق في معتقد الطائفة الدرزيّة، - وهي طائفةٌ أهلُها منّا، وهم شركاءُ لنا في الوطن في ماضيه وحاضره ومستقبله، وقطعةٌ من نسيج المجتمع المتنوّع - يحدّثك حديثاً عَزُوفاً عن المشاعر والحساسيات الخاصة، بعيداً عن النَّبْز أو الهجاء والتهجّم، فكأنّه كان يقيّد نفسَه وعبارته بالوَرَع، وكأنّك به وصّافٌ جُرِّد من مشاعره، ونأى

عن تلك الدروب الضيّقة التي تعشّش فيها رواسبُ النفس التي تنمو بالأثرة، وتضطرم فيها نارُ الكراهية، ويقتلها الهواء النقيّ، وذلك بعض ما كان يؤكّد تلك الروحَ السَّمْحةَ التي عُرِفت عنه.

ورسالة (الكلمات المعربة) لابن كمال باشا التي عُني بها الأستاذ البخاري ونشرها في مجلة (المقتبس) تُطلعك على شيء من ملامح المنهج العلمي في تحقيق نصوص التراث من إقامة النصّ على وجهه، وضبط بعض ألفاظه ضبطَ نصٍّ، وتصحيحِ ما كان في النصِّ من سَقَط أو تحريف أو تصحيف، وبيانِ معنى بعض ألفاظه وتبيينِ بعض ما قدّر الحاجةَ إلى تبيينه، ونسبةِ ما كان فيه من شعر إلى قائله، ومعارضة مادّة النص ببعض أصول العربيّة ومصادرها. يدلّك على ذلك كلّه تعليقاتُ الأستاذ البخاري في حواشي النصّ، تلك التعليقات التي كان يخلع عليها عبارة العلماء احترازاً وتوقُّفاً، فإذا به يقيّد ما لم يقطع به من الأمر هنا وهناك بكلمة «لعلّ»، ويتوقّف عن البتّ فيما لم يعرفه، أو لم يهتدِ إليه، أو لم يظهر له فيه وجه. ولعلّ في بعض تلك التعليقات ما يزكّي وصفاً وَصَفَ به الشيخَ بعضُ مترجميه، إذ قالوا: لُغويٌّ كبير.

وتلك البقيّة الباقية تشهد أيضاً لما قاله بعض مترجمي البخاري من أنّ «أسلوبه في الكتابة أسلوب العلماء، لا عيب فيه من حيث البلاغة والفصاحة».

*** العلم والعمل:**

جمَع الأستاذ الشيخ سليم البخاري في حياته بين العلم والعملِ، وبهما وصفه من عرَفه وخبِره وترجمه، فقيل: العالم العامل. وتلك مزيّةٌ دالّة على رضًا وتوفيق، إذا أُوتيَها المرءُ كانت له منزلة ومكانة. ومن أمارات ذلك ودلائله تلك الأخلاقُ الرفيعة التي وصفها الأستاذ محمد سعيد الباني (ت ١٩٣٣) إذ

وصف سجاياه وأخلاقه، وقد عاصره وخالطه وأقام معه في منفاه بالأناضول في غرفة واحدة، وهو من أبرز من ترجمه وعرّف به في مقالة نشرها في مجلة هذا المجمع العريق(٧)، فقال: «كان - رحمه الله - على جانب عظيم من الذكاء الفطريّ وسرعة الخاطر، وقوّة الحافظة، سليمَ الصدر لا يُضمِر السوء أو الغشّ لأحد، عصبيَّ المزاج، جميلَ المحيّا، رقيقَ الشمائل، حَسَنَ المعاشرة، يحبّ النظافةَ والإتقان والترتيب، ويرغب في وضع الأشياء موضعها، وكان مهيباً وقوراً بهيَّ الطلعة، جامعاً بين أناة الشيوخ وهمّة الشبّان، ماضيَ العزيمة، صبوراً على المصائب، مقداماً على عظائم الأعمال، شديدَ الغيرة على الوطن وأهله، صُلباً بدينه ومبادئه القويمة، يكره التنطّعَ في الدين والتعصّبَ الممقوت، كثيرَ التواضع مع إباء نفس، فلا يتزلّف ولا يحابي، ولا يتمجّد بالمجد الكاذب والفخفخة الفارغة، فلم يتذرّع بالحصول على الأوسمة الخلّابة والرتب الكذّابة، بل كان يهزأ بها، وكان خضّاعاً للحقّ صدّاعاً به، فإذا ثبت عنده أنّ هذا الشيء حقّ يخضع له بدون مكابرة ولا مماراة، وأنّ هذا باطل يجاهر بمناوأته بدون تقيّة ولو توقّع الخطر، وله مواقفُ عجيبةٌ مع أولياء الأمور في كلّ دور من أدوار الحكومات المتعاقبة».

ومن تلك الأخلاق أنّ مجلسه كما وصفه بعضُ من نعاه يومَ رحَلَ «كان مجلس علم وأدب، ويأبى أن يُذكَر في حضرته إنسانٌ بسوء».

هذه أخلاق رجل من لحم ودم، شهِد له بها بعضُ من عاصره وخالطه في السرّاء والضرّاء؛ لا صفاتُ رجل من ورق اختلقه فنّانٌ حاذقٌ، ودبّجت صفاتِه يدُ منشئ وصّاف.

(٧) العلّامة سليم البخاري، محمد سعيد الباني، مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق، م ٩/ ١٢: ٧٤٢-٧٤٩.

ومن ذلك زهدُ الشيخ في المناصب؛ فلم يكن ممّن يسعى إليها سعيَ من شُبِّهت لهم المناصبُ نعيماً مقيماً لا ينفد، بل كانت تأتي له على قدم، أو يُلَزُّ إليها لزّاً، يُجيب فيها دعوةَ من يحسن الظنَّ به ويختاره لها، ما وجد فيها مصلحة عامّة محقّقة. وكانت تلك المناصبُ التي درج فيها وتقلّدها أمانةً لم تستولِ عليه إلّا كما تستولي الأمانةُ على حاملها، فلم يُشغَف بها شغفَ المتهالك على الدنيا وزخرفها، ولم يتّخذْها تُكَأَةً لمآربَ له تُغرِي بها النفسُ وتشتهيها من جاه أو سلطة أو مال، بل كان يريد منها تحقيقَ مصلحة عامّة للمجتمع أو للدين أو للوطن. ولو كانت مطمحاً يتطلّع إليه يحقّق به أمانيَ النفس ويرضي بها غرورَها، وأرادها طوال حياته يتقلّب في مغانمها لكانت له كما أراد. وكيف تكون تلك المناصب مغنماً لمن كان لا يملك موردَ رزق له سوى وظيفته؟.

ومن أظهر الشواهد على ذلك عُزوفُ الشيخ عن بعض ما عُرِض عليه من تلك المناصب، أو قَبولُ بعضها قبولاً مقيّداً، أو اعتزالُ بعضها إذا ما وقع فيه الإخلالُ بما كان يعقِده عليه من مقاصدَ ومصالحَ عامّة؛ فقد رغب عمّا عُرِض عليه من شَغْلِ وظيفة فتيا دمشق التي شغَرَت ثلاث مرّات، وأجاب واليَ دمشق إسماعيل فاضل باشا[٨] إلى ما أراده في أن يكون عضواً في

(٨) كان إسماعيل فاضل باشا والياً لدمشق سنة ١٣٢٨هـ، كما ورد في كتاب (ولاة دمشق في العهد العثماني)، لصلاح الدين المنجد، دمشق، ١٩٤٩، ص ٩٥. وذكر أ. محمد سعيد الباني أنّ الأستاذ سليم البخاري طلب بعد إعلان القانون الأساسي (الدستور) إحالتَه على التقاعد، فأُجيب طلبُه ولزم دارَه، وعكف على مطالعة كتبه ومزاولة درسه وبحثه، لكنّ أحد ولاة سورية إسماعيل فاضل باشا أراد أن يخرجه من عزلته، وأراده بإلحاح أن يكون عضواً في مجلس الأوقاف. وبعد أخْذ وردٍّ وشرْط شروط قبِل وتذرّع بمشاريع نافعة حال دون إتمامها عزلُ الوالي.

مجلس الأوقاف بعد أن وعده الوالي بإجابة مطلبه في تحقيق بعض المشاريع النافعة، واعتزل منصب رئاسة العلماء عند إعلان خلافة الملك الحسين بن علي، لمّا حاولت الحكومةُ التدخّل في الشؤون الدينيّة، إذ كلّفته أن يُنذِرَ خطباءَ المساجد بقطع رواتبهم إذا ما ظلّوا يدعون للملك، فرفض واعتزل منصبَه، فلقّبته الصحفُ حينئذ بشيبةِ الحمد(٩)، وملأت ما بين أعمدتها بسطور الثّناء عليه.

وعلى مثل ذلك يدلّ ما كان من الشيخ في آخر حياته؛ إذ تقلّد قُبيلَ مرض وفاته رئاسةَ مؤتمر الأوقاف الإسلاميّة إجابةً لدعوة منتخبيه الوافدين إلى دمشق من أنحاء بلاد الشام، لما بدا له في ذلك من تحقيق مصلحة يسعى بين يديها حسنُ ظنّ أولئك العلماء به، فما كان منه إلّا أن غالب عجزَ الهرَمِ وآلامَ السقَم، وكان ما أرادوه.

*** الإصلاح:**

كان الإصلاح السياسيُّ والدينيُّ من أهمِّ ما شغَل البخاريَّ في حياته، ينافح بهما الظلمَ والفساد، ولو قلتَ: بل كان أهمّ ما استولى عليه وتمكّن منه ونهض له لَمَا أخطأتَ. كان ينادي بما تميل إليه نفسُ كلِّ حرٍّ من حريّة ومساواة وعدل، وينافح عن ذلك، ويقاوم ما تكرهُه النفسُ السويّةُ ويمُجُّه الفكرُ الصحيح من ظلم وبطش واستبداد. وقد وافق في ذلك تلك الأهدافَ المعلنةَ لجمعية (تركيّا الفتاة) من إطلاق الحريّات وإقامة حياة نيابيّة وإعلان

(٩) شيبةُ الحمد: اسم عبد المطّلب جدّ النبيّ محمّد ﷺ عند الجمهور. وسُمِيَ بذلك لأنّه وُلِد، وفي رأسه شيبةٌ، وذُكِر الحمد في اسمه لجوده وسماحته، ولكثرة حمد الناس له؛ لأنّه كان مفزع قريش في النوائب، وملجأهم في الأمور. انظر: مناحل الشفا ومناهل الصفا بتحقيق كتاب شرف المصطفى، ١/ ٣٣١، والاستيعاب، ١/ ٢٧، وعمدة القاري، ١٦/ ٣٠١، وإرشاد الساري، ٦/ ١٨٣.

الدستور، فانخرط فيها زهاء ثلاثين عاماً، حتّى كان إعلانُ القانونِ الأساسيِّ العثمانيِّ، أي الدستور، إعلاناً ثانياً سنة ١٩٠٨. ولمّا انجلت له حقيقةُ الاتّحاديّين، وبدا له سوءُ طويّتهم ومكرُهم، تركهم وانسحب من جمعيّتهم جمعيّة (تركيا الفتاة)، ثم عارضهم بعد حين، وانتظم في (حزب الحريّة والائتلاف) الذي اتّخذ اللامركزيّة شعاراً لها، ونادى بمنح العرب حقوقَهم المغصوبة، وإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه، وانتُخِبَ رئيساً لشعبته في دمشق. بيد أنّ ذلك لم يطُلْ، إذ رأى في (حزب الحريّة والائتلاف) ومَنْ وراءه عجزاً وضعفاً لا يُضاهى، فانصرف عنهم، وأخذ يطالب مطالبةً عادلةً بحقوق العرب المهضومة، التي ارتفعت راياتها في ذلك الزمان، الذي أخذ فيه إحساسُ الشعب العربيِّ بالقوميّة ينمو ويتعاظم.

وقد لقي الشيخ في ذلك من الجلاوزة والعيون والسُّعاة ما لقي، فكم من مرّة آذَوه واضطهدوه وضيّقوا عليه، وكم من مرّة دهموا بيته ونبشوا مكتبته!، وكان كلّما سرت في الناس دعوة جديدةٌ، أو صدر كتابٌ يدعو إلى التجديد والإصلاح؛ استُدعي هو وصديقُه الشيخ طاهر الجزائري للمساءلة والتحقيق. وأشدّ ما كان من ذلك سجنُه، إذ سجَنَه جمال باشا السفّاح شهرين في دائرة الشرطة، لمناوَأة الحكومة التركيّة، والتعصّب للعرب، ثمّ نفيُه وأسرتَه إلى الأناضول.

لكنّ الشيخ ثبت واصطبر، وكان تمثالَ الثبات ومثالَ المضاء، وكان اصطباره وثباته مع وضوحه وبعده عن المصانعة، دليلاً ناهضاً وحجّة دامغة على صلابته في مَبْدئه، فكأنّه يقول: المبدأ حياة لا صورة، والقيم الخالدة التي تمنح الإنسان إنسانيّته، وتخلع على الحياة معناها، تحيا بالفعل والسلوك، لا بالشعارات ولا بالكلام المكتظّ بالألفاظ الفخمة والنَّبَرات العالية، بل إنّ ذلك يقتل الإحساسَ بها، ويعطّل مفعولَها.

وإذا كانت تلك حالُه في الإصلاح السياسيّ، فما حالُه في الإصلاح الدينيّ؟

كان من مظاهر إصلاح الشيخ في هذا الباب وأماراته الدالّة عليه، ما كان من سعيه إلى تنظيم الشؤون الدينيّة وضبطها شيئاً فشيئاً، حين أُسنِد إليه في شيخوخته منصبُ رئاسة العلماء، إذ حاول خلال ذلك أن ينفخ فيها بروح التجديد، ويوفّقَ بين الدين ومقتضيات العصر، فألّف مجلسَ الشورى الشرعيّةِ الذي جمعه ومفتيْ المذاهب الأربعة وأمينَ الفتوى وثلّةً من خيرة العلماء المجدّدين والمحافظين، وتفرّعت منه (لجنةُ تحقيق الفتوى) التي كانت تنظر في كلّ ما يصُدر من فتاوى في أنحاء البلاد، - وفي ذلك ما فيه من ضبط الفتوى وتنظيمها وحفظها من الفوضى والاختلاف - وتتصدّى لما يقترحُه عليها من فتاوى عصريّة تقتضيها روحُ العصر ولا تنافي أصول الدين وقواعدَه العامّة، وبذلك تصطبغ الفتوى بما يشبه الإجماع، وتكتسب الصفةَ الرسميّة التي تمنحها الانتشار والشيوع، وتراعي التوفيقَ بين الدين والحياة ومستجدّات العصر، والأصالةِ والتجدُّدِ، وتنأى عن الاستبداد بالرأي والانفراد بالفُتْيا.

ومن ذلك القانونُ الذي أصدره حينئذ يمنع فيه الوعظَ والإرشاد والتدريس في المساجد لغير المدرّسين الموظّفين المشهود لهم إلّا بوثيقة رسميّة من المفتين أو رئاسة العلماء، وفي ذلك ما فيه من ضبط التوجيه والإرشاد، ومنع فوضى التدريس ودَجَلِ الجهّال.

وكان من صميم دعوته إلى الإصلاح التحذيرُ من البدع والخرافات، والسعيُ إلى استئصالها؛ لما تنطوي عليه من إزراءٍ بالعقل وتنقُّصٍ من المكانة الإنسانيّة التي مُنِحَها الإنسانُ وشُرِّف بها، واجتراءٍ على الدين باختلاق ما ليس منه ممّا لا يوافق مقاصدَ الشرع ومصالحَ العباد.

*** الكتاب:**

كان الكتابُ من أعنى ما عُني به الشيخُ، وكيف لا، وهو من ركائز الحضارة الإنسانية المعرقة، ومصدرٌ رئيسيٌّ من مصادر العلم والمعرفة والثقافة، له أثره الفعّال في نهوض الأمم، وبثِّ الوعي، ومحاربة الجهل والظلم؟ فكان له خيرَ رفيق وزادٍ طوال حياته.

وإذا كان طلبُ العلم وتعليمُ الطلبة العلومَ النقليّة والعقليّةَ اقتضى من الشيخ في فتوته وكهولته الاطّلاعَ على ضرب معيّن من كتب العربيّة وأصول الفقه والكلام والتفسير والحديث والمنطق، فإنّه أخذ يمعن بعد زمن، ولا سيّما في كهولته، في كتب الأدب العربي وأسراره وكتب التاريخ والطبقات والملل والنحل وأمّهات كتب الشريعة، ويطّلع على المؤلفات الحديثة في علم الاجتماع والسياسة والحكمة والعلوم الكونية المترجمة، وعلى الصحف والمجلات الدينية والعلميّة. والاطّلاعُ على تلك الكتب والصُّحف والمجلّات بتنوّعها الظاهر في ذلك الزمان دالٌّ على تطلّعِ متنوِّرٍ حرّ، ورؤية مثقّفٍ واسعة، ومفضٍ إليهما.

وكان من منزلة الكتاب عنده إذا عثر على كتاب يلائم ذوقه ألَّا يذره حتى يطّلع عليه بإمعان من أوّله إلى آخره. وكان له في ذلك تعليقات ومقالات في موضوعات شتّى حفَلت بها حواشي الكتب التي طالعها تدلّ على عميق قراءة ودقيق نظر، وعلى تمكّن من أسرار الأدب والشريعة. ومن ذلك تعليقات له على كتاب (ألف باء)البلوي (ت ٦٠٤هـ) نوّه بها الكاتب الفلسطينيّ عبد الله مخلص (ت ١٩٤٧) في مجلة (المقتبس)، ووصفها وصفَ إنشاء فقال[١٠]: «كعقودٍ نضيدةٍ في جِيْدِ غادة حسناء».

(١٠) المقتبس، ١٩١٢، م ٧، ٥/ ٣٥٨.

ومن شواهد ذلك الاهتمامِ بالكتاب ولعُ الشيخ باقتناء آثار السلف، والحرصُ على جمع المخطوطات والنفائس، حتى كان له من ذلك مكتبة حافلة بالمخطوطات النادرة. وكان له في ذلك فهرس سمّاه محمّد كرد علي «فهرست سليم أفندي البخاري»، ضمّ فيما ضمّ أسماء مخطوطات المدرسة الأحمدية(١١). ومن هذا القبيل من الاهتمام أن يتصدّى لنسخ بعض الكتب القيّمة بخطّه الجميل، ولا سيّما حين كان عضواً في الجمعية الخيريّة التي كانت برئاسة الشيخ علاء الدين عابدين.

وإلى ذلك كان الشيخ ممّن عمِل على إنشاء المكتبات، وتشجيع القرّاء والشباب على ارتيادها، وإرشاد المثقّفين للاطّلاع على ما فيها من كتب ومخطوطات، وتوجيه القادرين منهم على تحقيقها ونشرها. وكان له في هذا الباب ولصاحبه الشيخ طاهر الجزائري فضلٌ كبير في إنشاء المكتبة الظاهرية سنة ١٨٨٠، وجَعْلِ المدرسة الظاهرية مقرّاً لها.

وإلى هذا وذاك كان الشيخ ممّن عُني بنشر بعض الكتب والرسائل والإشراف عليها وتصحيحها. ومن ذلك مثلاً كتاب الشيخ علاء الدين بن عابدين (الهدية العلائيّة)، وكتابُ ابن الأكفاني (إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد).

*** البخاريّ مجمعياً:**

كان البخاريُّ رحمه الله مجمعيًّا خفِيَ على الناس حالُه، فقد انتُخِب عضواً عاملاً في أول جلسة للمجمع إثر عودته إلى نشاطه في الرابعَ عشرَ من شهر أيلول سنة ١٩٢٠، لكنّه لم ينتهِ لنا ما يدلّ على أثره في هذا المجمع، إذ لم يكن له في مجلة المجمع العريقة أو محاضراته أو منشوراته أيُّ مشاركة أو أثرٍ ظاهرٍ يدلّ على حاله فيه؛ فكأنّي به كان يقتصر على

(١١) المقتبس، ١٩١٠، م ٥، ٨/ ٥١٨.

مؤازرة المجمع مؤازرةً مادّية ومعنوية، يمدُّه بما يمكن أن يمدَّه به ويؤيّدُه ويزيّنُه للناس، وكأنّما شغلته مشاغله العامّة والأمور الإدارية التي كان يتولّاها والتوجيه والإرشاد عن المجمع.

*** ملامح عامّة من منهج البخاريّ:**

إذا أردت أن تنظر في سيرة الأستاذ الشيخ البخاري فيما انتهى إلينا منه بيّناتٌ وأدلّة، وأن تنسِج منها خيوطَ منهجه الذي كان يجري به في العلم والتعليم والسياسة والتوجيه والإرشاد وإدارة ما أُسنِد إليه من مُهمّات ومناصب، بدا لك من ذلك معالمُ وصُوَى لا يخطئها نظر ناظر أو تأمّل متأمّل. ومن ذلك:

١- التنظيم ونَفْيُ الفوضى، وما يتعلّق بهما من وضع الأشياء في مواضعها، وإعادةِ ما انحرف منها عن سكّته إلى نصابه، وإسناد الأمور إلى أهلها الخبراء الأمناء، ولا أظنّك تجهل أنّ التنظيم مظنّة الإنتاج الجيّد، وبيئة صالحة للعمل الناجع المفيد، وأنّ الفوضى ورديفَها الارتجالَ مهلكةٌ للجهد والوقت والمال، وبهما تنبت الأعشاب الضارّة التي قد تُميت النافع المفيد من النبت والشجر.

٢- التحقيق: كان من أمر الشيخ أن تَرَكَ تقليدَ ما لم يُبنَ على دليل، وسلك فيما آنسه أو أراده سلوك النظر والاستدلال. وهذا مراد محمد رشيد رضا في (المنار) إذ وصف الشيخَ البخاريَّ بالعالم المستقلّ، ويدلّك على ذلك قوله ثمّة: «والعلم الصحيح هو العلم الاستقلاليّ المبنيّ على الدليل»[١٢]. وبهذا كان البخاري في رأيه وعقله استدلاليًّا لا إمّعيًّا. ولعلّ

(١٢) مصاب مصر والشام برجال العلم وحملة الأقلام: الشيخ محمد جمال الدين القاسمي، مجلة المنار - حزيران ١٩١٤، م ١٧، ٧/ ٥٥٩.

غذّى ذلك عنده ما اشتُهِر عنه من نُزوع إلى البحث والمناظرة التي كانت مناظراته العلميّة مع بعض رجالات العلم في الأمصار شاهداً لها ودليلاً على غزارة علمه.

٣- مدافعة العَنَتِ والمشقّة وما يفضي إليهما من تزيّد وابتداع بغير حقّ وخرافاتٍ وقولٍ بغير علم وتنطّعٍ وتعصّب. ومن الصور الدالّة على ذلك ميلُ البخاريّ إلى تهذيب المسائل الفقهية المطوّلة وتحريرِها على مقتضى الزمان وأهله وتلخيصِها بما يوافق روحَ العصر لئلا يكونَ لمتقوّل أو مرجف أن يقول: إنّ الإسلام يمنع تقدّم أهله في المدنيّة الحديثة، وأنّ كتبَه تحول دون التجديد والتطوّر. ومنها ضبط أمور الفتوى، وصيانتها من الاضطراب، ومراعاة أحوال الناس ومستجدّات حياتها.

٤- حفظ هيبة العلم وكيان الدين من التعدّي والاجتراء، فقد كان حريصاً على أن يكون للدين كيانُه المستقلُّ الذي يحفظ له هيبته، فلا يكون سلعة تباع وتشرى، فكم من عالم دين كان ألعوبةً بيد هؤلاء وأولئك سقط من أعين الناس لمّا أهان نفسه وعلمه ورسالته !.

وقد بدا لك من قبلُ أدلّةٌ شاهدةٌ على ذلك. ومن شواهد ذلك أيضاً عملُه إذ كان في مجلس الشورى على فرض رواتبَ شهريّةٍ لبعض العلماء المعوزين المنزوين الذين لا يعرفهم إلّا العلماء. وتلك لفتةٌ تنمّ على خُلُقٍ كريم، ورأي حكيمٍ غيورٍ حريص على كرامة العلم وأهله، كأنّ لسان حاله في ذلك يقول: إنّ للعلم أخلاقَه وآدابه التي تحفظه وتحفظ أهله من صدأ الدنيا، فيبقى لهما ذلك الألقُ الذي يشير إليه الناس من بعيد، كأنّهم يرونه مقدّساً لا ينبغي أن يُمَسَّ، وإنّ كيان العلم بِبِنْيته الرصينة ومنهجه المسدّد وغايته النبيلة يهتزّ في أعين الناس إذا اهتزت فيه تلكم الآدابُ والأخلاق،

وإذا ضيّعها أهلوه وقعوا في شرك الواقع المرّ، ومستنقع الضعف البشري، وإنّ للعلم كبرياءَه الذي لا يباع، وإن كرامة العلم والعلماء يجب أن تُحفَظ في السرّاء والضراء، وأن يُعترَف لهم بالجميل، وتُحفَظَ حقوقُهم بكثير من التقدير والتَّجِلّة، ولو آلت بهم الأيام إلى التقاعد والاستقالة.

٥- الغاية الصحيحة والهدف النبيل: كان الأستاذ البخاري من الرجال الذين تحرّكُهم الغاياتُ العليا والأهدافُ النبيلة، ولا تستعبدهم صغائرُ الحياة، وتشغلهم عن عليائها، فكان الوطنُ والدِّين ومنافحةُ الظلم والفساد، والعلمُ والكتاب والخلق القويم نَصْبَ عينيه، يسعى إليها سعيَ من يرى أنّه خُلِق لها. ومن كان ذلك وطناً له وعنواناً كان ملحاً تزكو به الحياةُ وتنعقد الآمالُ وتنمو الأوطان.

أيها الحفل الكريم:

هذا قولُ من نظر إلى الشيخ البخاري من بعيد، وتراءى له من أمره ما تراءى، وقرأ بعضَ ما تناقله مترجموه قراءةَ معنًى امتدّ فيها شيءٌ من تفسير وتأويل، فبدا له فيها حريصاً على أن يمنح الأشياء معانيَها، وأن يُبعِد عنها الفوضى، يحفظَ لها نصابها، ويردَّها إلى صراطها المستقيم. هذه كلمات نسجتُها ممّا تناثر في بعض المصادر والمراجع، تُعرِّف بجوانبَ من شخصيّة الأستاذ سليم البخاري تعريفاً لا يحُدُّه ولا يستوعبه ولا يختصره، بدا لك فيها الشيخ يلوح من بعيد بعيد، كلّما حاولت أن تلتقطه أفلت من يديك وفَرّ في بحر الزمان، كأنّه خيط من دخان، لكنّ عبق المعاني الجميلةِ منه والقيمِ الخالدة يملأ عليك أنفاسك ! فرحمه الله في الخالدين.

أيها الحفل الكريم:

إنّ من واجب المرء في مقام كهذا المقام أن يشكر من كانت له يدٌ عليه

في علم أو معروف أو كلمة طيّبة، وما أكثرَهم ! ولو تركتُ النفسَ على سجيّتها تحصي كلَّ من كانت له عارفةٌ عندي لما اسطاعت ذلك، ولما بقي منّي شيء، فإنّي عبد ضعيف خلقه البارئ، وسُقِي بكرم خلقه ومعروفهم وفواضلهم، سقَوه من ظمأ، وأطعموه من جوع، وآمنوه من خوف، وعلّموه من جهل، فجزى الله عني خيراً في الأوّلين والآخرين كلّ من كان له عليّ فضل، وله عندي عارفة.

أيها الحفل الكريم:

ما من ريب في أنّ اللوحة التي خطّتها اليوم يدُ القدر لوحةٌ جليلة مَهيبة! وما كان أجملَها لو اكتملت! وهل تكتمل لوحةٌ اختطفت منها الحربُ فرحَها وأجمل معانيها؟! وكيف تكتمل، وقد أنشبت الحربُ فيها أظفارها، وألقت عليها بظلالها، وسرقت منها بريقَ ألوانها، وبثّت فيها خيوطاً سوداً طغت على البياض والخضرة والزرقة وسائر الألوان الجميلة طغياناً يلوح لك من ورائه أشباحٌ وهياكل؟! وكيف لها أن تكتمل بين يدي حرب عجَنت الوطن بالمواجع والحزن، وطحنت أبناءه بالموت والحزن والعذاب، أولئك الناس الطيّبون الذين حفرت الحرب في نفوسهم خزّانات ملأتها بحزن العالم كلِّه في بضع سنين؟! وهل للوحةٍ أن تكتمل، وقد غاب عنها أمٌّ لي ضعيفة غرّبتها سود الليالي، كنت أحبُّ أن تكحّل عينها بمشهد ولد لها يقوم في هذا المقام، طالما تراءى لها بعين الأمومة صغيراً، وطالما مدّت له يدَها الحانية، ودعت له الحيَّ القيّوم فكان دعاؤها مفتاح خير وتوفيق وحفظ ورحمة، فلها الله؟! وكيف للوحة أن تكتمل، وفي النفس مِساحاتٌ لا يملؤها إلّا أحبّة أبعدتهم عوادي الزمن كانوا يقيمون في شرفة عالية من القلب لا تصل إليها الطيور؟! فلنا ولهم جميعاً، ولهذا الوطن الحزين

المكلوم، ولأبناء وطني الطيّبين المحزونين المعذّبين اللهُ. واللهَ أدعو أن يكرمنا بفرج عاجل وخلاص قريب، وأن يكون عامُنا هذا خاتمة الأحزان. وشكراً لكم، والحمد لله ربّ العالمين أوّلاً وآخراً.

المصادر والمراجع

التي أفدت منها في إعداد هذه الكلمة:

- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين - بيروت، ط ١٥، ٢٠٠٢، ٣/ ١١٦، ٦/ ١٤٧.
- أعلام الأدب والفن، أدهم آل جندي، دمشق، ١٩٥٨، ٢/ ١١٨-١١٩.
- الأعلام الشرقيّة في المئة الرابعة عشرة، زكي محمد مجاهد، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط ٢، ١٩٩٢، ٢/ ٨٨٥-٥٨٦.
- أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث، أحمد تيمور، دار الآفاق العربية - القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢٩٣-٢٩٦.
- تاريخ علماء دمشق في القرن الرابع عشر الهجري، ج١، محمّد مطيع الحافظ، ونزار أباظة، دار الفكر - دمشق، ط١، ١٩٨٦، ص ٤٣١ - ٤٣٥.
- تاريخ المجمع العلمي العربي، أحمد الفتيح، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٥٦، ص ١٢٥-١٢٦، ٢٣٥-٢٣٦.
- حلّ الرموز في عقيدة الدروز، محمد سليم الآمدي البخاري، دراسة وتحقيق حمد بن صالح الحميده، مكتبة دار النصيحة - المدينة المنورة، ط ١، ٢٠١٤.
- خطط الشام، محمد كرد علي، مكتبة النوري - دمشق، ط ٣، ١٩٨٣،

٤/ ٦٦، ٦/ ١٩٩.

- العلّامة سليم البخاري، محمد سعيد الباني، مجلة المجمع العلمي العربي - دمشق، ١٩٢٩، م ٩، ١٢/ ٧٤٢-٧٤٩.
- المجمعيّون الأوائل، د. مازن المبارك، مطبوعات مجمع اللغة العربيّة بدمشق، ٢٠١٥، ص ٤٢-٤٣، ٨٩.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط١، ١٩٩٣، ١/ ٧٧٧.
- منتخبات التواريخ لدمشق، محمد أديب آل تقي الدين الحصني، المطبعة الحديثة - دمشق، ١٩٢٧، ٢/ ٨٤٤-٨٤٥.
- نثر الجواهر والدرر في علماء القرن الرابع عشر، د. يوسف المرعشلي، دار المعرفة - بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص ٤٧٨-٤٧٩.
- وفاة العلّامة الجليل الشيخ سليم البخاري، مجلة المنار - مصر، كانون الأول - ١٩٢٨، م ١٧/ ٦٣٣-٦٣٤.

* * *

حفل استقبال
الأستاذ الدكتور عبود السراج
عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية

انتخب مجلس مجمع اللغة العربية في جلسته التاسعة عشرة المنعقدة (في ٢٦/ ١/ ١٤٣٨هـ- ٢٧/ ١٠/ ٢٠١٦م) الأستاذ الدكتور عبود السراج عضواً عاملاً في مجمع اللغة العربية، ليشغل الكرسي الذي شغر بوفاة الأستاذ الدكتور عزيز شكري، وصدر المرسوم الجمهوري ذو الرقم (٣٧٤) في (١٥/ ١٢/ ٢٠١٦م) بتعيينه.

واحتفل المجمع باستقبال الزميل الدكتور عبود السراج في جلسة علنية عقدها (يوم الأربعاء ١٠/ ٥/ ٢٠١٧م) في قاعة المحاضرات في المجمع، حضرها نخبة من رجال العلم والسياسة والأدب وأصدقاء المحتفى به.

افتتح الجلسة الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس المجمع بكلمة موجزة رحب فيها بالسادة الحضور، مهنئاً الزميل المجمعي الجديد، مباركاً انضمامه إلى مجمع الخالدين.

ثم ألقى الأستاذ الدكتور موفق دعبول كلمته التي تحدث فيها عن الزميل المحتفى به، ونوه بمكانته العلمية والخلقية.

تقدم بعد ذلك الأستاذ الدكتور عبود السراج، وألقى كلمته التي تحدث فيها عن سلفه الراحل الأستاذ الدكتور عزيز شكري.

وننشر فيما يلي كلمات الحفل:

كلمة الدكتور مروان المحاسني
رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق
في حفل استقبال الدكتور عبود السراج

أيها الحفل الكريم

إنها فُرصٌ سعيدةٌ تلك التي تجمعنا بوجوهٍ نَضرةٍ تهتمّ بأمور مجمعنا، وتتحيّن الفرصَ لحضور نشاطاته.

ونحن اليوم نحتفل باستقبال عضوٍ عامل جديد هو الأستاذ الدكتور عبود السراج، الحقوقي الجامعي المتميّز.

ولا شك بأن المجالات الحقوقية تستند إلى مُعظم المكوّنات اللغوية التي يحتاج إليها كل من يسعى إلى توضيح الموضوعات المعقّدة، وصولاً إلى إيجاد الحلول المناسبة لها، مُرتَكِزاً على حُسن البيان، وفصاحة الكلام، وبلاغة التعبير.

إن لغة الحقوق هي لغةُ العقل المُفصِّل للحجج، المرتّب للمعطيات مُتسلسلةً على قواعدَ منطقيةٍ مترابطة، تحُول دون تأصيل الشكوك، وتؤكد إزالة الشبهات.

وحين نتكلّم عن العقل الذي لا بد من اعتباره خلاصةَ إنسانيّةِ الإنسان، يحق لنا أن نتساءل: هل سَيعود هذا العقل إلى سنّ الرشد في زماننا؟

أي هل هو على مسارٍ يستفيد فيه من أثقال ماضيه، معتمداً خبراتِه

المتكاملة، ليصل إلى المكانة التي يستحقّها بقُدرته على التعامل مع الصِّعاب، للوصول إلى ملامسة الحقيقة؟

فإن الحقيقة هي واحدة، والضّلالات كثيرة. وحقيقة الأمر أننا ما زلنا نسير نحو استكمال حداثةٍ انطلقت من حركة التنوير، جاعلةً من مفهوم التقدّم المستمرّ عقيدةً لا يجوز التحوّل عنها، وذلك بالاعتماد على العقل للتخلّص من ضغوط الطبيعة، مستندين إلى العلوم الحديثة، والتقانات المتفرّعة عنها في سباقٍ مستمرّ نحو ما نظُنّ أن فيه سعادة البشرية.

وقد بدأنا نشعر بتراجع قيمة الإنسان بعد استيلاء عالم التقانة على المنطلقات الإنسانية العميقة، الحاملةِ للرموز وللقيم، والملأى بتوهّجات المشاعر، إذ إن عالم التقانة يثابر على تطوير الوسائل، التي تؤدي إلى إنتاج وسائلَ أقوى، في مسارٍ تصاعديّ لا غاية له سوى التسلّط على أهم مكوّنات إنسانية الإنسان، وهي مكوّنات أخلاقياته التي يتحكّم بها العقل.

وهذا المسار التصاعدي غير الواضحِ الأهداف، قد بدأ يفرض وجوده في الحياة اليومية للشعوب التي لم تساهم في تطوره، وذلك باقتحام لُبِّ الشخصية الثقافية للأفراد في مجتمعاتنا، بما يعكرّ صفاء لغتنا، وهي عماد هُويَّتنا، حتى يُصبح الإنسان مخلوقاً افتراضياً، سريرته معروضةٌ على غمامة الشبكة العنكبوتية، حيث يجري تخاطبها مع الآخر.

وأما عالم الحقوق فلا بُدَّ لنا من تأكيد قناعتنا بأنه مازال عالَماً إنسانياً، يدافع عما نشأنا عليه من قيمٍ واعتبارات وعلاقات، نابعةٍ من أعماق حضارتنا العربية الإسلامية، التي بُنيت مجتمعاتنا على أُسُسها، وهي التي تدفعنا دوماً إلى إحقاق الحق متى وجدنا إلى ذلك سبيلاً، وإلى نَجدة الضعيف وصَون مجتمعنا من الانجرار في الانحرافات الكاذبة للحداثة، خوفاً من النكوص إلى متاهاتِ الاستخفاف بالقيم، والغَرَق في أمواج الأثرة والتضليل.

وسوف يبقى مجمعنا حريصاً على تفهّم حقائق تراثنا، ليعتمدها مَشاعِلَ تنير مسارنا في التطابق مع معطيات الحداثة لنستطيع أن نعيش في مِلء حاضرنا وليس في معازل التعصّب الخانقة.

أيها السيدات والسادة

قبل أن يتكلم الأستاذ الدكتور عبود السراج عن سلفه المجمعي الكبير الأستاذ الدكتور عزيز شكري رحمه الله، اسمحوا لي أن أخرج عن المألوف، وأسبقه بعرض نظرتي الشخصية إلى فقيدنا.

فقد عرفته في الثمانينيات من القرن الماضي، خلال زيارةٍ قصيرة قُمت بها لجامعة الكويت، وعرفت فيه مثقفاً سوريًّا أثبت لنفسه مرتبةً تدريسية عالية، بفضل علمه ولغته، التي ضمّ إليها تعمّقاً في اللغة الإنكليزية، الغالبة على جامعات الخليج، وهي ضرورية لمن يتولّى تدريس الحقوق الدولية.

ثم التقينا في رحاب مجمعنا، حيث كان عضواً بارزاً في مناقشة الموضوعات في مجلس المجمع، يُدلي بالآراء الواضحة مع النقد اللطيف الذي يميز شخصيته.

وكان كذلك مُصِرًّا على التعاون مع زملائه المجمعيين في إنجاز الموسوعة العربية، التي أوصلها إلى القريب من تمامها.

ولقد ترك رحمه الله انطباعاً لا ينسى في جميع مجالات العمل المجمعي.

وأترك الكلام الآن للأستاذ الدكتور موفق دعبول عضو المجمع ليقدم لنا السيرة الذاتية لزميلنا المجمعي الجديد... فليتفضل.

كلمة الدكتور موفق دعبول
في حفل استقبال الدكتور عبود السراج

أيها السيدات والسادة

السيد الأستاذ الدكتور مروان المحاسني، رئيس مجمع اللغة العربية

السادة الزملاء أعضاء المجمع

السيدات والسادة الحضور

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد،

فإني أشكر لكم اهتمامكم بهذه المناسبة، مناسبة استقبال عضو جديد في المجمع هو الأستاذ الدكتور عبود السراج..

وإني أشكر السيد رئيس المجمع لاختياري لتقديم العضو الجديد إليكم، أمرٌّ على شخصيته وتميزه وتألقه وإنجازاته.. أعرّفكم به، وإن كنت أعتقد أن الحاضرين أو على الأقل جلّهم، يعرفون الدكتور السراج، وربما يعرفه بعضهم أكثر مما أعرف، فعذراً لهؤلاء...

وإني أرجو أن أتمكن من تسليط الضوء على القليل من سيرته، آملاً أن أوفّيه بعض حقّه.

ولعلّ بعضكم يتساءل لماذا اختارني رئيس المجمع لأقدّم الدكتورَ السراج، إذ إنّ اختصاصي العلمي هو في أحد العلوم البحتة، في حين

اختصاص الدكتور السراج هو في الحقوق.. هذا صحيح، غير أننا نشترك بأمر هام هو عشق اللغة العربية. وفضلاً على ذلك، التواصل فيما بيننا، يمتد إلى ما يزيد عن ثلاثين سنة.. كنا معاً أعضاء في بعض لجان التعليم العالي. وكنت أرسل إليه البحوث العلمية في الحقوق للتحكيم والنشر في مجلة جامعة دمشق للبحث العلمي، إذ كنت وقتها رئيس تحرير هذه المجلة.. ثم في مجلس جامعة دمشق حيث كان عميداً لكلية الحقوق.. وإنّا معاً عضوان في مجلس أمناء مؤسسة القدس...

وامتدت الصلة بيننا لتصل إلى زيارات متبادلة وإلى لقاءات بمناسبات عدة، فأتاحت لي هذه الزيارات المزيد من المعرفة عن شخصيته وعن أفراد أسرته، وخاصةً زوجته الأستاذة القديرة الدكتورة سلوى الشيخ..

وإني أنتهز المناسبة الآن لأحدّثكم عن الملامح الهامة لشخصية الدكتور السراج..

إن أول ملامح هذه الشخصية هو الهدوء والثقة بالذات، وإذا ما تحدث، فإن عباراته واضحةٌ ومدروسة، وأفكاره مستندة إلى رؤية موضوعية، وقلّما يغضب بانفعال، بل يقتصر الأمر على ارتفاع بسيط في صوته.

وهو حسن التواصل مع الآخرين إلى حدٍّ بعيد، وعندما يكون هناك حوار حول فكرة ما، فإننا قد نختلف بعض الشيء، اختلافاً لا يفسد للودّ قضية، ولا يصل أبداً إلى درجة الخلاف. وكم يكون هذا الاختلاف مفيداً في تقديم مزيد من الإيضاح للفكرة المطروحة..

وأما عن علاقته بزوجته فهي علاقة تكاملية، ليس فيها تسلط من طرف على آخر...

وهذا لا يعني أن كلًّا منهما نسخة عن الآخر، بل قد يحصل اختلاف يساعد على الوصول إلى رؤية واحدة.

اسمحوا لي الآن أن أبدأ الحديث عن حياة الدكتور السراج، قبل الحديث عن إنجازاته العلمية ونشاطاته على المستوَيَيْن العربي والدُّولي..

وُلد العضو الجديد في مدينة دير الزور أواخر عام ١٩٣٦.

حصل على الإجازة في الحقوق عام ١٩٦٠ من جامعة دمشق، ثم على دبلوم الدراسات العليا في العلوم الجنائية عام ١٩٦٨ من جامعة باريس، وعلى دبلوم الدراسات العليا في القانون الخاص عام ١٩٦٩، وعلى دكتوراه في الحقوق عام ١٩٧١ من جامعة باريس «السوربون».

التحق بالتدريس في كلية الحقوق بجامعة دمشق عام ١٩٧١، وأصبح رئيساً لقسم القانون الجزائي عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٩٩.

ثم أستاذاً في كلية الحقوق منذ عام ١٩٨١. تولى منصب عميد كلية الحقوق بجامعة دمشق من عام ١٩٩٩-٢٠٠٣.

وجرى اختياره أستاذاً في الجامعة اللبنانية وجامعات أردنية.

قضى في جامعة الكويت أربع سنوات أستاذاً مساعداً من عام ١٩٧٦-١٩٨٠.

وبعيداً عن الوظائف العلمية والإدارية العلمية في الجامعات، يمارس الدكتور السراج المحاماة والاستشارات القانونية منذ عام ١٩٦٠.

كما شغل منصب قاضٍ في مجلس الدولة من عام ١٩٦٢ إلى عام ١٩٦٤.

يحمل الدكتور عبود السراج وسام «السعفة الأكاديمية» بدرجة فارس من الحكومة الفرنسية، وهو حائزٌ جائزة أفضل أطروحة دكتوراه في القانون الجزائي والعلوم الجنائية لعام ١٩٧١ - كلية الحقوق، من جامعة السوربون.

شارك الدكتور السراج في لجان عديدة منها لجنة إعداد مشروع قانون

العقوبات العسكري السوري، ولجنة إعداد مشاريع قوانين العقوبات والإجراءات الجنائية والمخدرات والأحداث والمخالفات في دولة الكويت، وكان عضو لجنة إعداد تعديل قانون العقوبات، وأصول المحاكمات الجزائية السورية منذ عام ١٩٨١ وعضو لجنة إعداد مشروع القانون الجزائي الدولي والمحكمة الجزائية الدولية عام ١٩٨٣.

- عضو الجمعية الدولية لقانون العقوبات ١٩٧٥-٢٠٠٩.
- رئيس لجنة إعداد مشروع القانون العربي النموذجي الموحَّد للمخدرات، مجلس وزراء الداخلية العرب ١٩٨٣-١٩٨٦.
- رئيس لجنة إعداد مشروع الاستراتيجية العربية لمكافحة الاستعمال غير المشروع للمخدرات والمؤثرات العقلية - مجلس وزراء الداخلية العرب ١٩٨٣-١٩٨٧.
- عضو ومقرر لجنة إعداد قانون المخدرات الجديد في سورية ١٩٩٢-١٩٩٣.
- عضو لجنة تعديل القوانين الجزائية في سورية ١٩٩٥-٢٠٠٩.
- عضو اللجنة المتخصصة في الجرائم المستجدة - مجلس وزراء الداخلية العرب - الأمانة العامة، ١٩٩٣-١٩٩٤.
- عضو مجلس إدارة أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية ١٩٩٦-١٩٩٨.
- رئيس الوفد السوري إلى اللجنة المخصصة لوضع اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الجريمة المنظمة عبر الوطنية والبروتوكولات الملحقة بها في فيينا خلال الأعوام ١٩٩٩-٢٠٠٠-٢٠٠١، والتي انتهت بوضع هذه الاتفاقية والبروتوكولات الثلاثة، والتوقيع عليها

في مدينة باليرمو بإيطاليا، في المدة من ١٢-١٥ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٠.

- رئيس الوفد السوري إلى اللجنة المخصصة لوضع اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، التي انعقدت جلساتها في فيينا، خلال الأعوام ٢٠٠١-٢٠٠٢-٢٠٠٣، والتي انتهت بوضع الاتفاقية وتوقيعها في جزيرة ميريدا في المكسيك، في المدة من ٩-١٢ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٣.
- خبير دوليٌّ معتمد من الأمم المتحدة للمشاركة في لجان تطوير التشريعات الوطنية في الدول الأعضاء واقتراح مشاريع المعاهدات والاتفاقيات الدولية والإقليمية والثنائية، منذ عام ١٩٩٥حتى هذا التاريخ.
- رئيس لجنة وضع قانون العقوبات الجديد في الجمهورية العربية السورية ٢٠١٣-٢٠١٥.
- رئيس تحرير مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية والقانونية منذ عام ٢٠١٣.

أما مؤلفاته العلمية فللدكتور السراج ما يزيد عن عشَرة كتب ومئة بحث منشورة باللغات العربية والفرنسية والإنكليزية في مجلات علمية في مواضيع شتى. ومن أهم هذه الكتب:

- التشريع الجزائي المقارن في الفقه الإسلامي والقانون السوري (جامعة دمشق ٥٣٤ صفحة).
- قواعد الطعن في الأحكام الجزائية (جامعة دمشق ٢٢٥ صفحة).
- علم الإجرام وعلم العقاب (جامعة الكويت ٥٦٨ صفحة).

- قانون العقوبات القسم العام (طبعة أولى ٤١٣ صفحة، وطبعة ثانية ٥٢٤ صفحة - جامعة دمشق).
- الجرائم الاقتصادية (٢٥٠ صفحة - جامعة دمشق).
- الوجيز في علم الإجرام وعلم العقوبات (٢٧٠ صفحة - جامعة دمشق).
- شرح قانون العقوبات - النظرية العامة (٥٢٧ صفحة - جامعة دمشق).
- شرح قانون العقوبات الاقتصادي في التشريع السوري والمقارن (٢٧٦ صفحة - جامعة دمشق).
- المبادئ العامة في قانون العقوبات نظرية الجريمة (٢٦٠ صفحة - جامعة دمشق).
- المبادئ العام في قانون العقوبات نظرية العقوبة (٢٤١ صفحة - جامعة دمشق).
- النظريات الكبرى في علم الإجرام وعلم العقاب (٢٥٤ صفحة - جامعة دمشق) بالاشتراك مع د. صفاء أوتاني.
- قانون العقوبات الخاص - الجرائم الاقتصادية والجرائم الواقعة على الأموال (٣٥٥ صفحة - جامعة دمشق) بالاشتراك مع د. صفاء أوتاني.
- شرح قانون العقوبات العام - القسم العام (٨١٥ صفحة - جامعة دمشق).
- شرح قانون العقوبات الاقتصادي (٤٥٠ صفحة - جامعة دمشق).
- شرح قانون العقوبات الاقتصادي في التشريع السوري والمقارن (٦٣٥ صفحة - جامعة دمشق).

- شرح قانون العقوبات العام (٨٢٧ صفحة - جامعة دمشق).
- وهناك عدد كبير من البحوث باللغات العربية والإنكليزية والفرنسية.

ومن قراءة مؤلفات (الدكتور السراج) من كتب وبحوث، نلاحظ بوضوح تام المسحة الفلسفية والاجتماعية والإنسانية على جميع هذه المؤلفات، والتي أضفت على فهمه العميق للقانون نكهة خاصة.

١- فإذا أخذنا أول كتاب ألّفه تحت عنوان : «التشريع الجزائي المقارن في الفقه الإسلامي والقانون السوري»، الذي قدّم له الأستاذ الدكتور محمد الفاضل، وصدر عن جامعة دمشق في عام ١٩٧٦، ويُدرَّس فيها حتى هذا التاريخ، نلاحظ أن الدكتور السراج يرى في مقدمة هذا الكتاب أن الجرائم في الإسلام هي جرائم أخلاقية، لأن الشريعة في جوهرها ترتبط ارتباطاً كاملاً بالله تعالى، وبضمير الفرد وخُلق الجماعة، والضمير والأخلاق بالمفهوم الإسلامي يقومان على قواعد أساسية حدّدها القرآن والسُّنة، وهي في مجملها ترمي إلى بناء مجتمع إسلامي، مضمونه الرحمة والعدل، مجتمعَيْن بمفهومهما الواسع.

٢- أما المسحة الإنسانية والاجتماعية فتظهر في كتابه «علم الإجرام وعلم العقاب»، الذي صدر عن جامعة الكويت في عام ١٩٨٠. (فالدكتور السراج) ينظر إلى الجريمة بوصفها ظاهرة اجتماعية، ثم يتعمق في دراسة السلوك الإجرامي، ويبيّن أسبابه والوقاية منه، ودور القانون والمؤسسات الحكومية والأهلية في علاجه.

ويشير المؤلف إلى فكرة لها دلالتها عندما يشرح أسباب الجريمة ويحلّلها فيقول:

«وبعد مئة عام من البحث عن أسباب الجريمة يقف العلماء متسائلين: إذا كنا نصِف الشخص الذي يقتل إنساناً في غابة بأنه مجرم ونحكم عليه بالإعدام، فبماذا نصف رئيس دولة عظمى، يصدر أمره عند نهايات الحرب العالمية الثانية بإلقاء قنبلتين ذريتين على مناطق مأهولة بالسكان، وهو يعلم بأنهما سوف تقضيان على الإنسان والحرث والزرع والنسل فيها على مدى عقود طويلة من الزمن؟».

٣- ويتابع (الدكتور السراج) مسيرته الإنسانية في كتابه: «شرح قانون العقوبات العام» الذي صدر في طبعته الخامسة عن جامعة دمشق في عام ٢٠١٤. فبعد أن يشرح أركان الجريمة وقواعد العقاب ويناقشها ويحلّلها، يؤكد أهمية إعمال «مبدأ تفريد العقاب» الذي نوديَ به مع إعلان شِرْعة حقوق الإنسان. ويهدف هذا المبدأ إلى ضرورة «تأهيل المجرم اجتماعيًّا لإعادة إدماجه في المجتمع من جديد، لأن الجريمة كما يقول (لومبروزو) تمثل الماضي، أما المجرم فيمثل المستقبل، أو كما يقول علماء الاجتماع، وعلى رأسهم (أوغست كونت): «إن السلوك الإجرامي هو سلوك إنساني».

٤- ثم يجمع (الدكتور السراج) القانون والاقتصاد والسياسة في كتابه «شرح قانون العقوبات الاقتصادي» الذي صدر في طبعته الأخيرة عن جامعة دمشق في عام ٢٠١٠. ونقتطف من هذا الكتاب تحليل المؤلف للأزمات الاقتصادية العالمية، وانعكاساتها السياسية والاجتماعية على الإنسان والمجتمع والدولة. فهو يقول

في مقدمة كتابه: «لقد استطاعت الدول الرأسمالية أن تتجاوز الأزمات الاقتصادية الكبرى، ومنها أزمة عام ١٩٢٩، وأزمتيْ الحربين العالميتين الأولى والثانية، بإعادة توزيع المستعمرات والأسواق المالية العالمية، والقيام بامتدادات جغرافية بغية الاستيلاء على الثروات الاستراتيجية وعلى رأسها النفط. وقد تطلّب ذلك افتعال حروب في أماكن مختلفة من العالم، منها حرب الخليج الأولى والثانية، وحروب سرِّية في عدد غير قليل من دول العالم. إلى أن جاءت هجمات ١١ أيلول عام ٢٠٠١، التي تبعتها الحرب على أفغانستان ثم العراق واحتلالهما عسكريًّا بحجة مقاومة الإرهاب ومنع امتلاك أسلحة الدمار الشامل».

ويكتفي (الدكتور السراج) بالإشارة إلى الأزمة المالية العالمية لعام ٢٠٠٨ مجرد إشارة سريعة لأن نتائجها لم تكن معروفة بعد.

لقد صدر كتابه مع بداية أحداث ما سمي بالربيع العربي، فهل في نيّته عندما يُصدر طبعة جديدة من كتابه في المستقبل أن يقول إن أحد الأسباب الهامة لما جرى ويجري حالياً في دول عربية من قتل ودمار وتقسيم وتجزئة وتمزيق وهجرة هو نتيجة للأزمة المالية العالمية لعام ٢٠٠٨؟

لقد فرغت خزائن المصارف الأمريكية في عام ٢٠٠٨، وكان الحل لهذه الأزمة في إعادة مَلْء هذه الخزائن. وهكذا تدفق السلاح المصنّع في الدول الرأسمالية الكبرى إلى المنطقة العربية كالطوفان، ثم تبعه بالمقابل تدفق الأموال العربية كالطوفان إلى خزائن الدول التي تاجرت بالسلاح.

أيها الحضور الكرام:

هذا هو الأستاذ الكبير الدكتور عبود السراج الذي انضم إلى زملائه أعضاء

المجمع. وإني آمل أن يكون رفداً هامًّا لهذا المجمع يشاركه في مسيرته لأداء دوره الهام في شأن من أهم شؤون بناء الأمة، حفاظاً على لغتها.. وهي العنصر الأهم في بناء هذه الأمة.. ولا خير في أمة لا تحافظ على لغتها مستجيبة للحاجات المتزايدة لجعل هذه اللغة متلائمة مع التطور الحضاري...

إني أُهنّئ الصديق العزيز الأستاذ الدكتور عبود السراج بانضمامه لهذا المجمع (الذي كان الأستاذ الراحل الدكتور شاكر الفحام ينعته بمجمع الخالدين)، وأُهنّئ المجمع بهذا العضو الجديد.

أشكر لكم حسن إصغائكم والسلام عليكم ورحمة الله

* * *

كلمة الدكتور عبود السراج
في حفل استقباله يتحدث فيها
عن سلفه الدكتور عزيز شكري

أيها السيدات والسادة

الأستاذ الدكتور مروان المحاسني رئيس مجمع اللغة العربية

السادة الزملاء أعضاء المجمع ...

الزملاء والإخوة المحاضرون...

أتقدم أولاً بجزيل شكري وخالص تقديري لزملائي أعضاء مجمع اللغة العربية، الذين شرفوني بانتخابهم لي للانضمام إليهم، وأسأل الله تعالى أن أكون في المستقبل عند حسن ظنهم وعظيم ثقتهم.

كما أشكر صديقي وزميلي الأستاذ الدكتور موفق دعبول على تقديمه لي بما يكرمني ويشرفني، وهو خير من يعرفني في صداقة تجاوز عمرها ثلاثة عقود.

منذ طفولتي وأنا شغوف باللغة العربية، ربما لأنني نشأت في أسرة تقرأ القرآن الكريم، وتردد الأحاديث النبوية الشريفة، وتراجع أحداثاً من تاريخ العرب والإسلام. لذلك لم أكن أتجاوز العاشرة من عمري عندما كنت أحفظ أجزاءً من القرآن والحديث، وغير قليل من التاريخ الإسلامي.

وعلى الرغم من وجود مكتبة واسعة في منزل العائلة الكبير، فإنني كنت كثيراً ما أستأجر كتباً من مكتبة متخصصة بكتب الأدب العربي القديم، أو أستعيرها من مكتبة المدرسة أو مكتبة الأوقاف في دير الزور. وعندما أصبحت طالباً في كلية الحقوق بدمشق، بدأت بالتردد على المكتبة الظاهرية والمركز الثقافي العربي في أبي رمانة، كلما سنحت لي الفرصة بذلك.

بدأت صلتي بمجمع اللغة العربية عندما دعاني أستاذي الكبير وصديقي الدكتور عبد الوهاب حومد إلى حضور حفل استقباله في المجمع، وكان ذلك في السادس عشر من شهر تشرين الأول عام واحد وتسعين وتسعمئة وألف، في قاعة محمد كرد علي بالمدرسة العادلية بدمشق؛ ومنذ ذلك التاريخ وأنا أتابع أخبار المجمع ونشاطاته، وأقتني عدداً من مطبوعاته.

أود أن أكون صريحاً معكم أيها السادة، وأنا أتحدث عن حال اللغة العربية، لأقول: إننا أمام طريق شاقٍ وطويل، فيكفي أن نقرأ أو نسمع في وسائل الإعلام، أو في محاضرة تلقى في ندوة أو في مركز ثقافي، حتى نشعر بالإحباط. وأنا شخصيًّا أعترف بما كان يصيبني من همٍّ وغمٍّ، حين كنت أصحح الأوراق الامتحانية لطلاب كلية الحقوق على مدى نصف قرن من الزمن، وأكتشف أمية المتعلمين وعجزهم عن فهم لغتهم وحفظها، وحتى عن مجرد محاولة تَعَرُّفها وهي بين أيديهم. كما أكتشف وجود ارتباط شديد وبصورة دائمة بين تدني مستوى اللغة العربية في الورقة الامتحانية وضحالة الإجابة العلمية على الأسئلة المطروحة في الامتحان.

جميعنا يعلم أن منهجية تعليم اللغة العربية في مدارسنا قاصرة. فتعليم اللغة يجب أن يبدأ من داخل الأسرة، وأنّ مرحلة التعليم الأساسي هي المرحلة الحاسمة في حياة التلميذ، ولكن هذا، ويا للأسف، لم يتحقق،

ليس في سورية فحسب، وإنما في الدول العربية الأخرى التي زرتها جميعاً. إن المِعْوَل الذي يُهدِّم اللغة العربية في مجتمعاتنا هي العامية التي يحملها إلينا الجهل والأمية والشارع والتلفاز والسينما والمسلسلات العربية... وحتى في الجامعات نلاحظ أن عدداً غير قليل من أساتذتها يلقون محاضراتهم بالعامية، أو إذا حَسُن الحال بخليط من الفصحى والعامية.

وأمام هذا الواقع المؤلم، كثيراً ما تساءلتُ: هل اللغة العربية صعبة ومعقدة إلى الحدِّ الذي يجعلها عسيرة المنال حتى على المتعلمين والدارسين وحملة الشهادات الجامعية؟

ولكن سرعان ما أعود إلى الحقيقة والواقع: المشكلة فينا نحن وليس في اللغة العربية.

فإذا ما رجعنا إلى أجدادنا العرب، نجد السواد الأعظم منهم كانوا أميين، ومع ذلك فهم يتقنون لغتهم أباً عن جدّ، ثم يصبحون أدباء أو شعراء أو رواة أدب وشعر وتاريخ. وجميعنا يعلم أن نزول القرآن على العرب لم يكن صدفة؛ إنه تنزيل من رب العالمين.

إن من يعرف اللغة العربية حق المعرفة، ويكتشف أسرارها، ويتذوق جمالها، سوف ينتهي إلى القول: إن لغةً كهذه لا يمكن أن تصدر إلا عن شعوبٍ وأقوامٍ على درجة عالية من الحضارة الإنسانية. لذلك أنا أرفض المقولة التي يرددها البعض من أن العرب كانوا قبل الإسلام غارقين في عصر الجاهلية. إن هذه المقولة باطلة يرفضها العقل والمنطق، وتدحضها الحقائق العلمية والتاريخية. نحن أيها السادة من يعيش في عصر الجاهلية.

يسعدني أن أتحدث في هذا الخطاب عن سلفي في مجمع اللغة العربية، زميلي وصديقي، الأستاذ الدكتور محمد عزيز شكري، الذي جمعتني به مراحل من حياتنا تتشابه على مدى نصف قرن من الزمن.

نحن في سن متقاربة، سبقني د. عزيز بسنة واحدة في المدارس. حصل على الثانوية العامة في فرع الاجتماعيات عام خمس وخمسين وتسعمئة وألف، وأنا حصلت على الثانوية العامة في فرع الاجتماعيات بعد عام واحد.

تخرج د. عزيز من كلية الحقوق في الجامعة السورية عام تسعٍ وخمسين وتسعمئة وألف. كان مجلس الدولة حينها حديث النشأة في سورية ويعين قضاته من بين الخريجين الأوائل، فعُيِّن د. عزيز عضواً في مجلس الدولة. ولكنه لم يلبث فيه غير بضعة أشهر حتى اختارته وزارة التربية والتعليم والجامعة السورية لمنحة لدراسة القانون الدولي في أمريكا، قدمتها إلى سورية جمعية أصدقاء الشرق الأوسط. وقد سافر د. عزيز إلى أمريكا في الشهر الرابع من عام ستين وتسعمئة وألف.

أنا تخرجت من كلية الحقوق بعد عام واحد. عُينت عضواً في مجلس الدولة، وعُرضتْ عليّ منحة مقدمة من جمعية أصدقاء الشرق الأوسط لدراسة العلوم السياسية في أمريكا، ولكني آثرت التريث لأن هدفي الذي كنت أعمل له منذ طفولتي هو دراسة القانون. وهذا ما حصل فعلاً عندما انتقلت من مجلس الدولة إلى كلية الحقوق معيداً في قسم القانون الجزائي، ثم سافرت إلى فرنسا لإتمام تحصيلي.

خطا د. عزيز في أمريكا خطوات موفقة؛ حصل على الماجستير من جامعة فيرجينيا، ثم الدكتوراه من جامعة كولومبيا، وبينهما تزوج من السيدة ملك العاني التي أمضت جزءاً من طفولتها وتعليمها في أمريكا إلى أن تخرجت من كلية الدراسات الدولية في جامعة جورج تاون بواشنطن. وبعد سنة واحدة من زواجهما رُزِقا وَلَدَهما عمر.

أنهى د. عزيز دراسته في أمريكا بسرعة قياسية، فبعد أربع سنوات

وخمسة أشهر من تاريخ إيفاده عاد إلى دمشق وهو يحمل شهادة الدكتوراه في القانون الدولي. والتحق بكلية الحقوق في الشهر التاسع من عام أربعةٍ وستين وتسعمئة وألف، وكنت يومها معيداً في كلية الحقوق في انتظار الإيفاد. تعرفت بالدكتور عزيز في الساعة الأولى لوصوله إلى كلية الحقوق، ومن يومها انعقدت بيننا صداقة استمرت نصف قرن من الزمن.

عُيِّن **معيداً** في الكلية لأنه لم يمض على إيفاده خمس سنوات، ولكنه عُيّن مدرِّساً فيها عندما أتم السنوات الخمس.

حينما عدتُ من فرنسا كان د. عزيز معاراً لجامعة الكويت، وبعد خمس سنوات لحقتُ به معاراً أيضاً لجامعة الكويت، فسكنّا في منزلين متجاورين إلى أن غادر الكويت في عام سبعة وسبعين وتسعمئة وألف. بعد عودتي من الكويت عام ثمانين وتسعمئة وألف افتتحت الجامعة الأردنية في عمان قسماً للدراسات العليا في كلية الحقوق، فطلبتْ منا نحن الاثنين والدكتور كمال الغالي،أن نُدرِّس في درجة الماجستير يوماً واحداً في الأسبوع، فصرنا نسافر إلى عمان كل أسبوعٍ على مدى سنة كاملة.

تولى د. عزيز عدداً من المناصب غير ما ذكرتُ؛ فعمل عميداً لكلية الحقوق بجامعة دمشق عام ستةٍ وثمانين وتسعمئة وألف، ولمدة ثماني سنوات، وعميداً لكلية العلاقات الدولية والدبلوماسية في جامعة القلمون الخاصة في عام اثنين وألفين، ثم مديراً عامًّا لهيئة الموسوعة العربية من عام أربعة وألفين، إلى أن وافته المنية في العاشر من كانون الأول عام ألفين واثني عشرة.

كما عمل مستشاراً قانونيًّا لوزارة الخارجية السورية، ولجامعة الدول العربية، ولحكومة الكويت، وشارك في عدد كبير من المؤتمرات العربية والدولية.

للدكتور عزيز عدد كبير من الكتب والبحوث المنشورة، أكثرها في

القانون الدولي، كما كتب في القضية الفلسطينية عندما عمل محرِّراً مؤازراً في الموسوعة الفلسطينية.

ومع أن مؤلفاته تستحق قدراً كبيراً من الدراسة والتحليل، فإني سوف أتوقف عند كتابين يمثِّلان كل ما كتب في نصف قرن من الزمن.

الكتاب الأول هو: كتاب «التنظيم الدولي العالمي»، باكورة كتبه؛ ألَّفه في الكويت، في عام ثلاثةٍ وسبعين وتسعمئة وألف، شارحاً فيه التنظيم الدولي نظريًّا وواقعيًّا، مع قسم يتعلق بحقوق الإنسان والحريات العامة.

وهو يقول في مقدمة كتابه: فمؤلَّفي هذا هو كتاب مدرسي أُعد لدارسي المنظمات الدولية في الجامعات العربية، سواء في كليات الحقوق أو العلوم السياسية والعلاقات الدولية. وما اعتبره من مميزات لهذا المؤلَّف - كما يقول د. عزيز - يمكن تحديدها في نقطتين: أولاهما بساطته، وثانيهما محاولته معالجة المنظمات الدولية من جانبيها النظري والعملي بتوازن معقول.

وأقول أنا في تقييمي لهذا الكتاب: إنه قاموس يستحق أن يرجع إليه أي طالب أو دارس أو باحث يريد أن يتعرَّف البنيانَ التنظيمي للأمم المتحدة وفروعها ووكالاتها المتخصصة، ودورَ الأمم المتحدة في حفظ السلام والأمن الدوليين.

وآخر ما كتبه د. عزيز كتاب «الإرهاب الدولي - دراسة قانونية ناقدة»، وهو كتاب صدر عن دار العلم للملايين في بيروت عام اثنين وتسعين وتسعمئة وألف، وقدَّم له الدكتور سليم الحص رئيس مجلس الوزراء اللبناني.

وقد أُعد هذا الكتاب أصلاً باللغة الإنكليزية عندما أوفد الدكتور عزيز بمنحة من مؤسسة فولبرايت الأمريكية، لمدة سنة واحدة أمضاها في جامعة هارفارد لإعداد هذا الكتاب، الذي نُشر في الولايات المتحدة الأمريكية، عام واحدٍ وتسعين وتسعمئة وألف.

لقد قرأت هذا الكتاب باللغتين الإنكليزية والعربية، وأستل منه الأفكار والعبارات الآتية:

يقول الدكتور عزيز:

«فالإرهاب يظل شعاراً سياسيًّا يجري استخدامه بشكل عشوائي وكيفي وانتقائي لضرب حركات التحرر الوطني في مناطق معينة من الكرة الأرضية... فإرهاب الدولة العابر للحدود لافتة سياسية يتم خلفها ارتكاب جرائم أكثر فظاعة، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، على يد عملاء الدول... لحساب هذه الدول أو بالنيابة عنها... تحت مختلِف الأقنعة، مثل «العمليات السرية»، و«الحرب ذات الشدة المنخفضة»، و«الدفاع عن الحرية والديمقراطية في الدول الأخرى»... إن عملاء هذه الدول يرتكبون جرائم خطيرة ضد حكومة وسكان دولة أخرى مثل: إبادة الجنس البشري، والفصل العنصري، واحتجاز الرهائن بالجملة، وباختصار كل جرائم الحرب الأخرى أو - كما تقول «قوانين جنيف» - كل الخروقات و«الانتهاكات الجسيمة»، بغرض خلق حالة من الرعب في أذهان القادة أو الناس في الدولة الضحية (وأحياناً في أذهان قادة وشعوب دول أخرى) لتحقيق نتيجة معينة بالقوة».

وهنا يضرب الدكتور عزيز مثلاً بالغارة الجوية الأمريكية على طرابلس وبنغازي في عام ستةٍ وثمانين وتسعمئة وألف، والتي لم تكن تضع نصب عينيها الرئيس معمَّر القذافي باعتباره الدماغ المخطط أو المحرّض المزعوم على الإرهاب في العالم الغربي.... بيد أن عنف الغارة ووحشيتها جعلت من الواضح أن السكان المدنيين في المدينتين وفي ليبيا كلِّها، هم أهداف الغارة، وذلك بهدف واضح بجلاء تام، وهو خلق حالة من الخوف والفزع والرعب في قلوب وأذهان المدنيين الأبرياء. وكانت الفكرة هي إفهامهم

بأنهم حتى لو نَجْوا من الموت أو الإصابة بجراحٍ، فإن المزيد من العقاب الثقيل قادم إليهم على يد «العم سام» ما لم يُسقطوا الرئيس القذافي».

ثم يتابع الدكتور عزيز قوله: «فإذا لم يكن هذا إرهاباً، فما هو الإرهاب؟ وإذا كان اغتيال المئات من الفلسطينيين، وجرح واعتقال عشرات الألوف منهم في السنة الأولى وحدها من الانتفاضة على يد القوات النظامية الإسرائيلية والمستوطنين اليهود في الضفة الغربية وغزة... ليس إرهاباً فما هو الإرهاب؟

إن الثأر والانتقام والعقاب كُلّها خارجة عن القانون بموجب ميثاق الأمم المتحدة... وإن فشل مجلس الأمن حتى الآن في الحفاظ على السلام والأمن الدوليين، كان سببه الرئيس خيانة بعض أعضائه الدائمين لمسؤوليتهم؛ إذ إنهم قادرون على منع المجلس - وقد منعوه فعلاً - من أداء واجباته طبقاً لقانون دولي مناسب حسب الأصول».

وأنا أشارك الدكتور سليم الحص حينما يؤيد في تقديمه للكتاب، جوهر ما انتهى إليه الدكتور عزيز في كتابه، وخاصة عندما يروي الدكتور الحص الواقعة الآتية:

«على أثر عملية خطفٍ تعرض لها أحد المواطنين الأمريكيين في بيروت، قال وزير الخارجية الأمريكي آنذاك (جورج شولتز) ما معناه: إن الوضع المتسيّب في العاصمة اللبنانية هو أشبه بوباء الطاعون، وإن أهل بيروت مسؤولون عن هذه الحال، وإنه يقتضي، ما دام الأمر كذلك، أن تُعزل هذه المدينة ويفرض الحجر عليها».

ثم يتابع الدكتور الحص تعليقه على هذه الواقعة فيقول: «... إذا كانت الدولة في لبنان عاجزة أو غير موجودة عمليًّا، والحكومة ممزقة وغير فاعلة،

فما ذنب الشعب اللبناني الطيب؟ وهل هو مسؤول وحده عما يحصل في لبنان؟ أليس للقوى الإقليمية، ومن ورائها القوى العالمية يدٌ فيما حصل في لبنان خلال سنوات الأزمة؟ ألم يكن هناك تدخل مباشر من قبل أجهزة تلك الدول السرية في إضرام النار؟ ألم يكن لإسرائيل اليد الطولى في تحريك عملائها لإذكاء الصراع والمشاركة فيه؟ لقد عانى اللبنانيون الأمرَّين من السياسة الأمريكية في تغطيتها للعدوان الإسرائيلي عليهم... فبدلاً من الدعوة إلى فرض العزل والحجر على البلد الصغير، أليس من الأولى الدعوة إلى تحري أسباب مرضه ومساعدته في التغلب على هذا المرض»[1].

رحمك الله يا أبا عمر... ماذا ستقول، لو كنت حيًّا، في هذه الأيام التي نمر بها، عما فعله بنا إرهاب الدول المتحضرة التي اعتادت المتاجرة بالدم والسلاح وحقوق الإنسان: لقد احتلتْ أرضنا، وانتَهكت سيادتنا، وخرقت جميع القوانين والمواثيق الدولية عندما اعتدت على وطننا باسم الحرية والديمقراطية والدفاع عن الشعب السوري. أي دفاع هذا بعد أن قتلوا مئات الألوف من أبنائنا، وشردوا الملايين من شبابنا، ودمروا وأغرقوا وقسموا ومزقوا وطناً ليس ككل الأوطان... كان مَضْرِب المثل في أمنه وسلامه، ووداعة شعبه، وعذوبة فراته، وجمال شامه، ورائحة ياسمينه...

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

* * *

(١) كتاب الإرهاب الدولي... ص ٧ و٨.

من قرارات مجلس المجمع
في الألفاظ والأساليب(*)

(١٤٥)[1]
أُهْبَة لا (أَهُبَّة)

١- المسألة:

يستعمل بعض المتحدثين كلمة (أَهُبَّة) من مثل قولهم: «هو على أَهُبَّة الاستعداد» بفتح الهمزة وضم الهاء وتشديد الباء.

٢- الاقتراح:

وهو استعمال خاطئ لأن ضبط هذه الكلمة هو (أُهْبَة) بهمزة مضمومة وهاء ساكنة وباء مفتوحة، وهي على زنة (فُعْلَة).

٣- التعليل:

والأُهْبَة هي القدرة، يقال: «أخذ للأمر أُهْبَته» أي استعدَّ له، وتجمع الأُهْبة على أُهَب.

ولم يُسمع خلاف في ضبط هذه الكلمة على حدِّ علمنا.

العضو: د. ممدوح خسارة

(*) هذه قرارات مجلس مجمع اللغة العربية بدمشق، وهي قابلة للتعديل في مؤتمر المجمع. (يرجى ممَّن له ملاحظات عليها أن يتفضل بإرسالها إلى المجلة).

(١) سبق أن نُشر في المجلد ٨٨/ ١ في الصفحة ٢١١ قرارات في الألفاظ والأساليب أرقامها (١-١٥) وتكرر نشرها سهواً في المجلد ٩٠/ ٢ في الصفحة ٥٥٨، لذا سيبدأ الترقيم في هذا الجزء من القرار (١٤٥).

٤- قرار اللجنة:

الضبط الصحيح للكلمة هو (أُهْبَة) لا (أَهُبَّة).

* * *

(١٤٦)

البَدْلة بمعنى الحُلَّة

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي كلمة (البَدْلة) بمعنى الحُلَّة، أو دثار من قطعتين متجانستين هما سروال وسترة أو أكثر، ولم تذكر المعاجم القديمة لها هذه الدلالة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «البَدْلة» بمعنى الحُلَّة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: ليس في لسان العرب كلمة (البَدْلة) بهذا المعنى، ولكن فيه: «البِذْلة والمِبْذَلة من الثياب: ما يُلبَس ويمتهَن ولا يصان».
- تاج العروس: «وقول العامة (البَدْلة) بالفتح وإهمال الدال للثياب الجدد خطأ، والصواب بكسر الموحدة [الباء] وإعجام الذال، وأنه اسم للثياب الخَلَق، وقد تجمع البِذْلة على بِذَل».
- المعجم الوسيط: «البَدْلة: الحُلَّة تُلْبَس خارج البيت عادة (محدثة)».

وجاء فيه: «البِذلة من الثياب ما يُلبس في المهنة والعمل ولا يصان، ج. بِذَل».

وجاء فيه: «الحُلَّة: الثوب الجيد الجديد غليظاً أو رقيقاً، وثوبٌ له بطانة، وثوبان من جنس واحد، وثلاثة أثواب وقد تكون إزاراً ورداءً».

وواضح أن المعجم الوسيط قد أثبت هذه الكلمة بهذه الدلالة المحدثة.

ب- في اللغة والاشتقاق:

١. يمكن تسويغ قبول كلمة (البدلة) بالدال بمرورها بمرحلتين: أولاهما: الإبدال اللغوي، وذلك إبدال الذال من (بذلة) دالاً، وهذه ظاهرة فاشية في العربية مثل: خرذَلَ اللحم وخردَله: قطعه وفرَّقه، ومثل: الحرذون والحردون. ويعضد هذا التسويغ أن الكلمة تنطق في مصر (بِدلة) بكسر الباء ويجمعونها على (بِدَل)، وهو بناء جمع (بِذْلة) أيضاً.

وثانيتهما: توسيع دلالة الكلمة، فبعد أن كانت (البذلة) تعني ما يُلبس في العمل ولا يصان، أي لا يلبس فوقه ما يحميه، صارت تعني ما يلبس عامة بقطع النظر عما إذا كانت (البدلة) مؤلفة من قطعة أو قطعتين أو أكثر.

٢. يمكن تسويغ هذه الكلمة بأنها مصدر من الفعل (بَدَلَ) الذي كثيراً ما يستعمل في مجال الثياب. جاء في المعجم الكبير: «بَدَلَ الشيءَ بغيره يَبدُلُه بَدْلاً: جعله عوضاً عنه، يقال: بدل الثوب الجديد بالثوب القديم».

ومما قد يعضد هذا التعليل أن الناس في الشام يسمُّون اللباس الداخلي (غِياراً)، فكأن للتبديل والتغيير صلة خاصة باللباس لأنه عرضة للتبديل والتغيير أكثر من سواه.

ج- في الاستئناس:

تكررت الكلمة مئات المرات في كتب ما بعد عصر الاحتجاج أهمها:

- الكامل في التاريخ لابن الأثير ٣/ ١٧١: «وأَلْبَسَتْها أمُّ جعفرٍ البَدْلةَ اللؤلؤية الأموية».

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ٣/ ٥٣: «ثم يؤمر بشدِّ المظلة التي تُشاكل تلك البدلة».
- المواعظ والاعتبار للمقريزي ٢/ ٢٢: «وهذه البدلة لم تكن فيما تقدم في أيام الفضل.. بدلة مذهَّبة مبلغها تسعون ديناراً ونصف».
- سير أعلام النبلاء للذهبي ٢٥/ ٤٣٣: «كان ابن أبي عقيل يبعث من صُور إلى الشيخ أبي إسحاق البَدْلة والعمامة المثمَّنة».
- كتاب الاعتبار لابن منقذ ١/ ٣١: «وبدلة الثياب أفضل من البدلة الأولى».

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «البَدْلة» بمعنى الحُلَّة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

* * *

(١٤٧)

برهنَ على صحة النظرية
وبرهن صحة النظرية

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم عبارة: «برهن صحة النظرية» والصواب عندهم: «برهن على صحة النظرية»، لأن الفعل (برهن) فعل متعدٍّ بـ (على).

٢- الاقتراح:

عدم جواز قولهم: «برهن صحة النظرية»، والصواب: «برهن على صحة النظرية».

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- الصحاح: «برهن عليه: أقام عليه الحجة».

- لسان العرب: «برهن يبرهن برهنة: إذا جاء بحجة قاطعة»، أي إن الفعل لازم.
- الوسيط: «برهن: أَبْرَهَ أي أتى بالبرهان، ويقال: برهن على النظرية: دلَّل على صحتها». أي إنه جعل الفعل لازماً أو متعدياً بـ (على).

ب- في الدلالة:

لا تحمل تعدية الفعل (برهن) مباشرة دلالة جديدة يمكن أن تضاف إلى الدلالة الأصلية لكي تُسوَّغ التعدية مباشرة.

وأما ما يشيع في نحو قولهم: «برهن أنه صادق»، فيمكن حمله على حذف حرف الجر قبل (أنَّ)، وهو مطَّرد في العربية.

ج- لم تشع هذه الصيغة في كتابات من يمكن الاستئناس بكلامهم إلا ما ورد في معجم العربية المعاصرة.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

عدم جواز مثل قولهم: «برهن صحة النظرية»، والصواب: «برهن على صحة النظرية».

* * *

(١٤٨)

المَبيع والمُباع بمعنى واحد

١- المسألة:

يخطِّئ بعضهم عبارة من مثل: «هذا الجهاز مُباع» بمعنى أنه قد بيع، والصواب عندهم أن يقال: «هذا الجهاز مَبيع»، لأن معنى «أباع الشيءَ» هو عَرَضَه للبيع.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم المَبيع والمُباع بمعنى واحد.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: لم يذكر (أباع) على بناء (أفعلَ) في مادة (بَيَعَ)، ولكن جاء في مادة (أبرَ): «وشبَّه الشافعي ذلك بالولادة في الإماء إذا أُبيعت حاملاً تبعها ولدها، فإن ولدتْه قبل ذلك كان الولد للبائع...وقوله (أباع) لغة في باع، كما قال ابن القطَّاع».
- المعجم الكبير: «أباعَ فلانٌ الشيءَ: باعَهُ».

أي إن ابن القطاع أثبت (أباع) بمعنى (باع). وذكر ذلك ابن منظور ولم يخطِّئها، إذ هي وردت بمعنى (باع) في كلام الشافعي.

ب- في الدلالة:

قال سيبويه (الكتاب ٢/ ٢٣٦): «وقد يجيء فَعَلتُ وأفعلت لمعنى واحد إلا أن اللغتين اختلفتا». أي إن ما جاء على هذين البناءين هو اختلاف لغات من نحو: صدَّه وأَصدَّه، وحزَنَه وأحزنه، وجدَّ وأجدَّ في الأمر. وفي الواقع فإن لفعل (باعَ) بعض الخصوصية:

- فهو يأتي بمعنى (اشترى) أي هو من الأضداد.

- كما أن الصفة المشبهة منه (بَيِّع) تأتي بمعنى اسم الفاعل (بائع) بدليل الحديث الشريف: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا»، مع أن لها معنى آخر هو الجيد البيْع.

- كما أن للفعل (باع) معنى آخر هو (جعلَه يبيع) على القياس.

وهذه الخصوصية لا يفسدها إعطاء دلالة جديدة للفعل (أباع) ليكون بمعنى (باع) لا عرضَ للبيع فقط.

- جاء في كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب (ج٨ ص١٨٨): «اشتد الغلاء بالشام ، وأُبيعتْ غرارةُ القمح بأربعمئة وخمسين درهماً، والشعير بمئتين وخمسين، وأُبيعَ القمح بحماة عن كل مكوك أربعمئة درهم، ثم غلت سائر الأصناف، ومات خلق كثير من الجوع».
- جاء في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع لعلاء الدين الكاساني (٥٨٧هـ) ٨/ ٢٤٦: «فها هنا أمرٌ أن يعمل بالدَّين وبنصف ثمن (المُباع) فما ربح في حصة الدين فهو المدفوع إليه».

ومعنى المباع هنا هو ما قد بيع فعلاً بدليل قوله بعدها: «فما ربح في حصة الدين» لأن الربح لا يُعرف إلا بعد البيع.

- ولا يكاد المعاصرون من الفقهاء والتجار يستعملون (المُباع) إلا بمعنى المَبيع وليس المعروض للبيع.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم المَبيع والمُباع بمعنى واحد.

* * *

(١٤٩)

تَمَتْرَسَ وتَترَّسَ

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي العربي المعاصر الفعل (تَمَتْرَسَ) بمعنى تَترَّسَ أي توقَّى بالتُّرس ونحوه، ويخطئها بعضهم لأنه لم يرد في المعاجم، والصواب عندهم (تترَّسَ).

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: (تَمَتْرَسَ) بمعنى تَترَّسَ أي توقَّى بتُرس ونحوه مما يُتوقَّى به.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «كل شيء تترَّستَ به فهو مِتْرَسَةٌ لك... والتَّتَرُّس: التستر بالتُّرس، وكذلك التتريس، وتترَّس بالترس: توقَّى... والمَتْروسة ما تُتُرِّس به».
- الوسيط: «تترَّسَ: ترَّسَ: توقَّى بالتُّرْس.. والترس: ما كان يُتوقَّى به في الحرب.. المِتراس: ما يوضع في طريق العدو لعرقلته، ج.متاريس (مو). والمَتْرَس والمِترس: الترس».

ب- في الصرف:

الفعل (تترَّسَ) مشتق من اسم الذات (التُّرس)، وهذا الاشتقاق من طرائق العرب في التوليد اللغوي.

أما الفعل (تَمَتْرَسَ) الذي شاع بين المعاصرين فيمكن أن يكون مشتقًّا من مِتْرَسة أو مَتروسة اللذين وردا في اللسان، والأرجح أن يكون مشتقًّا من الاسم (مِتْراس أو مِتْرَس) وهو ما يوضع أمام العدو لعرقلته، فقولهم (تَمَتْرَسَ) يعني توقَّى بالمِترسة أو المَتروسة أو المِتراس أو المِترس، وهو اشتقاق من الاسم المشتق، وهو من سنن العربية في التوليد والاشتقاق، كما في قول العرب (تَمَسْكنَ) اشتقاقاً من المَسكنة أو المسكين، و(تَمَدْرعَ) لبسَ المِدْرعة اشتقاقاً منها.

ج- في الاستئناس:

- أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في كتاب الألفاظ والأساليب العضو: د. ممدوح خسارة ٤/ ٢٣٢.

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: (تَمَتْرَسَ) بمعنى تَترَّسَ أي توقَّى بتُرس ونحوه مما يُتوقَّى به، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

(١٥٠)
ثَلَّجَ وتثليج

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر الفعل (ثلَّجَ) بمعنى بـرَّدَ أو جمَّدَ، ومشتقاته مثل (تثليج ومُثلَّج)، ولم ترد هذه الدلالة للفعل في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «ثلَّج» ومشتقاته بمعنى (برَّدَ و جمَّدَ)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الثلج: الذي يسقط من السماء، معروف. وماء مَثلوج: مبرَّد بالثلج..وثُلِجَ الرجلُ: إذا بردَ قلبُه عن شيءٍ، وإذا فرحَ أيضاً».
- الوسيط: «ثَلَجَ الماءُ ونحوه يَثْلُج ثُلُوجاً: بَرَدَ. وثَلَجَ الماءَ وغيرَه ثَلْجاً: ألقى فيه الثلج. وثَلَجَتِ السماءُ القومَ: ألقت عليهم الثلجَ.. وأَثْلَجَتِ السماءُ: أَمْطَرَتِ الثلجَ.. والثلَّاج: بائع الثلج. والثلَّاجة: جهاز التبريد وحفظ الطعام ونحوه (محدثة)».

وما يتضح من هذا أن القدماء استعملوا الفعل (ثلَجَ) مجرداً متعدياً، أما المحدثون فقد استعملوا الفعل المجرد لازماً بمعنى بردَ، ومتعدياً بمعنى ألقى الثلج في الماء ونحوه لتبريده، كما استعملوا اسم الآلة (الثلَّاجة) واسم صاحب الحرفة (الثلَّاج)، وهي مشتقة من (ثلجَ) المجرد. وأما من مزيده فقد استعملوا الفعل (أثلجَ) في قولهم: «أثلجت السماءُ: ألقت الثلج» ولم يُذكر بناء (ثلَّج) المضعَّف.

ب- في الصرف:

استعمل من هذا الفعل البناء المزيد بهمزة وهو (أثلجَ)، ولم يرد في المعاجم المزيد بالتضعيف منه وهو (ثلَّج) على بناء (فَعَّلَ).

ولكن الزيادة بالتضعيف قياسية في العربية، فلا مانع من هذه الزيادة، كما لم يمنع عدم ورود (أثلجَ) من بنائه عند المحدثين كما في الوسيط: «أثلجت السماءُ: أمطرت الثلج».

ج- في الدلالة:

مما يفيده بناء (فعَّلَ) المبالغة، ومعنى (ثلَّج) هو زيادة التبريد لمبالغة فيه للوصول إلى حالة التجمد. ومما يفيده هذا البناء أيضاً التعدية، فإذا كان معنى ثلجَ الماءُ (بردَ) فإن ثلَّج الماءَ أو الشيءَ هو (جعلَه بارداً إلى درجة التجمد) وهذا ما يُفعل في هذا النوع من المأكولات.

وعلى ما سبق فليس من مانع صرفي أو دلالي يحول دون استعمال هذا البناء بدلالته الجديدة.

د- في الاستئناس:

أجاز مجمع اللغة العربية بالقاهرة في كتاب الألفاظ والأساليب (٤/ ١٤٥) استعمال الفعل (ثلَّج) بمعنى برَّدَ أو جمَّدَ.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «ثلَّج» ومشتقاته بمعنى (برَّدَ وجمَّدَ)، وإضافته إلى المعجم العربي.

* * *

(١٥١)
مُثلَّجات أو مَثْلوجات
(لا آيس كريم)

١- المسألة:

يستعمل كثير من المتحدثين كلمة (آيس كريم) الأجنبية للدلالة على نوع من المأكولات أو الأشربة الباردة المجمَّدة. وقد عرَّبتها العامة من عبارة (ice cream) الأعجمية تعريباً لفظيًّا بعيداً عن ضوابط التعريب كما يُرى، ومعناها الحرفي (قشدة مثلَّجة).

٢- الاقتراح:

ونقترح وضع مقابل عربي مولَّد لهذه الكلمة أو التركيب وهو (مُثلَّجات)، لأن الخاصية الأساسية لهذا النوع من الأطعمة التثليجُ أو التجميد، أمّا أن يكون من مكوناتها القشدة فقد لا تكون كذلك دائماً، فقد يجمَّد ما ليس فيه قشدة.

٣- التعليل:

و(مُثلَّجات) هي جمع لكلمة (مُثلَّجة)، وهي من تسمية الشيء بصفته كما هو معروف في العربية، فقد تذكر الصفة ويراد بها موصوفها، وهذا ما سماه بعضهم بالصفة الغالبة، ومن ذلك كلمة (نافذة) مثلاً فإنما هي في الأصل (فُتحةٌ نافذة)، وقولنا (مدرَّعة) إنما هي في الأصل (مَركبة مدرَّعة)، فغلبت الصفة.

أمَّا إطلاقها على ما فيه قشدة وسواها من المأكولات المجمَّدة فهو من قبيل تعميم الدلالة، من مثل كلمة (الجريدة) التي كانت تطلق على دفتر أرزاق

الجند، ثم عُمِّمت لتطلقَ على كل صحيفة يُكتب فيها مقالات وأخبار شتَّى.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

الموافقة على وضع كلمة (مُثلَّجات) أو مَثْلوجات مقابل كلمة (ice cream) الأجنبية.

* * *

(١٥٢)

جَبَلَ

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر الفعل (جَبَلَ) ومشتقاته مثل: مَجْبَل وجَبَّالة، بمعنى خَلَطَ التراب أو الإسمنت أو الرمل ونحوها بالماء للوصول بالخليط إلى حالة معينة، ولم ترد هذه الدلالة للفعل في المعاجم القديمة والحديثة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «جَبَلَ» بمعنى خلط التراب أو الرمل ونحوهما بالماء، وكذا مشتقاته مثل مَجْبَل وجَبَّالة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «جبلَ الله الخلقَ يجبِلهم ويجبُلهم: خلقَهم. وجَبَلَه على الشيء: طَبَعَه، وجُبِل الإنسان على هذا الأمر أي طُبِع عليه. وجِبْلة الشيء: طبيعته وأصله، وجُبْلته وجَبْلته بالفتح (عن كراع): خَلقه.. والجِبْلة والجُبْلة والجِبِلّ والجِبِلَّة والجَبيل والجُبْل والجِبْل

والجُبُلّ، كل ذلك الأمَّة من الخَلق والجماعة من الناس، وحيٌّ جِبِلٌّ: كثير. والجِبِلَّة: الخِلقة، ومالٌ جِبْلٌ: كثير. والجَبولاء: العصيدة.. والجَبْلة والجِبْلة: الوجه».

- ومثله في تاج العروس.
- الوسيط: «جَبلَ الله الخلقَ يَجبُلهم جَبْلاً: خلقَهم. ويقال: جَبَلَه على كذا: خلقَه.. وجَبِلَ: غلُظ. وجَبَلَ فلاناً على الشيء والأمر: أجبرَه. جَبَّلَهُ: قطَّعه. الجَبْلة: الأرض الصلبة».
- المعجم الكبير: «جَبَلَ: صبَّ الماء على الشيء».

وهكذا نرى أن المعاجم القديمة لم تورد هذه الدلالة للفعل (جَبَلَ)، أما المعاجم الحديثة فلم تورده بدلالته الدقيقة العملية.

ب- في الدلالة:

شاع هذا الفعل ومشتقاته كثيراً في هذا العصر، ولاسيما في حقل البناء والصناعة، ويَعنون به خلط مادة صلبة كالرمل والتراب والإسمنت ونحوها بالماء بنسبة معينة للوصول بالخليط إلى حالة يصلح معها للاستخدام، وليس من فعل آخر في العربية يقوم بهذه الدلالة.

ولعل أقرب المواد اللغوية إليه في المعاجم القديمة هي كلمة (الجَبولاء) وهي العصيدة، التي هي دقيق يُلَتُّ بالسَّمن ويُطبخ، والجامع بينها وبين الدلالة الجديدة هو (اللَّتُّ) الذي يعني الخلط، جاء في اللسان: «اللاتُّ الذي كان يلتُّ عند هذه الأصنام السَّويق أي يخلطه».

أما تعريف المعجم الكبير فهو لا يعطي الدلالة الدقيقة العملية للفعل؛ إذ ليس الجَبْل هو مجرد صب الماء على الشيء، بل هو خلطه بغيره من مواد صلبة للوصول بالخليط إلى مادة معينة.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤-قرار اللجنة:

جواز قولهم: «جَبَلَ» بمعنى خَلَطَ الترابَ أو الرملَ ونحوهما بالماء، وكذا مشتقاته مثل مَجْبَل وجَبَّالة، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم العربي.

* * *

(١٥٣)

جَابهَ ومُجابهة وجَبْهة

١- المسألة:

يستعمل بعضهم الفعل (جابهَ) بمعنى واجهَ أو قابلَ الآخرَ بالقوة والشِّدَّة، ويخطِّئها بعضهم لأنه ليس للفعل هذه الدلالة في المعاجم القديمة.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «جابهَ» بمعنى واجهَ الآخر وقابله بالقوة والشدة، كأن يقال: «جابهَ الجيشُ عدوَّه»، وإضافة هذا البناء ودلالته مع مشتقاته إلى المعجم العربي.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- اللسان: «الجبهة للإنسان وغيره.. والجبهة موضع السجود. وقيل: هي مستوى ما بين الحاجبين إلى الناصية. والجابهُ الذي يلقاك بوجهه أو جبهته من الطير والوحش، وهو يُتشاءَم به.. والجبهة من الناس: الجماعة.. و **جبَه الرجلَ جَبْهاً: ردَّه عن حاجته واستقبله بما يَكره**.. وجَبَهْتُه بالمكروه إذا استقبلتَه به.. والجَبْهُ: الاستقبال بالمكروه.. والجَبْهة: الخيل لا يُفرَد لها واحد.. والجبهة: الرجال الذين يسعَون في حِمالة مَغرَم أو جبْر فقير».

- الوسيط: «جابَهَه مُجابهةً وجِباهاً: غالبَهُ..وجابهَهُ في القِرى، وجابهَتِ المرأة صاحبتَها: غالبتْها في الحُسن».

ب- في الصرف:

الفعل (جابهَ) فعلٌ على بناء (فاعلَ) من الفعل الثلاثي (جَبَهَ)، وإذا كان القدماء لم يستعملوا منه إلا المجرَّد فإن المحدثين قد استعملوا مزيده على بناء (فاعلَ) وهو قولهم كما في الوسيط: «جابهَهُ: غالبَهُ»، والزيادات على الثلاثي المجرد قياسية غالباً.

ج- في الدلالة:

يمكن أن يحمل هذا البناء أي (فاعلَ)، معنى الثلاثي المجرَّد (فَعَلَ). وفي العربية يتعاقب بناءا (فَعَلَ و فاعلَ) في الدلالة مثل دفعَ ودافعَ: جاء في الوسيط: «دفعَ الشيءَ: نحَّاه وأزاله بقوة، ودافعَ عنه الأذى أبعدَه ونحَّاه» ومثل: جهرَ بالعداوة وجاهرَ بها، ومثل: ضرَّهُ وضارَّهُ. وما يعضد هذا الرأي أن المعاجم الحديثة أوردت (جابهَ) بمعنى (غالبَ)، وهي دلالة قد تكون مأخوذة من الجبهة التي هي جماعة أخرى أو من (جبهَ) التي تعني (قابلَ الخصم بما يَكره).

ويشيع الآن استخدام كلمة (الجَبْهة) لمكان تقابُل الجيشين المتخاصمين.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤-قرار اللجنة:

جواز قولهم: «جابهَ» بمعنى واجهَ الآخر وقابله بالقوة والشدة، كأن يقال: «جابهَ الجيش عدوَّه»، وإضافة هذا البناء ودلالته مع مشتقاته إلى المعجم العربي.

* * *

(١٥٤)
مُجدَّداً بمعنى مكرَّراً

١ - المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر كلمة (مُجدَّداً) بمعنى مكرَّراً أو مستأنَفاً، في مثل قولهم: «أعلن الوزير مجدداً عن الإصلاحات». ويخطِّئها بعضهم لأنه ليس للكلمة على هذه الصيغة هذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢ - الاقتراح:

جواز قولهم: «مُجدَّداً» بمعنى مكرَّراً أو مستأنَفاً أو مرةً جديدة.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الجِدَّة: نقيض البِلى، ويقال: شيءٌ جديد.. وجَدَّ الثوبُ والشيءُ يَجِدُّ: صار جديداً، وهو نقيض الخَلَق.. ومِلْحَفةٌ جديدة حين جدَّها الحائك أي قطعَها.. وأصل ذلك كله (القَطْع)، فأما ما جاء على غير ما يقبل القطع فعلى المثَل بذلك كقولهم: «جدَّدَ الوضوءَ والعهدَ» والجِدَّة مصدر الجديد، والجديد ما لا عهدَ لك به».
- الوسيط: «جَدَّد الشيءَ صيَّره جديداً .. وتجدَّد الشيءُ: صار جديداً.. وجدَّ الشيءُ جِدَّة: حدث بعد أن لم يكن وصار جديداً».

ويُفهم مما سبق أن (الجديد) هو المقطوع لساعته من ثوب ونحوه وأنه نقيض الخلِق أي المتهرِّئ، وأنه ما حدث بعد أن لم يكن، وما لا عهد لنا به.

ب- في الصرف:

مجدَّد اسم مفعول من الفعل (جَدَّدَ) على وزن (مُفَعَّل)، وهي صيغة اسم مفعول للثلاثي المزيد المضعف، فلا خلاف فيه.

ج- في الدلالة:

قولهم: «أعلن الوزير عن الإصلاحات مجدَّداً» يعني حرفيًّا أنه أحدث الإعلان بعد أن لم يكن، في حين أن معناه المقصود هنا هو أنه كرَّر الإعلان الذي كان قد حدث بالفعل، فمن أين أتت دلالة التكرار والإعادة؟ والذي نراه أن التكرار والإعادة إنما أتت من معنى (التكثير) الذي هو من معاني بناء (فَعَّلَ)، أي إن الفعل (جدَّدَ) واسم مفعوله (مجدَّد) جَمَعا بين التعدية والتكثير، وهو ما أعطاهما دلالة التكرار أو استئناف ما سبق.

د- في النحو:

تستعمل هذه الصيغة لهذه الدلالة بالنصب على نيابة المصدر، فقولهم: «أعلن الوزير عن الإصلاحات مجدَّداً» الأصل فيه: (أعلن عن الإصلاحات إعلاناً مجدَّداً) ومما ينوب عن المصدر صفته.

هـ- في الاستئناس:

أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في كتاب الألفاظ والأساليب ٤/ ١٤٩ ولكن دون تعليل مستفيض.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «مُجدَّداً» بمعنى مكرَّراً أو مستأنَفاً أو مرةً جديدة(*).

* * *

(*) بدلاً من الترجمة الحرفية للتعبير الفرنسي de nouveau: من جديد!

(١٥٥)

جداريَّة

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر كلمة (جداريَّة) بمعنى لوحة رسم أو تصوير أو كتابة تعلَّق على الجدار. ولم ترد هذه الكلمة بهذه الدلالة في المعاجم العربية.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «جداريَّة» بمعنى لوحة فنية تعلَّق على الجدار للزينة، وإضافتها إلى المعجم.

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

- لسان العرب: «الجدار: الحائط، والجمع جُدُر وجُدْران. وجَدَرَهُ يَجدُره جَدْراً: حوَّطَه.. واجتدَرَه: بناه، وجدَّره: شيَّده. والجدير: المكان الذي يبنى حوله جدار».
- تاج العروس: «والمِجدار: ما يُنصب في الزرع مَزْجرةً للسباع والطَّير».

ب- في الصرف:

الجداريَّة: صيغة نسبة إلى الجدار مؤنثة، فلا خلاف في البناء واشتقاقه.

ج- في الدلالة:

تعني كلمة (جداريَّة) عند المحدثين لوحةً فنية تحتوي رسماً أو تصويراً أو كتابة، تعلَّق على الجدار للزينة، وهي من تسمية الشيء بصفته، إذ أصل الكلمة (لوحة جدارية أو زينة جدارية) والتسمية بالصفة ونقلها إلى الاسمية من سنن العربية، وسبق أن العرب قالت (مِجدار) لما يُستعمل فزاعة للوحش والطير، ولأوهى صلة بين الدلالة الأصلية والدلالة الجديدة.

د- في الاستئناس:

أجازها مجمع اللغة العربية بالقاهرة في الألفاظ والأساليب (٤/ ٤٥٣).

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «جداريَّة» بمعنى لوحة فنية تعلَّق على الجدار للزينة، وإضافتها إلى المعجم.

(١٥٦)

جَدْولَ والجَدْوَلة

١- المسألة:

يشيع في الاستعمال اللغوي المعاصر الفعل (جَدْوَلَ)، بمعنى جعلَ الشيء في جداول، أو عرضَ تفاصيل موضوع في جدول. وكذا يشيع مصدره (جَدْولة) لإحداث الفعل، وهي ليست مما ورد في المعاجم.

٢- الاقتراح:

جواز قولهم: «جَدْولَ» بمعنى عرض تفاصيل موضوعٍ ما في جداول، أو بمعنى نفَّذ أشياء وفق نظام محدَّد، وكذا جواز مصدره (الجَدْولة).

٣- التعليل: أ- في المعاجم:

١- لسان العرب: «الجدول: النهر الصغير»، ومثله في التاج.

٢- المعجم الكبير: «جدولَ الشيءَ: عرض تفاصيله في جدول وفق نظام معيَّن (محدثة)..والجدولة: عرض التفاصيل لموضوع ما في جدول أو تنفيذها وفق نظام معيَّن (محدثة)».

٣- الوسيط: «الجدول: صفحة يُخطُّ فيها خطوط متوازية قد تتقاطع فتكون مربعات يُكتَب فيما بينها (مو)».

ب- في الاستئناس:

- أجاز مجمع القاهرة في الألفاظ والأساليب ٤/ ٥٣١ قولهم: «جدولَ الأرض» بمعنى شقَّ فيها جداول. وكان قد أجاز (الجدولة) بمعنى ترتيب المسائل في جدول في الألفاظ والأساليب ٢/ ٩.

العضو: د. ممدوح خسارة

٤- قرار اللجنة:

جواز قولهم: «جَدْولَ» بمعنى عرض تفاصيل موضوعٍ ما في جداول، أو بمعنى نفَّذ أشياء وفق نظام محدَّد، وكذا جواز مصدره (الجَدْولة)، وإضافة هذه الدلالة إلى المعجم.

* * *

الكتب والمجلات المهداة
إلى مكتبة مجمع اللغة العربية
عام ٢٠١٧م

أ. أنور درويش(*)

الكتب العربية

- الاستعداد للقرن الحادي والعشرين: بول كيندي، ترجمة: إبراهيم يحيى الشهابي، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٢.
- استكشف الكون: سائر بصمه جي، دار البابا للنشر، حلب.
- أصول الصابئة ومعتقداتهم الدينية: عزيز سباهي، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ١٩٩٩، ط٢.
- الأعمال القومية لساطع الحصري: ساطع الحصري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٠، ط٢.
- أولويات الحكومة في سياسة العلم والتكنولوجيا: كليم تسيديل، ترجمة: يوسف يعقوب السلطان، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٩.

(*) أمين المكتبة العربية في المجمع.

- البعد التكنولوجي للوحدة العربية، أنطوان زحلان، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨١.
- تحية طيبة وبعد: الصادق النيهوم، تالة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١، ط٢.
- الثورة العالمية الأولى: من أجل مجتمع عالمي جديد: الكسندر كينج، برتراند شنيدر، تقديم: إبراهيم عبد الرحمن، ترجمة: وفاء عبد الإله، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٢.
- الجبر: عمران قوبا، المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، [دمشق]، ٢٠٠٩، الجزء الأول.
- الحركة الأدبية في بلاد الشام: عبد النبي اصطيف، محمود ربداوي، وهب رومية ..وآخرون، دمشق عاصمة الثقافة العربية، دمشق، ٢٠٠٨.
- حيازة التكنولوجيا المستوردة من أجل التنمية الصناعية، فرهنك جلال، محمد عميرة، محمد مراكب... وآخرون، ترجمة: محمد رضا محرم، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٧.
- الدولة والمجتمع: دراسة سوسيولوجية نقدية في تاريخانية المجتمع المعماري، بوخريسية بوبكر، تقديم وتحقيق: محمد محفل، دار طلاس، دمشق، ٢٠٠٥.
- سارة: المرأة التي هدمت الإمبراطورية العثمانية، لطفي أكدوغان، تقديم ومراجعة: محمد محفل، دار طلاس، دمشق، ١٩٩٥.
- ماركسية القرن العشرين: روجيه غارودي، ترجمة: نزيه الحكيم، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٣، ط٥.
- محمد كرد علي المثقف وقضية الولاء السياسي، محمد الناصر النفزاوي، دار الجنوب للنشر، تونس، ١٩٩٣، (سلسلة معالم الحداثة).

- ملخص كتاب نظرة تحليلية في مشكلة الغذاء في البلدان العربية، صبحي القاسم، مؤسسة عبد الحميد شوفان، ١٩٨٢.
- من مكة إلى هنا: الصادق النيهوم، تالة للطباعة والنشر، بيروت، ٢٠٠١، ط٢.
- من نوادر مخطوطات المكتبة المغربية: نجاة المريني، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠٠١.
- نهاية التاريخ: هنري لوفيفر، ترجمة: فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق، ٢٠٠٢، (سلسلة دراسات فكرية؛ ٧٥).
- النهضة القومية الثقافية العربية: يغيا بخاريان، ترجمة: بوغوص سراجيان، الدار الوطنية الجديدة، دمشق، ٢٠٠٥.
- همسات: أحمد إبراهيم عبد الله، تقديم: مصطفى طلاس، دار الذاكرة، بيروت.
- وهذا لسان عربي مبين: مازن المبارك، دار البشائر، دمشق، ٢٠١١، (سلسلة هذه سبيلي؛ ٣).

* * *

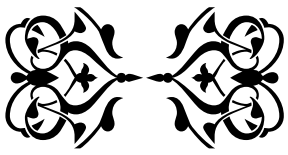

تنضيد وإخراج: عمار البخاري